

شِفْيَةُ حَمْرَى

، عضو المجمع العلمي العربي ،

الحاضرات التي القاها المؤلف في كلية الآداب في دمشق

سنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠

الملائكة في الحدائق

حالي الدنيا و سُؤال الموت

يحتفظ المؤلف بحقوق الطبع

اعتنت بنشره

كتاب الحدائق

لصاحبها محمد عنان الجزايري وآخرين
عام تأليفه ١٩٣٠



شِفْتَنْ حَبْرَيْ

«عضو المجمع العلمي العربي»

المحاضرات التي القاها المؤلف في كلية الآداب في دمشق

سنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠



على الدنيا وسُلْطَنُ النَّاسِ

يحتفظ المؤلف بحقوق الطبع



اعتنى بنشره



لصاحبها مجمع언란 الجزيري وأخوه

شام سنة تأسست ١٩٢٩

١٩٣٠ مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٣٤٩

هذا ما حضرت به سنة ١٩٣٠ - ١٩٢٩ في كلية الآداب
دمشق ، وقد جمعت محاضراتي في كتابي هذا دون ان ازيدها
انقصها شيئاً فعساهما ان تكون ذكرى طيبة لاول كلية ادبية انشئت
ديارنا واني لارجو ان تظهر في اضعافها نيات صاحبها في ا-
المحبة للادب ۹

شفق ببره

حزيران ١٩٣٠

الأدب

«افقه . فعله . غايتها»

فكّرت في شيء من الكلام أمهد به السبيل الى دارسة الادب في خلال هذه السنة ، قلت : دراسة الادب ، وكان يجب عليّ أن أقول : أحاديث الأدب . لأن كلة الدراسة تدل على شيء من جهد الذهن وعنت الفكر ، وما ينبغي للادب ان يكون الا أهمية يتلاهي بها العقل ، لكنها أهمية شريفة لاتشبه غيرها من الالاهي ، ما ينبغي للأدب ان يكون الا لذة الفكر وراحة البال . فكّرت في شيء من الكلام أستعين به على الاستهلال ثم عدلت عن التفكير وقلت مقالة الاستاذ (برونتيير Brunetière) في حاضرة من حاضراته^(١) : لعากم تعترفون بان المقدمات الطويلة لا تكون في كل حين اروع المقدمات وأفضلها ، فلنشرع في حديثنا الاول دون الافاضة في التمهيد .

* * *

قلت : الأدب أهمية ولكنها شريفة . و اذا اردنا ان نعرف مبلغ شرفها لزمننا ان ننظر الى أفق الأدب المديد . فتى ادركنا العالم الذي يحيط به الادب علمنا مقدار اتساع افائه وانبساط سلطانه .

قال «اناتول فرانس Anatole France » في مقال له في معجمات اللغة^(٢) : «أني أحب معجمات اللغة . فانا لا احبها لجرد فائدتها العظيمة ولكنني احبها لانها تحتوي على شيء جميل رغم . انظر الى معجم غازية او الى غيره من المعجمات وتصور انك ترى روح وطننا كله في هذا المعجم ، ليتصور ذهنك ان في هذه الصفحات التي يبلغ عددها الف صفحة او الفاً و مائة صفحة عبقرية فرنسية وطبعتها . ليتصور ذهنك ان

(١) اطوار الشعر الغنائي في فرنسة في القرن التاسع عشر - ص ٣

(٢) الحياة الادبية - الجزء الثاني - ص ٤٢٩

فيها افكارنا وافكار اجدادنا وافراحنا وافراحهم واعمالنا واعمالهم وآلامنا وآلامهم .
ليخطر بيالك از في هذ المعجم آثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل ، آثار الذين استنشقوا
الهواء الصالح وشموا النسيم العليل الذي نشهي اليوم . ليخطر بيالك ان كل كلمة من
كلمات المعجم يقابلها فكر من الأفكار كان فكر طائفه من البشر لا يعلم عدده .
وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمور من الناس لا يحصل مقدارهم . ليه جس في
صدرك ان كل هذه الكلمات الجموعة انا هي لحم الوطن والبشر ودمها وروحها » .
اني احب ان اقتبس قول انا تول فرنس في اللغة فأقوله في الادب نفسه فإذا قلنا
في الادب ما قاله انا تول في اللغة ، اذا قلنا على سبيل التجوز ان الادب روح الوطن
وعقريته ادركتنا حينئذ معنى كلامنا : الادب أهية شريفة لاتشبه غيرها من الالاهي

* * *

كنت أطلاع روایة من الروایات ^(١) فعلقت بذهني عبارة قيدتها في دفتری قالها شیخ
ایطالی في حض قى على درس اللغة اللاتینیة :
« ان هذه اللغة الشريفة قد انسنی آثارها المنقطعة النظير آلامي وشجوني في
معظم الاوقات . كنت يا سیدي أتغدى وما غدائی الا صفحه من « تاسیت » وأتعشی
وما عشائی الا اجهیة من « جوفنال » .

لقد ادرك هذا الشیخ غایة الادراك له ، ادرك ان الادب يفرج الغم
ويكشف الكرب وينشئ في العقول لذة لا يعد لها كثیر من لذات الدنيا فهي لذة
هادئة لا يضطرب صاحبها ولا يقلق . اني على رأي الذين يريدون ان لا يكون
الادب موضوع علم وانما اريد ان يكون الادب كما قال فيه الاستاذ (لانسون Lanson)
رياضة وذوقاً ولذة . ولا باس بأن اتلوا عليكم فصلاً للأستاذ (لانسون) في طبيعة
الادب و فعله ^(٢) :

« الادب لا يعلمه المرء علماً ولا يدرسه دراسة وانما يمارسه ويحرثه ويحبه .

(١) رغائب يوحنا سرفیان بقلم انا تول فرنس .

(٢) تاريخ الادب الفرنسي - ص ٨

وصدق كلام عليه أنها هو كلام (ده كارت Descartes) الذي قال : قراءة الكتب الصالحة حديث يحدّثك به اشرف رجال القرون الخالية ولكن حديث لا يعرض عليك فيه أولئك الشرفاء الا احسان افكارهم .

ان الرياضيين — وانا أعرف طائفه منهم — الذين يلهيهم الادب فيذهبون الى المسارح ويقرأون الكتب على سبيل التسلية انما هم أقرب الى الصواب من هؤلاء الادباء الذين لا يقرؤون الكتاب قراءة ولكنهم يجردونه تجريداً وينظرون اليهم يصيرون الاصابة كلها اذا جعلوه ابواباً . خلق الادب لينشيء لذة لنا ولكنها لذة تروض قوانا العقلية فيخرج العقل من رياضة الادب اقوى سلطاناً وامراً طبيعة واغنى مادة وعلى هذه الصورة يكون الادب ثقاف الباطن . هذه هي حقيقة فعله .

وللادب الفضل الاكبر في تدريب الناس على ذوق لذة الافكار : انه يروض الفكر فيجد المرء في هذه الرياضة مسرّته و راحته و تتجدد قواه . انه يذهب تعينا الذي تتعبه في ممارسة الاعمال ويرفع العقل فوق كل واجب و فوق كل مصلحة و فوق كل وهم . أصبحت الفلسفة في عصرنا هذا ضرورة العقل ولكن الفلسفة لا يستطيع درسها كل واحد منا ، أما الادب فانه يعمم الفلسفة . بالادب تستفيض في الجماعات المذاهب الفلسفية الكبرى التي ترقى بهذه الجماعات وتغير أوضاعها . الادب هو الذي يتهدى النقوس التي أثقلتها تكاليف الحياة واغرقتها مشاغل المادة فيحملها على الاعتناء بالمسائل السامية التي تستولي على الحياة وتحجعل لها معنى او غاية . لقد ضعف الدين في كثير من رجال العصر وبعد أفق العلم عن كثير من الناس فالادب وحده هو الذي ينزع بنا عن الاشارة الضيقية او عن الحرفة التي تغرس فينا غرائز الحيوانية » .

هذا ما قاله الاستاذ (لانسون) في طبيعة الادب وابلغ كلامه : الادب ثقاف الباطن . من هذا يتبيّن لنا ان الثقافة الادبية مجردة أي لا غاية مادية لها وكأنّ الذين قرروا انشاء مدرستنا قد فطنوا لهذا فأحبّوا ان ينبهوا عليه فقالوا : غاية مدرسة الادب العليا تشريف الجمهور تنقيضاً مجرداً وتعليمهم علمًا عاليًا في نظام الادب ، وهم يعنون بذلك ان الثقافة الادبية لا تكون غايتها الالكتسب فلا يدرس الانسان

الادب ليعيش به كايدرس الحقوق أو كما يدرس الطب مثلاً وإنما يحصل الادب للذاته.
اراد احد شباب الفرنسيين ان ينصرف الى الادب فسأل (فلوبير) عن رأيه في
ذلك فقال له (فلوبير Flaubert) :

« الأخلاص يدفعني الى ان أبين لك ان استئثار عمليك أمر صعب جداً ان لم يكن
ممتنةً ، انك لا تزال ناعم الشباب فاعمل واعمل كثيراً واعتزل في عملك ولا ترج ان
تكون لك مكافأة ولا تفكر في نشر ما تكتب ، تقحّل طريقي فقد كان عمري سبعاً
وثلاثين سنة لما نشرت (مدام بو فاري) فاذا خطر ببالك ان تستخرج فائدة من
آثارك ضللوك كنت من الخاسرين فلا تفكر الا في الفن ذاته وفي كماله وما عدا
ذلك فهوتابع له .

لا تظن ان حياة اديب مثل ناضرة بالازاهير فإذا ظننت شيئاً من ذلك كنت من
الواهمين ، اذا كان حبك للادب خالصاً فحصل الادب لنفسك قبل كل شيء واقرأ
كثيراً كتب (المدرسيين) وروض قلمك على كتابة اشياء شعرت بها وعلى وصف
البيئة التي تأنس بها » .

علمنا (فلوبير) ان نحصل الادب لانفسنا دون ان نرجو مكافأة . ينبغي لنا ان
نحصل الادب لمسرة قلوبنا ورياضة عقولنا وتهذيب عواطفنا ، فإذا لم تكن هذه غايتنا
لم نستفيد من الادب ، اذا كنا توخي الكسب في تحصيل الادب انحط ادبنا عن
منزلته الرفيعة وصار صناعة من الصناعات التي يمارسها الانسان ليعيش في هذه
الدنيا ، والادب اجل من ان يكون حرقه ، اتنا نحصل الادب لنذوق لذة الحياة ، اتنا
نجبه كما كان الشيخ الايطالي يحب آثار اللغة اللاتينية . اتنا نحبه لانه ينسينا الالم
والشجون ، على انه قد يحوز ان يفيدنا الادب فوائد عظيمة ولكن لا ينبغي ان
 تكون هذه الفوائد غاية الادب وإنما نجنيها على طريقتنا في نزهة العقل كما نجني
 الورد والريحان على طريقتنا في نزهة البدن . اتنا لا نتنزه لنقطف الورد ولكننا
 نتنزه لنروض أجسامنا ، وكذلك لا ندرس الادب ليعيش به ولكننا ندرسه لنروض
 به عقولنا .

قلت : قد يفيد الادب فوائد عظيمة ، واذا سمحتم لي قرأت لكم عباره من مقال لي عنوانه : « الكتاب ملوك » ، ومن هذا المقال يتبين لكم ان الادب قد رفع كثيراً من الناس و لكن المنفعة يجب ان تأتي على سبيله كالياتي الورد والريحان على سبيل المترzin .

* * * *

اما وقد فرغت من الحديث الاول فما احب ان اخرج من مجلسنا هذا قبل ان يتأنى كد عندي اتنا ادركتنا غاية الادب . ما احب ان اخرج من هذا المجلس قبل ان اثبت باننا علمنا ان الادب انما هوا : رياضته وذوق ولذة ، لانفرغ له لغرض من اغراض الدنيا فهو اجل » من ان تكون غايتها الكسب وانما نمارسه لندرك به جمال هذا العالم . اتنا نمارسه لنفرج به غم هذه الحياة . يقول انا تول فرانس في « هوغو » في معرض النقد «^١ » عاش فيكتور هوغو ثملا تسکره الالوان ورنات الاصوات وقد اسكن العالم بذلك . فاذا جاز لي هذا التعبير قلت : الادب يسكن بالوانه ورنات ألفاظه فهو نزهة عقولنا ونعم النزهة ، يشحذ الطابع ويبيح النفس ويعمر الصدر «^٢ » اني لا ارى اشتطاطا في الحكم على الادب يشبه اشتطاطا تاسوني Tassoni الذي كان يعتقد ان الادب مضر بالجماعة والبشرية . اي شيء احسن ترويضاً لمداركنا من الادب . اي شيء احسن تهذيباً للاهواء منه . اي ثقافة اعمل في التقرير بين البشر من الثقافة الادبية . واذا لم يكن لادبنا في هذا العصر عاقبته المحمودة فهذا ناشئ عن انه لا يزال في عزلة عن الانواع الادبية الحديثة التي فعلت فعلتها في الامم . فاذا كان الحديثنا خلاصة فهذه خلاصته :

الادب الهيئة شريفة وحسبها شرفاً ان يكون موضوعه اهاروح الوطن وعقريته ؟

٩ تشرين الثاني ١٩٢٩

(١) الحياة الادبية - الجزء الاول - ص ١١٠

(٢) المحافظ نفسه وهو شيخ ادبائنا يرى هذا الرأي في الادب - طالع فصله في محسن الكتابة والكتب في كتابه : الحasan والاضداد

شأنه الذوق

دراسة المصادر الأدبية . الانفراد بالرأي في الأدب

ما أظن انكم نسيتم ما حدثتكم به في الأسبوع المنصرم ، ما أظن انكم نسيتم أفق الأدب و فعله و غايته ، اني اعتقاد الاعتقاد كله ان مطافكم في هذا الافق الفسيح يوطئ لكم السبيل الى الاهاطة بروح وطنكم و عقريته ، واذا قلت روح الوطن و عقريته عنيت بذلك ثمرات قرائحته ونتائج خواطره من منبثق فجره الى يومنا هذا . اني اعتقاد الاعتقاد كله ان المطاف في هذا الافق يدخل السرور على القلوب و يشقف البواطن و يهدب العواطف وليس بقليل ان ينسليخ المرء من حيوانيته و يحلق في جو أعلى من جو البشرية ، والادب هذا فعله في الامم . فاذا كانت غايته مجردة و ثقافته خالصة نجم واثر : هذا أفقه ، وهذا فعله ، وهذه غايته . ما أظن انكم نسيتم شيئاً من ذلك .

غير اني أتوقع بعد ان بینت لكم أفق الأدب و فعله و غايته على سبيل الایجاز وعلى قدر ما سمح به الزمن ، غير اني أتوقع ان تقولوا لي : ادركنا هذا كله ، ولكن كيف السبيل الى ذوق لذة الأدب ، كيف السبيل الى الاتصال بهذا الافق و العلم بهذا الفعل والخلوص الى هذه الغاية ، ولو قلتم لي شيئاً من ذلك لوقع القول مني موقعه لأن السر كل السر في تمهيد هذه السبيل . قال الاستاذ لانسون Lanson :^(١)

« لا أكاد أفهم كيف يدرسون الأدب من دون أن تكون غايتهم في دراسته ثقافتهم وحدها ، لا أكاد أفهم كيف يدرسونه من غير أن يكون مرئى فكرهم الالتذاذ بالادب ، لا ريب في ان الذين يتفرغون لتدريس الأدب يلزمهم ان يجمعوا معارفهم في نظام واحد وان يهيئوا لهم طرائق في التدريس وان تكون وجهتهم أصح وأوضح من وجهة هواة الأدب الصغار . ولستنا لا ينفي لنا ان ننهل عن أمرین : الامر الاول

ان أستاذ الادب الذي لا يعني بتنمية الذوق الادبي في تلاميذه ولا يستمليهم الى ان يبحثوا كل حياتهم في الادب عمما يشحذ افكارهم ويسليهم عن هموتهم لا يكون أستاذًا صالحًا ، هنا هو المدف الذي يجب علينا ان نرمي اليه لا ان نعد للطلاب جوابات الى يوم الامتحان ، والامر الثاني لا يستطيع أستاذ الادب ان ينفع بتدریسه ان لم يكن هو نفسه من هواة الادب قبل ان يكون من العلماء ، لا يمكن ان يشر تدریسه اذا لم يبدأ بثقیف نفسه بهذا الادب الذي ينبغي له ان يجعله ثقافاً لغيره ، لا يمكن ان يؤدي تدریسه الى اخواتيم الحسنة اذا كان نقباً عن الاـثار الادبية وجمعها ، ولم تكن غايته في تنقيبه وجمعه زيادة ادراكه للادب وزياـدة لذته بعد هذا الـدرـاك .

ما أصبح هذا الكلام ! ما الصـفة بالحقيقة ! الاستاذ الذي لا يعني بتنمية الذوق الادبي في تلاميذه لا يكون أستاذًا صالحًا ، تـنمـيةـ الذـوقـ هـذاـ هوـ هـدـفـ الاستـاذـ وـعـلـىـ حـسـبـ ذـوقـناـ الـادـبـيـ يـكـونـ شـعـورـنـاـ بـالـجـمـالـ .ـ وـاحـسـاسـنـاـ لـلـقـبـحـ ،ـ عـلـىـ حـسـبـ هـذـاـ ذـوقـناـ يـكـونـ اـدـرـاكـنـاـ لـخـاصـنـاـ عـالـمـ وـمـقـابـجـهـ ،ـ فـاـذـاـ فـسـدـ ذـوقـناـ الـادـبـيـ ضـعـفـ شـعـورـنـاـ بـجـمـالـ عـالـمـ وـبـهـجـةـ الـحـيـاةـ ،ـ اـذـاـ فـسـدـ هـذـاـ ذـوقـ اـنـقـلـبـتـ أـصـوـاءـ الـحـيـاةـ ظـلـمـاتـ بـعـضـهاـ فـوـقـ بـعـضـ ،ـ وـماـ اـنـخـطـ الـادـبـ الـاـلـفـسـادـ الـذـوقـ ،ـ اـصـبـحـنـاـ فـيـ عـصـرـ لاـ نـسـتـطـعـ التـمـيـزـ فـيـ ،ـ تـعـرـضـ عـلـىـنـاـ الـاـثـارـ الـصـالـحةـ فـلـاـ نـهـتـدـيـ إـلـىـ التـلـذـذـ بـصـلـاحـهـ وـتـعـرـضـ عـلـىـنـاـ الـاـثـارـ الـغـائـيـةـ فـلـاـ نـقـبـضـ عـنـ مـوـاضـعـ فـسـادـهـ ،ـ وـلـوـ سـلـمـ ذـوقـناـ لـتـيقـظـ فـيـنـاـ الشـعـورـ بـمـتـاعـةـ الـاـثـارـ وـشـنـاعـتـهـ ،ـ فـاـ كـلـ أـثـرـ مـنـ هـذـهـ الـاـثـارـ الـادـبـيـ فـاسـدـ قـبـحـ ،ـ وـلـاـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـاـ مـانـعـ جـيدـ ،ـ فـالـذـوقـ وـحـدهـ هـوـ الـذـيـ يـهـدـيـنـاـ سـوـاءـ السـبـيلـ فـيـ التـميـزـ وـالـاستـاذـ هـوـ الـذـيـ يـقـويـ فـيـنـاـ هـذـاـ الذـوقـ .ـ تـقـيـفـ الذـوقـ الـادـبـيـ هـذـاـ كـلـ شـيـءـ فـيـ الـادـبـ .

وـقـبـلـ انـ أـبـيـنـ كـيـفـ يـسـتـطـعـ الـاستـاذـ انـ يـرـوـضـ تـلـامـيـذـهـ عـلـىـ ذـوقـ لـذـةـ الـافـكـارـ أـحـبـ انـ اـنـظـرـ فـيـ الـاـمـرـ الثـانـيـ الـذـيـ أـشـارـ اليـهـ (ـلـانـسـونـ)ـ ايـ أـحـبـ انـ أـبـيـنـ انـ أـسـتـاذـ الـادـبـ الـذـيـ لاـ يـكـونـ مـنـ هـواـةـ الـادـبـ لـاـ يـسـتـطـعـ انـ يـقـفـ ذـوقـ تـلـامـيـذـهـ ،ـ

فالادب شيء وعلم اللغة شيء آخر وقد يجوز ان يضرب الاستاذ في اللغة بالسهم الفائز وان يأخذ منها الحظ الاوفر ولا يكون في هذا كله أدبيا ، اي لا يعرف أماكن الجمال وموطن القبح في آثار اللغة الخالدة فاذا خرج الاستاذ عن ان يكون أدبيا ، اذا لم يستطع ان يذوق لذة الجمال أعمق التدريس وأفسد الاذواق وممى فسد الذوق فسد كل شيء في الادب ، استاذك ذوقك : هذه كتبة (فولتير Voltaire)

قلت : ثقيف الذوق الادبي هذا كل شيء في الادب ، فكيف يقف هذا الذوق و يقوم ، كيف يدرّب على التمييز في الآثار الادبية ، هنا العقبة الكثيرة ، وهنا يظهر ضعفنا وينكشف امرنا . سئلت مرة عن رأيي في اساليب طلاب (البكالوريا) في الانشاء ، فقلت بعد التمحيق والتدقّق في جملة ما قلت : ان الطلاب لم يتمّقاوا التعمق كله في الموضوعات التي طرحت عليهم ، فقد كانت افكارهم سطحية على انهم كانوا يستطيعون بفضل ثقافتهم العامة التعمق في الموضوعات والذب في ذلك يرجع الى اساليب التدريس . فلم ينظر الطلاب في كتاباتهم نظرات عامة اي انهم لم يبحثوا عن كاتب او شاعر على وجه عام او عن نتائج عصر من العصور على صورة عامة ، او عن التطور الادبي في خلال العصور ، ان الاستاذ لا يدربونهم على التفكير ولا يعودونهم ان تكون لهم افكار عامة في موضوعات حديثة . وجملة القول ان تدريس الادب ينقصه الشيء الكثير فهو لا يستند الى دراسة المصادر الادبية نفسها اي الى دراسة كلام المؤلف او شعر الشاعر او خطبة الخطيب فان تفسير هذه المصادر هو المعتمد عليه في تدريس الادب والظاهر ان هذا النقص ذاته كان في مدارس فرنزية حتى جاء في بلاغات وزارة المعارفها سنة ١٩٠٢ ان تدريس الادب يجب ان يكون اساسه درس المصادر الادبية نفسها .

الم Howell عليه من كلامنا هذا درس المصادر الادبية لأن هذا الدرس هو الذي يقوّم الذوق فكيف تدرّس المصادر الادبية ، كيف يشرح كلام الكتاب وشعر

الشعراء هذا الذي نحوم عاليه ونلوب فلا نكاد نصل اليه ، فقد كانوا لازمال اذا شرحا شعراً توخي تفسير الغريب من هذا الشعر واعراب المشكل من تراكيبه والتنبيه على مذاهب الاستعارات والكنيات وسائر فنون المجاز هذا شيء وليس بكل شيء ان التفسير اللغوي قد يولد فينا ميلاً الى معرفة مفردات اللغة ولكنه لا يولد فينا ذوقاً اديباً اي لا يقوى فينا الشعور بالجمال ، واللغة كما قلت شيء والادب شيء آخر ، وكثير من علماء اللغة انفسهم لا ذوق لهم في الادب .

ان هذه المصادر الادبية التي تفرغ لدراستها تشتمل على امور غير امور اللغة وآلاتها . ان هذه المصادر انما هي آثار ناطقة يظهر على كل واحد منها روح صاحبه وفكرة وعاطفته فتدلكم على اهواء صاحبها وهو اوجهه . فلذا اردتم ان تعرفوا شيئاً من روح الشاعر ومن فكره ومن عاطفته فان التفسير لا يضمن لكم الوصول الى هذه المعرفة ولكنه يعينكم عليها فاستنبطوا المصادر الادبية واسالوا كلام المؤلف وشعر الشاعر وخطبة الخطيب فان من وراء هذا كله اشخاصاً ينتظرون ويشعرون فلذا خالطتم هذه المصادر وماز جتموها احاطتم بظواهر اصحابها وبواطنهم واتصلتم بسرارهم والغازيم فعرقتم خصائصهم وطبائعهم واهتدتم الى اخلاقهم واوضاعهم فنشأت في انفسكم من هذا كله لذة منقطعة النظير ومن هذا يتبيّن لكم انه لا بد لكم من الاحاطة بعلم النفس حتى تستطعوا ان تمضوا القول في روح الشاعر وفي عواطفه .

قلت : المصادر الادبية تدلكم على آثار العصر والبيئة فيها او تنبئكم على آثارها في هذا العصر وفي هذه البيئة وهذا معناه انه لا بد لنا من معرفة العصر الذي نحاول درس شاعر من شعرائه فلا بد لنا من معرفة مصطلحات هذا العصر والافكار التي ولدعا هذا الشاعر في عصره والعواطف التي أيقظها فلذا كنا ندرس المتنبي ووقع نظرنا على اسلوب غريب في شعره او على لفظ غريب فلا يصح ان نجزم ونقطع قبل ان يتحقق عندها ان هذا الاسلوب غريب قياساً الى عصر المتنبي اذ انه قد يكون غريباً في عصرنا ومانوساً في عصر ابي الطيب .

يستنبط مما تقدم اننا ينبغي لنا ان نستعين بالمصادر الادبية نفسها على فهم روح صاحبها وافكاره وعواطفه فإذا استطعنا ان نفهم شيئاً من ذلك ننشأ فيما ذوق ادبي ومتي نشاً هذا النزق وكان سليماً خالصاً شعرنا بمحاسن الاثار الادبية وبهذا الشعور تزداد لذتنا بمحاسن العالم نفسه على اننا لا نستطيع ان ندرك حقائق المصادر الادبية الا اذا كنا منفردين باسم البحث والتنقيب فلا ينبغي أن يكون لغيرنا تأثير علينا ، لا ينبغي لنا أن نكرر كلام غيرنا على أثر من آثار الادب فإذا فعلنا شيئاً من ذلك كانت دراستنا الادبية جامدة لا روح فيها . —

قال الاستاذ « لانسون »^(١) : Lanson

« اذا حاولت ان اتصور خصائص المؤلفات وطابع أصحابها امتنعت عن تلخيص آراء من اولعت بهم من الاساتذة في هذه المؤلفات أشباه « تين » و « سانتيوف » و « غاستون باري » و « بروتير » فألاولي لي وأنا اخوض في موضوع ليس فيه حقيقة مبنية على أصول مساعدة الى عقل ان شخص ما انشأته في قراءة هذه المؤلفات من الانفعالات وما أخطرته بيالي من الاراء وما اهتدت اليه من صيغ فكر المؤلف وعاطفته ، وعلى هذه الصورة وحدتها تكون الدراسة صادقة فيها وروح ، اذا انه لا يستطيع أحد ان يستميل غيره الى الامور التي يخوض فيها الا اذا استuan على ذلك بالذوق الذي ذاقه هو نفسه في هذه الامور » .

هذا ما قاله لانسون ومن قوله هذا يتبيّن لنا أننا اذا أردنا الكلام على المتنى مثلاً لزمنا ان ندرس شعر المتنى نفسه دون ان نردد ما قاله فيه بعض الاساتذة كالشعالي والجرجاني وغيرهما ، اذا أردنا الكلام على حس المتنى لزمنا ان ندل على مواطن الحس وعلى طبائعه من دون ان نستعيir كلام غيرنا . والخلاصة اذا حاولنا دراسة المتنى وجب علينا أن نقرأ شعره وندون الاثار التي تركها فينا هذا الشعر ونقل هذه الاثار الى غيرنا حتى يكون في كلامنا شيء من الروح والحياة وعلى هذا ينمو ذوقنا في الادب ومتى نما هذا النزق نما معه الشعور بالجمال .

اني لا ارى أضل سبيلا من الذين لا يريدون أن ينفردو بأرائهم في الادب ، و على الخصوص بعد أن عرفنا أن الادب ليس فيه حقائق مبنية على أصول مستندة الى عقل ، اي ليس فيه شيء من حقائق العلم الثابتة وانما الادب يتبع الذوق والعاطفة فتتغير آراء الناس فيه بتغير أذوافهم وعواطفهم . انظروا مثلا الى « فيكتور هوغو » فقد قال فيه « فاكه Faguet » « هوغو من الخالدين لأن جمال الاسلوب هو الذي يخلد » وقال فيه اناتول فرانس : « ان مجد الشاعر الذي احتفل امس آخر احتفال بوفاته يأتي عليه اليوم دهر . صعب حرج ، لقد ذهب اعجابة المعجبين به الذين كانوا او اعيوا ابعد ان جهدوا في ذلك الاعجاب خمس عشرة سنة ، وتبعدت طائفة من الاوهام فقد كانوا يظنون ان شاعراً كبيراً فكر اكثر من ذلك فلا بد لنا من الاعتراف بأن هزه للالفاظ كان اكثرا من هزه للافكار » . انظروا الى تناقض هذين الرأيين في شاعر مثل « هوغو Hugo » وقد نظر اليه اناتول فرانس وفاكه من ناحية واحدة بوجه التقرير ، فاكه نظر اليه من ناحية الاسلوب ، واناتول نظر اليه من ناحية هز الالفاظ . ومنه يتبيّن لكم قلق الادب واضطرباته فإذا كان الامر كما وصفنا فما اجر الدليلين يريدون ان يذوقوا لذة الادب بالانفراد بأرائهم دون ان يكون لغيرهم سلطانا عليهم .

هذا ما حاولت تقريره في هذا المجلس و ما اريد ان ابسط القول اكثرا من ذلك ، ولئن كانت خلاصة حديثنا الاول : الادب روح الوطن و عبريته خلاصة هذا الحديث : تقييف الذوق هو الذي يضيء لنا الظلمات حتى ندرك روح هذا الوطن و عبريته ۹

١٩٢٩ تشرين الثاني سنة

(١) القرن التاسع عشر : فيكتور هوغو .
(٢) الحياة الادبية

٢٠٣ مجاز الثقافات

ما ارى حاجة الى ان اعيد في هذا المقام ما قلته في دراسة المصادر الادبية فقد عرفتم ولا ريب في ذلك كيف يجب علينا ان نقرأ كلام الكاتب او شعر الشاعر او خطبة الخطيب ، عرفتم كيف يجب علينا ان نحيط بروح المؤلف و بافكاره وبعواطفه ، وننظر في اتصال هذه الامور النفسية بعضها البعض وفي تفاصيلها ومظاهرها ، عرفتم كيف ينبغي لنا ان نبحث عن بيان المؤلف و فنون افصاحه ، وعن خصائص لغته وأسلوبه ، وفي الجملة فقد عرفتم كيف ينبغي لنا ان ندرس المصادر الادية ، واذا قلت : دراسة المصادر الادبية ، اردت بذلك التعمق في التقييب عن فكر المؤلف وعواطفه . والتمكن من معرفة مراميه والوصول الى تلك الذكريات التي كانت تخطر بباله في ساعات تأليفه وكتابته ، فاذا كنا نفسر كلاماً فكأننا نحاول ان نقوم مقام صاحب الكلام ، نبعث قبلة أعيننا حالة عقله من مرقدها ، ونتعشن فكره وانفعالاته بعد ان ذهب اثره وانطوى ظله ، ولم تبق منه الا صفحات لا نرى فيها في فاتحة الامر غير صور بعيدة عنا ، وتعابير جامدة لا روح فيها ، فاذا عالجناها انقضت من مدافنها فاصبحت صوراً ناطقة تشعر وتفكر .

كان يجب عليّ بعد ان فرغت من هذا التمهيد ان اشرع واياكم في قراءة شعر ائتنا الثلاثة : اي الطيب و اي عبادة و اي تمام ، وانا لا اشك في ان هذه الاسماء العريية صدی في آذانكم لا نجده لغيرها من الاسماء غير اني اذا كنت قد استعنت بطائفة من آراء الافرنجية على الخوض في موضوع للعرب فيه المقام الأرفع والمحل الاشخ ، فما اردت بذلك ان اكفر نعمة ادب ذهبت في الشغف به كل منذهب ، ما اردت ان اكفر نعمة لغة امتنجت بالنفس محبتها ، والعود غضن والغضن رطيب الا انه اذا كان يتيسر لي الاستشهاد ببعض آراء شيوخ ادبنا في قديم الدهر كالمحاظ

وأشبهاته ، ومن هم أشباه الجاحظ ! فما كان يتيسر لي الاهتداء إلى كل الآراء ، والادب قد لبس في هذا العصر برداً قشيباً خدثت فيه حوادث وعتقلاً فيه عواتق ونهاجت مناهج وسلكت مسالك ، فلا مندوحة لنا عن الاقتباس من بعض الافرنجية ولا غضاضة في ذلك فقد أخذنا عنهم فأخذنا عنهم وتلك الايام نداوها بين الناس وما زالت الامم في قديم الدهر وفي حديثه يقتبس بعضها من بعض وقد يمماً تمازجت الثقافات فادى تمازجها إلى العواقب المحمودة في عصرية الفكر .

للتلفت قليلاً إلى القرون الخالية ، لنتظر إلى الرومان كيف اقتبسوا أدبهم من اليونانيين فقرأوا كتبهم وتقيلوا طرائفهم ، ولنتظر إلى الأدب الفرنسي في القرون الوسطى كيف انبلج نوره من أفق اللاتينية ، وهذا « سبنسر » أخذ عن الإيطالية في أيام تجديد أدبها ، وهذا الشاعر الانكليزي « تومسون » قد أثر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في مؤلفي فرنسة من العصرين المذكورين وقد كان « فولتير » يعبد الكاتب « اديسون » وكان « روسو » و « ديدرو » يعبدان « ريشاردون » وأي تأثير أعظم من تأثير شاعري الانكليز « شكسبير » و « بايرون » في الأدب الفرنسي ، وقد كان شعراً الأدب الوجданى في فرنسة متصلين ، الاتصال كله « بولترسكوت » ومن « ميشله » إلى « رنان » قد استنزل كتاب فرنسة الذين نظروا في مصادر النوع البشري وحياتهم من المؤرخ الألماني « هردر » وشاعر الالمان « غوتي » استنزل وحيه من أدب المتقدمين ، وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اقتبس الإسبانيون أدبهم من شعراً فرنسة مثل « مولير » ولم يقصر الروس في الأخذ عن الأدب الغربي في القرن التاسع عشر ولم يحجبم البولونيون عن اقتباس أدب فرنسة وإيطالية ومانانية وانكليزية ^(١) »

مالنا وهذه الاعجميات ، فلننتقل إلى ناحية أقرب . هذا أدب العرب نفسه ، أفلم يدخله شيء من حكمه الهند وفلسفه اليونانيين ، وأدب الفرس ، وهذه مطر في عصرنا أفلم يكن للثقافتين الفرنسية والإنكليزية أثر في كتابات أدبائهما ، افكان يستطيع

(١) خلاصة كتاب الطريق إلى الأدب الاستاذ : أميل فاغو Emile Faguet

اسأيذ أدبها أن يسلكوا هذا المسلك في أدبهم لو لمعرفتهم بعض اللغات الأجنبية ؟
معاذ الله ان ارمي في قوله هذا الى الخروج على عبقرية أدبنا فان الامة التي
لا تتصل بماضيها لا تثق بحاضرها وآتتها ، وان لنا من هذا الماضي الشيء الذي
نفخر به على وجه الدهر ، ان لنا من الماضي محسن لا تبني سجين الليلي ، ولكن
تجدد الأدب في هذا العصر أمر لا مندوحة عنه ، فان الإفراط في المحافظة على
هذا الأدب لا يقل ضرره عن الإفراط في التجديد ، ولو شئتم لتوت عليكم
صفحة كتبها ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا المقيم من الف سنة بوجه
التقريب ، ما اظن احداً من أدباء هذا العصر يعقد فصلاً ابلغ من هذا الفصل في
التجديد ، قال ابو الحسين : «

« ومن ذا حظر على المتأخر مضادةً المتقدم ، ولمه تأخذ بقول من قال : ماترك
الاول للآخر شيئاً ، ولاؤتدع قول الآخر : كم ترك الاول للآخر ، وهل الدنيا
الا ازمان ، ولكل زمان منها رجال ، وهل العلوم بعد الاصول المحفوظة الا خطرات
الاوہام ونتائج العقول ، ومن قصر الاداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت
محدوٰد ، ولمه لا ينظر الاخر مثل ما نظر الاول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل
جموعه ويرى في كل ذلك رأيه ، وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوادر
الاحکام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، او ما علمت ان لكل قلب خاطراً
ولكل خاطر نتیجة ، ولمه جاز ان يقال بعد ابي تمام مثل شعره ولم يجز ان يؤلف مثل
تأليفه ، ولمه حجرت واسعاً وحضرت مباحاً وحرمت حلالاً وسدلت طريقة
مسلوكاً ، وهل حبيب الا واحد من المسلمين له مالهم ، وعليه ما عليهم ؟ ولما جاز
ان يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، واهل النحو في مصنفاتهم والنظر في موضوعاتهم
وارباب الصناعات في صناعاتهم ، ولم يجز معارضته ابي تمام في كتاب شذ عنه في
في الابواب التي شرعها فيه امر لا يدرك ولا يدرى قدره ، ولو اقتصر الناس
على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب ادب غزير ولضللت افهام ثاقبة ولكلت

السنة لسنة ولما وثى أحد خطابه ، ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ولمجت
الامماع كل مردد مكرر وللفظات القلوب كل مرجع عرضه ،
ما أنقب نظر أبي الحسين رحمة الله ! ما أهدى فكره ! ما أصفى ذهنه ! لو
اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب ادب غزير ان عقل البشر
ينبسط أفقه من عصر الى عصر ، ويتسع مجده من دهر الى دهر فيولتد في انبساط
هذا الافق واتساع هذا المجال الفاظاً ومعاني لم تك من قبل ، وينشئ الأدب
لهذه المعانى أساليب طريفة ويفرغها في قوالب حديثة ، وعلى هذا يتنقل الأدب من
طور الى طور ويدرج من حال الى حال على تعاقب الاحقاب ، ولو ثبتت هذا
الادب على اساليب محدودة لاتي عليه حين من الدهر لم يك فيه شيئاً ، لو تملاص
هذا الادب من عوامل المضارات والثقافات لما وسع شيئاً ، اتنا نجد مذاهب تولد
ومذاهب تموت وأفاظاً تدفن وأفاظاً تبعث واساليب تعيش واساليب تفترض ،
ما اعظم انقلاب الأفكار ! قال الاستاذ شارل ريشيه Charles Richet احد
أعضاء معهد باريز ^(١) :

« يسير العلم في سidleه » يرأ تحرار ثواقب الانظار في سرعته ، على ان العلم لا
يزال في عنفوان امره ، وريغان عمره ، فالعالم « ارخميدس » على نبوغ فضله وبراعته
كان يجهل ما يعلمه المعلمون اليوم في المدارس الابتدائية ، واجهل تلميذ من تلاميذ
المدارس التجهيزية يعرف من العلوم اموراً يجهلها العالم « غيليه » نفسه ، ما بين
العالم « فرنكلان » وبين العالم « اشتين » مائة وخمسون سنة ، فتصور مسیر العلم
في مئة وخمسين سنة ، ما اعظم انقلاب الأفكار لم يكن في القديم علم الا حافير ولا
علم الجرائم ولا علم النصيري ولا الطيران ولا خطر ط الحديد ولا حلّ الطيف
الشمسي فلا يتتجاوز عمر علوم البشر قرناً ونصف قرن ، ما هو قرن ، ونصف
قرن ؟ المشي غير وئيد اتنا نسير في معرفة الاشياء على سلسلة هندسية متصاعدة
وفي يوم من الايام سيكون للرجل بفضل ما يقتبسه من العلوم سلطان عظيم على

المادة مهما اختلفت اشكالها ، .

هذا ما قاله ، شارل ريشه ، في كتابه العالم . ولو قلتم لي وما هي الاوامر بين العلم والادب لأجبتكم بان العلم اذا امتد سلطانه فانه لا يخلو من التأثير في الفكر وبالادب كما اشرت الى ذلك في حديثي الاول تستفيض مذاهب الفلسفة والعلم في طبقات الناس فتعمل عملها في اوضاع الجماعات ، فالادب ظهر العلم ومعينه ، ولو نظرتم في تغالط الامم في هذا العصر ، وتقرب جماعاتها ، وشيوخ لغاتها ، وآثار عقولها ، لرأيتم ان الثقافات لا ندحة لها عن التمازج والتواصل ، فالامم يأخذ بعضها عن بعض ويهدى بعضها البعض ، لا شك في ان لكل امة ثقافة ادبية خاصة بها تصاحح لها وقد لا تصاحح لغيرها من الامم ، غير ان تمازج الثقافات اذا روسي فيه روح الامة وروح لغتها أفضى الى الخواتيم الحسنة في نتائج العقول وثمرات الالباب ؛ لنضرب مثلاً لذلك :

قلت لكل امة ثقافة ادبية خاصة بها ، فاذا قبلنا بين الشعوب السامية وبين الشعوب الــية وجدنا ان الفكر في هذه الشعوب مختلف بعض الاختلاف ، فالتفكير مثلاً في العربي لا يستطيع ان يتجرد من الصورة المادية التي تسره وتغطيه ، ولذلك فانك تجد لغة التوراة لغة شعرية ساطعة الا انها تعجز عن بيان الفكرة المجردة ، فالذهن في الامم السامية عنيد فانه يحتفظ بالصورة ويحرص على طابع الانفعال المادي ، اما الذهن في الشعوب الــية فانه أمرٌ وألين فهو ينسليخ من المادة ويرتفع الى تصور الفكرة المجردة وإدراكها ، ولعلك تجد في هذا التباين السبب في شيوخ الفلسفة في الجنس الــي وانقطاعها في الشعوب السامية ، لأن التجريد من خصائص الفلسفة ، والشعوب السامية اصحاب خيال فهم بعيدون عن التجريد^(١) فلما تقارب العرب وبعض الشعوب الــية كالفرس واليونانيين انتقلت آثار هؤلاء الى العرب والفلسفة من جملة هذه الآثار فهي نتيجة من نتائج تمازج

(١) رأى الاستاذ « دارمستر Damester » صاحب كتاب : حياة الالفاظ ، الصفحة ١٠٠

الثقافات وما أظن ان الفاسفة خاتـ من رسوم حسنة في الفكر العربي .

ما أردت التبسيط في هذا الموضوع ولا كانت غايتي استنهاض هممكم للتقليل
فاني من المتشددين في الحرص على اوضاع أدبنا والاحتفاظ بمناهبه ، الا ان هذا
التشدد لا يمنعنا عن اقتباس ما يزيد في رونق لغتنا وأدبنا فاني اخشى اذا جمد هذا
الادب ان يضيق عن استيعاب ما استحدثته حضارة العصر فإذا اخذنا في بعض
الاحداث عن ثقافات الامم ما يحسن أخذه فلا حرج علينا في ذلك ، وقد دعى
استغان أدباً نا باثار من جاورهم وخالفتهم فانقصت مقاديرهم ولا خفت موازفهم
فطلعوا على قوتهم بادب مصقول الحواشي مذهب الاطراف ، على اني لا أقول بالبالغة في
الأخذ والاقتباس فان لميراثنا الادبي روح يجب علينا ان نحافظ عليه ،
وان للعصر روحـ ما لنا منه فلت ، فالتأليف بين الروحين صقال الادب ونموه .

٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩

مارثُنْ الأَدْبُرْ

أما وقد أوجزت في الكلام على الأدب وتدريسه ، وعلى الذوق وتنقيفه ، ولمحت إلى تمازج الثقافات ، فبيّنت دون شيء من الأسباب كيف يأخذ بعض الأمم عن بعض ، ويقتبس بعضها من بعض ، فيزيد هذا الاقتباس في عبقرية البشر . أما وقد فرغت من هذا كله ، فقد لزمني على ما أعتقد أن أخوض في الموضوع الذي انتدبت إليه وهو تاريخ الأدب ، وما تاريخ ادب العرب الا تسلسل قرائحهم وبنات أفكارهم من يوم ظهر هذا الشعب الكريم على وجه الأرض حتى يومنا هذا ، ما تاريخ الأدب في الحقيقة الا سلسلة آثار ، اذا نظرنا إليها وجدنا فيها سلاسل شتى : سلسلة آثار مؤلف من المؤلفين ، سلسلة آثار عصر من العصور ، سلسلة آثار تطور الأدب في خلال القرون الخالية ، ما تاريخ الأدب الا النظر في تأثير بعض المؤلفات في بعض واتصال بعضها ببعض ، وتسلسلها في تعاقب الأحقاب ، هذا هو تاريخ الأدب ومن هذين السطرين يتبيّن لكم حرج الموضوع وضيق مذاهبه ، وتبعدوا لكم سعة مجاله وترامي أطرافه في وقت واحد ، اما حرج الموضوع فانه ناشيء عن فقدان ما يجب علينا ان نتوسل به من الوسائل الى معرفة قرائح العرب ونتائج عقولهم على حسب روح هذا العصر ، وأما سعة المجال فحسبكم ان تجدوا في تاريخ أدب العرب صوراً ناطقة تفصح لكم عن اطراد آثار عبقريتهم في مطاوي الأحقاب .

ما طالعت مقدمة من مقدمات تاريخ الأدب الفرنسي الا وقع نظري على عبارة تدخل الخوف على قلب من يتفرغ لتدريس تاريخ الأدب حتى يتمهيب الموضوع فيكاد يمسك عن الكلام لدهشه وتحيره ، فقد وجدت في احدى المقدمات هذه العبارة : تاريخ الأدب الفرنسي انما هو نتيجة حياة باجمعها أو تكفي حياة باجمعها حتى يتم مثل

هذا التاريخ ، واذا انتظر المؤرخ ناتج بحثه وتفقيه ليشرع في موضوعه ، أفيكتب هذا التاريخ ، على انه يجب على المؤرخ ان يعمل على قدر مجهوده دون شيء من الاوهام .
وقال الاستاذ بروتير Brunetière في نقده مذهب سانتبوف Sainte-Beuve :
وعلى هذا فان دراسة كاتب كبير ان لم تستغرق حياة برمتها استغرقت مئتين طريله .
هذا قول كتاب اذا أحبوها ان يكتبوا في تاريخ الادب وجدوا السبيل مهدة فا
نقول لكتاب تعترضهم العقبات وتحيط بهم المصاعب فتفتف افلامهم لتحريرها ،
الموضوع حديث لم يكتب العرب فيه على حسب روح هذا العصر وانما كتبوا
باساليب لا تنساب اوضاع هذا العصر ، مات فلان سنة كذا . . . ومن قوله في
وصف كذا . . . وله تشبيهات فريدة . . . كل هذا ليس من تاريخ الادب في
شيء ، واذا كنا نجد بين نقاد المقدمين من ارتفع الى منزلة أعلى ، وحقق في جو
أفسح كالجرجاني في وساطته ، و كالشعالبي في كلامه على المتنبي ، او كغيرهما فهذا قليل
على ان نقد الادب شيء وتاريخه شيء آخر .

قلت في صدر الحديث : تاريخ ادبنا ضيق المذاهب ، فلنبحث عن شيء من
هذا الضيق ، اذا أخذتم تاريخ ادب غربي وجدتم في فاتحه وصفاول هذا الادب
كيف ولد وكيف عاش ، فلا يستغني المؤرخ عن التفصي عن لغة قومه ، كيف
نشأت هذه اللغة وما هو اصلها ومنحدرها وما هي عناصرها ، لا يستغني المؤرخ
عن هذا كله حتى يستطيع ان ينظر في تسلسل الاثار العقلية نظراً ثابقاً ويحيط بمختلف
العوامل التي عملت في هذه الاثار ، فيكون مثله في ذلك كمثل المؤرخ الطبيعي
فكما ان هذا المؤرخ يصف اتصال المخلوقات الحية في الطبيعة بعضها بعض على صورة
مرتبة فكذلك يجب على المؤرخ الادبي ان يبين كيف تسلسلت آثار عقرية قومه
والتحق بعضها بعض من مبادئها الى خواتيمها ، أفيتيسر لنا في حالتنا هذه ان
نعرف شيئاً عن مبدأ لغتنا ، كيف ولدت الفاظها وكيف عاشت كما يعرف الفرنسيون
مثلاً كيف تحدرت لغتهم من الاصل اللاتيني ؟

كنت أذاكر مررة في أمر لغتنا الكريمة أستاذًا مطالعاً على اللغات السامية

فقلت له في جملة ما قلت : وددت لو اتنا نعرف كيف ولدت لغتنا في اول امرها
كما يعرف بعض الافرنجية كيف ولدت لغاتهم فقال : هذا امر ممتنع الان ، ان بعض
الافرنجية شهدوا ميلاد لغاتهم فدوّنوا آثارها وتعهدوها فكان مثاهم في ذلك كمثل
من يغرس شجرة ثم يتبعدها حتى تورق وتزهر وتشمر ، اما نحن معاشر الساميين
فانتا لم نشهد ميلاد لغاتنا فلا نستطيع ان نعرف اليوم كيف اورقت هذه الشجرة
السامية وكيف ازهرت وكيف اثمرت وبيتنا وبين الذين غرسوها وتعهدوها
احقاب متطاولة وعصور متراخية ، خفيت علينا حتى اليوم آثارها ورسومها فلا
نعرف عن هذه الاحقاب شيئاً .

هذا صحيح والغريب انكم تجدون من كان يعتقد ان لغة العرب قد تكاملت
دفعه واحدة دون شيء من التدرج ومنهم (رنان) فقد قال :

« من اغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب اظهار سره ، انتشار اللغة العربية
فقد كانت هذه اللغة غير معروفة باديًّا بداء فبدت فجأة غاية في الكمال ، سلسلة غنية
واي غنى ، كاملة بحيث انها من ذلك العهد الى يومنا هذا لم يدخل عليها اقل تعديل
مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لاول امرها تامة ، ولا ادري هل
وقد مثل ذلك للغة من لغات الارض دون ان تدخل في اطوار مختلفة »^(١) .

وانا لا ادري كيف صدر هذا الكلام عن رجل مثل (رنان) ، اي شيء ينكمض
في الطبيعة فجأة ، مثل اللغات كمثل المخلوقات الحية في عالمي الحيوان والنبات
فكما ان الحيوانات والنباتات تولد فتعيش فتموت فكذلك اللغات فانها أشبه شيء بهذه
المخلوقات ؛ أما قول (رنان) ليس للغة العرب طفولة ولا شيخوخة فهو مخالف
لأصول العلم ، للغة العرب عهد طفولة ولكننا لا نعرف شيئاً عن هذا العهد ،
بعده عنا وخلفه رسومه علينا ، فلا يمكن ان تكون لغة جاهليتنا متكاملة على صورتها
هذه من دون ان يتسلسل فيها هذا التكامل عصوراً متطاولة صقلت اللغة وحسنتها
حتى طلعت علينا في حلتها الانية ، وقد اشار بعض شعراء الجاهلية الى ذلك في

شعرهم، أفاد حاجة الى ذكر قول عنترة :

(هل غادر الشعراء من متقدم)

او قول امري "القيس :

عوْجاً عَلَى الظَّلَلِ الْقَدِيمِ لَعْلَنَا بَكَى الدِّيَارُ كَمَا بَكَى ابْنُ حَزَامٍ

او قول زهير :

ما ارانا نقول الا معاراً او معاداً من قولنا مکرو را

فالذى يستنبط من كلام عنترة وامری "القيس وزهير ؛ انه جاء قبلهم شعراء
جالوا في الشعر كل مجال وحاصروا في سمائه كل ملائق ، وقد انقطعت عننا اخبار
الذين اورثوا عنترة واماً القيس وزهير وأمثالهم فيض قلوبهم وصوب اذهانهم
وانطوت آثارهم فلا نعرف عنهم شيئاً ، فلغة العرب متقدمة العهد فلا يمكن ان
تنشأ دفعة واحدة على الصورة التي نشأت عليها في العصر الجاهلي المعروف ، فلا
ريب في انها قد سبقتها احقب مديدة ، انتقلت فيها اللغة من طور الى طور ؛ حتى
وصلت الى ما وصلت اليه ، فالعصور التي انتقلت اللغة في اثنائها من مرتبة الى مرتبة
غامضة مبهمة فهي سر من الاسرار وهذه ثلمة في تاريخ ادبنا ، ولا تسد هذه
الثلمة الا اذا درسنا اللغات السامية ولغات الامم التي خاططها العرب في قديم الدهر
وعثرنا على كتابات قديمة منقوشة ، ان لغة العرب لم تذنه علينا بمحاذيرها ، فان
الذى جاءنا عن العرب غير من فيض فكثير من الكلام ذهب بذهب اهله . قال
ابن فارس : ذهب علماؤنا او اكثراهم الى ان الذي انتهى علينا من كلام العرب هو الاول
ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير .

تصوروا بعد هذا كله حرج موضوعنا وضيق مذاهبه ؛ اني لا اجد لذلة في تاريخ
الادب الا اذا عرفت اوائل الاثار واواخرها ، ومبادئ المصنفات وخواتيمها
و واستطعت ان اصل الاواخر بالاوايل واربط الخواتيم بمبادئها حتى اعلم كيف
تسلسلت ثمرات القرآن وتائج الخواطر ، وكيف اثر بعضها في بعض وتحدر بعضها من
بعض فاذا لم يتهيأ لي شيء من ذلك كان العلم ناقصاً .

على أن هذه العقبة التي تعترضنا في سينينا ليست فريدة فان من ورائها عقبات غيرها ، أظن انكم تذكرون قوله في ثقاقة الذوق : لا بد لنا من معرفة العصر الذي ندرس شاعراً من شعرائه ، فلا بد لنا من معرفة مصطلحات هذا العصر والافكار التي ولدها هذا الشاعر في عصره والعواطف التي أيقظها ؛ فإذا كنا ندرس شعر المتنبي ، وقع نظرنا في شعره على لفظة (ابتشاش) ومعناها : الكذب ، وهي لفظة غريبة ، فكيف نجزم امر غرابتها اذا لم يكن في لغتنا معجم يشير الى تاريخ الالفاظ ، كيف نعرف ان لفظ الابتشاش كان غريباً في عصر المتنبي ؟ اذا لم يكن في لغتنا معجم يبين لنا ان هذا اللفظ استعمل في عصر كذا ثم بطل استعماله بعد ذاك العصر ، فإذا كان في لغتنا معجم لغوي تفسر فيه الالفاظ بحسب تاريخها استطعنا ان نجزم امر غرابة الالفاظ ، فلا نسير في تضليلنا واستقصاصنا على غير هدى وانما نستند الى مصادر موثوقة بصحيتها ، فنقطع دون شيء من الحيرة والارتباك فلا يزال تاريخ أدبنا مثlov الجواب فإذا كنا نبحث عن شاعر من الشعراء فقد لزمنا في مثل هذه الحالة ان نقرأ شعر اهل عصره كلهم ؛ حتى نعرف مصطلحات ذاك العصر ، وهل يتيسر شيء من ذلك ؟ فاما ان يفوتنا البحث عن هذا الامر ، واما ان نستعين عليه بالكتاب الذين ظهروا في ذاك العصر وأشاروا الى غرابة الالفاظ شاعر من شعراء عصرهم ، فإذا لم يكن شيء من ذلك بقيت في تاريخ أدبنا زاوية فارغة .

ولو جاوزنا هذه العقبة لاعتراضنا عقبة غيرها فان في تاريخ أدبنا شيئاً من الغموض نشأ عن ان طائفه من الاسماء اطلقت على مسميات لانزى لها اثراً في هذا العصر . لنضرب مثلاً لذلك فقد قرأت في بعض كتب الادب هذا الكلام : دخل الاحنف بن قيس على معاوية وافداً لاهل البصرة ودخل معه الفربن قطة وعلى النمر عباء قطوانية وعلى الاحنف مدرعة صوف وشملة ، فالعباءة القطوانية منسوبة الى قطوان — موضع بالكونية — منه الاكسية . غير اننا لا نعرف شيئاً عن نوع

هذه العبارة وكذلك المدرعة فانها ثوب ولا يكون الا من صوف ومن الذي يعرف
هيئه هذا الثوب ”ا“ .

فاثم تجدون في سطر واحد كهتين او ثلاث كلمات تدل على مسميات نكاد لا
نعرفها في لغتنا كثير من الاسماء أطلقـت في القرون الخالية على مسميات ثم انطوت
تلك القرون فذهبـت بـذهاـبـها المسمـيات وبـقـيـت الاسمـاء في بطـونـ المعـاجـمـ تـدلـ عـلـىـ
أـشـيـاءـ لـاـ نـعـلـمـهـ ، وـقـدـ كـانـتـ هـذـهـ الـاسـمـاءـ وـضـعـتـ لـلـدـلـالـةـ عـلـىـ أـنـوـاعـ مـنـ السـلاـحـ
وـالـلـبـاسـ وـالـطـعـامـ وـالـشـرـابـ وـالـدـرـاهـمـ وـماـ شـابـهـ ذـلـكـ ثـمـ ذـهـبـ الذـينـ كـانـواـ يـتـقـلـدـونـ
هـذـاـ السـلاـحـ وـيـلـبـسـونـ هـذـاـ اللـبـاسـ وـيـأـكـلـونـ هـذـاـ الطـعـامـ وـيـشـرـبـونـ هـذـاـ الشـرـابـ
وـيـضـرـبـونـ هـذـهـ الدـنـانـيرـ وـالـدـرـاهـمـ ، فـذـهـبـ بـذـهاـبـهـ مـسـمـيـاتـهـ وـبـقـيـتـ الـاسـمـاءـ
وـحـدـهـاـ فـلـاـ تـزـالـ طـائـفةـ مـنـ اـدـبـناـ غـامـضـةـ بـعـضـ الغـمـوضـ .

ما اردت الاستقصاء في البحث عن ثلم تاريخ الادب وانما احببت ان المحـ
الـ طـائـفةـ مـنـ هـذـهـ الثـلـمـ ، حـتـىـ نـدـرـكـ مـبـلـغـ ماـ يـقـفـ فـيـ سـيـلـ الـمـؤـرـخـ الـادـبـيـ مـنـ
الـ مـصـاعـبـ الـتـيـ يـسـتـعـصـيـ عـلـيـهـ تـذـلـيلـهـ ، وـاـنـيـ لـأـجـدـ إـلـىـ جـنـبـ هـذـهـ الـعـقـبـاتـ عـقـبـاتـ غـيرـهـاـ
لـاـ بـأـسـ بـالـاـشـارـةـ إـلـيـهـاـ .

اقتصر الذين كتبوا في مؤلفي العرب على ذكر اليسير من آثار حياتهم العامة
وحياتهم الخاصة فذكرـواـ مـيـلـادـهـمـ وـوـفـاتـهـمـ وـلـمـعـاـنـاـ مـنـ اـخـبـارـهـمـ وـقـدـ وـرـدـ قـلـيلـ مـنـ
الـنـقـدـ فـيـ تـضـاعـيفـ دـلـامـهـمـ وـمـاـ عـدـاـ ذـلـكـ فـانـتـاـ لـاـ نـكـادـ نـحـيـطـ بـشـيـءـ مـنـ آـثـارـ حـيـاةـ
مـؤـلـفـيـ الـعـربـ ، فـلـاـ نـعـرـفـ مـثـلـاـ كـيـفـ وـلـدـ هـذـاـ الـمـؤـلـفـ وـكـيـفـ عـاشـ وـكـيـفـ رـبـاهـ
اـهـلـهـ حـتـىـ نـشـأـ وـتـرـعـرـعـ ، لـاـ نـعـرـفـ كـيـفـ كـانـتـ حـيـاتـهـ فـيـ مـدـرـسـتـهـ وـمـاـ هـيـ اـخـلـاقـهـ
وـأـوـضـاعـهـ وـعـادـاتـهـ وـاهـوـاـهـ وـمـذـاهـبـهـ ، وـمـاـ هـيـ وـجـهـتـهـ فـيـ حـيـاتـهـ ، مـاـ هـيـ اـبـاـوـهـ
الـخـاصـةـ وـالـعـامـةـ ، مـاـ هـيـ هـيـسـتـهـ وـصـورـتـهـ ، مـاـ هـيـ مـلـابـسـهـ ، مـاـ هـيـ الـكـتـبـ الـتـيـ كـانـ
يـقـرـؤـهـاـ . كلـ هـذـاـ يـنـفـعـنـاـ فـيـ تـارـيـخـ الـادـبـ حـتـىـ تـنـكـشـفـ لـنـاـ اـسـرـارـ الـمـؤـلـفـينـ فـنـسـتـعـنـ

(١) اختـرـتـ هـذـهـ الـاسـمـاءـ عـرـضاـ وـقـدـ يـجـوزـ انـ تكونـ مـسـمـيـاتـهاـ مـعـروـفةـ فـيـ
بعـضـ قـبـائلـ بـادـيـةـ الشـامـ عـلـىـ انـ فـيـ لـغـتـنـاـ اـسـمـاءـ كـثـيرـةـ غـيرـهـاـ لـاـ نـعـرـفـ مـسـمـيـاتـهاـ . فـكـتبـ
الـادـبـ وـمـعـجمـاتـ الـلـغـةـ مـلـوـءـةـ بـهـذـهـ الـاسـمـاءـ فـيـ كـلـ عـصـرـ مـنـ عـصـورـ الـلـغـةـ .

بذلك على العلم بافكارهم وعواطفهم ، ونخل عقد هذه الافكار والعواطف في اثناء بحثنا عن آثار عقولهم وأibalاتهم ، وهذا النوع من المعرفة عنصر من عناصر التمحيق والتدقيق . فاذا فاتنا هذا العنصر اضطررنا الى النظر في آثار المؤلف نفسها لانها تدل على فكره وعلى عاطفته وعلى روحه ، الا اتنا قد نضطرب في خلال البحث والنظر اضطراباً ينبع في حائرتين فلو كنا نعرف دقائق حياة المؤلفين لما اضطربنا هذا المضطرب ، وقد استدرك هذا الامر طائفة من المؤلفين في هذا العصر فكتبوا تراجمهم باقلامهم ووصفوا دقيق حياتهم وجليلها وكشفوا الغطاء عن كثير من امورهم ، والمرء اذا صدق اعلم بظواهره وببواطنه ، وادرى بفضائله ورذائله وافطن لمواطن القوة والضعف فيه ، فضلا عن اللذة التي نجدها في قراءة هذا النوع من التراجم ، فانها نزهة العقول وسلوة القلوب ، فكاننا بمحضر رجال قد باحوا باسرارهم فنکاد نشهد حركاتهم وسكناتهم ونکاد نسمع صوتهم وكلامهم ونرى ابتسامتهم وقطبيتهم وشارکهم في آلامهم وأفراحهم وما شابه ذلك .

قال « سانتيوف Sainte-Beuve » في كلامه على هذه التراجم :

« أحببت في كل حين مراسلات اكابر الكتاب واحاديثهم وافكارهم ، أحببت تفاصيل طبائعهم واخلافهم وتفاصيل تراجمهم التي كتبوها ، فان الباحث يعکف خمسة عشر يوماً على آثار ميت مشهور سواه أكان هذا الميت شاعراً ام فيلسوفاً : فيدرسه ، ويقلب النظر فيه ، يسأله ما شاء من المسائل ، ويجعله قبلة عينيه » .

هذه طائفة من نوافض تاريخ ادبنا ولو شئت لانني على ذكر غيرها من النوافض ، وانما مرادي بيان ما يبغى المؤرخ من بعض المصاعب على ان التلوّم في التفرغ لوضع تاريخ الادب لا طائل فيه ، فاذا ظللنا ننتظر فاننا لا نصنع شيئاً اذا كنا ما نتفك نردد ان تاريخ الادب يستغرق وضعيه سنين طويلة فقد تمر هذه السنون من دون ان نشرع في الوضع ، فاذا اخرج شيوخ الادب مكتونهم واستندوا وسعهم فتصدى كل منهم لادة من المواد ، وعمل على قدر جهوده ، هيأنا تاريخ الادب ومتى تهيا تاريخ ادب العرب استطعنا ان نحيط بتسلسل آثارهم وافكارهم

نقد المؤرخات الأدبية

ذكرت لكم اليسير من العقبات التي يصعب قطعها على الذين يتصدرون لوضع تاريخ الأدب ، وقد خالج قلبي الرجوع الى هذا الموضوع واتم لا تجدون ريباً في علو شأنه ، ورفعه مقامه ، وكفى بتاريخ أدبنا ان يكون عنواناً لحسنات قوم ذهبوا بين سمع الأرض وبصرها ، فلم تبق من جلالة ملوكهم وفخامة سلطانهم الا آثار هامدة ، اذا نحن اعملنا الرواية فيها بروزت لنا بلاغة منطق اهلها ، ورجاحة احلامهم وصحمة عقولهم ، لم تبق من قوم ملوا الدنيا وشغلوا الدهر الا صور جامدة اذا نحن ناجيناها اعربت لنا عما نسجته طباع الدين صوروها وسبكته افهمهم ، فرأيتم كيف درج صوغ اذهانهم في مواضي الليلالي من طور الى طور ، وشهدتم اطراد عصورهم وما كان يتخلل هذه العصور من خلابة في الاسن ، او من تشديق وتفعير فينقلب بكم تاريخ أدبنا من عصور السهولة والابي芷 إلى عصور التكلف والتزييد ، ومن الاقتصاد في النظر الى التبسيط في التفكير وعلى هذا يكون التاريخ صلة محكمة الاطراف محكمة الوشي ، بين حاضر الخواطر و الماضي ، واذا استطعنا ان نتولف بين الحاضر والماضي حافظت لغتنا على وحدتها وازدادت عظمة سلطانها .

نعم ، خالج قلبي الرجوع الى البحث عن تاريخ الأدب لأن هذا التاريخ هو الذي ينزع بالنفس الى التمتع بآثار الاولين ويحمل رجال الأدب على املاء قلوبهم من هذه الآثار ، فيطلعهم على دروج اصحابها من حال الى حال وينبههم على توسيعهم في أساليب شتى ومذاهب مختلفة ، كل عصر وله أسلوبه ، وكل دهر وله مذهب ، وجملة المقال ان تاريخ الأدب هـ، الذي يضيء لنا سبيل العقل البشري حتى ندرك آثار العبرية في الاحقاب ؟ ففصل اواخرها باوائلها ، ومتى استحكمت هذه الصلة اتسعت افياء العبرية ،

هذا هو تاريخ الادب وهذه هي فعلته في الامم ، بقي ان نعرف كيف ينبغي لهذا التاريخ ان يكون حتى يعمل عمله هذا . جعل تاريخ الادب لاحياء آثار الماضي ورسومه ، حتى تتمثل الاذهان هذه الرسوم والآثار فتصبح بمحض من اشخاص ناطقين يصورون لنا صوراً شتى ، في كل صورة منها فكر وشعور ، ينبغي لتاريخ الادب ان يكون فيه شيء من الحياة حتى يمثل لنا حقائق الآثار على وجوه متباعدة ، فرة نرى وضوح هذه الآثار وصفاتها ، ومرة لا نرى الا ابهامها وتعقيدها ، وحينما نسمع خفي صوتها ؛ وحينما لا نجد فيها الا الجود ، ان تاريخ الادب هو الذي يبعث أنواع هذه الآثار حتى تأخذ العين خصائصها وصفاتها ومحاسنها ومجاذيفها وجودتها وحياتها وعلوها قدرها وانحطاطها و مختلف الوانها ومتباين أساليبها ومذاهبها . ان تاريخ الادب هو الذي يبعث روحآ في هذه الآثار كلها مستعيناً على التمكّن من احيائها بالفن وما أوتيه من سلطان ، فالفن وحده هو الذي يحيي ما مات من الرسوم . وخلاصة الامر اننا نطلب الى المؤرخ الادبي ان لا يذهب عن شيء في تصوير صفحات التاريخ ، فلا ينبغي له ان يغفل عن تفاصيل الآثار وظروفها وعن الوانها ومعارضها وخصائصها .

فلنبحث بعد هذا كله هل عندنا تاريخ ادبي يستطيع ان يصور لنا حقيقة الماضي ، حتى نطلع على اطوار هذا الماغني وضروب اساليبه ومذاهبه ، اما المؤلفون في القديم فقد ذكرت لكم انهم لم يصنعوا شيئاً في تاريخ الادب واما المؤلفون في هذا العصر فما اظن انهم سبقوا المتقدمين في هذا الميدان ، وسننظر في ذلك في مجلسنا هذا . اظن انكم ما نسيتم قوله : التاريخ الادبي انما هو سلسلة آثار ولم اقل بمجموع آثار ، والفرق بين الجميع وبين التسلسل ظاهر ، فالآثار المجموعة ليست من تاريخ الادب في شيء وانما الآثار المطردة المتسسلة هي التي تصور لنا الماضي ، الآثار المجموعة لا تدللكم الا على نتائج خواطر لا يتصل بعضها ببعض ، فلا تحيطون بشيء من تأثير عصر في عصر ، وتأثير مؤلف في مؤلف وانما الآثار المتسسلة تصف لكم ارتباط عصر بعصر ، واتصال مؤلف بممؤلف فتشهدون سير العقل البشري وتنقله من حال

الى حال ، ان ما وضع حتى اليوم من المؤرخات الادبية مجاميع لاسلاسل ، فان اصحاب هذه المجاميع اذا درسوا مؤلفا من المؤلفين فانهم لم يدرسوا من تقدمه ولا نظروا في الذي جاء بعده ، انهم لم ينظروا في اواصر المصنفات وارتباطها بحملة التاريخ الادبي ، ان الذين كتبوا في تاريخ الادب كانت كتبهم مجاميع ولم تكن سلاسل مطردة ، فان كل عصر متصل بالذي سبقه ويهد السبيل للذى تلاه .

تصفحت طائفة من كتب تاريخ الادب في هذا العصر ، واحببت ان اجد فيها ما اصطلحوه عليه ان تكون اشباه هذه الكتب ، فلم اظفر بشيء وانما الذي تبين لي ان هذه المؤرخات الادبية مجاميع آثار فيها قليل من الدراسة الادبية والنقد الادبي ولكن هذه الدراسة مشوهة الاسلوب وهذا النقد مثلوم المذهب فلم تبين هذه المؤرخات الاثار التي ابقاها شاعر من الشعراه في اهل عصره ، ولم توضح العوامل التي عملت في هذا الشاعر حتى قال شعره ، ولا ذكرت كيف نشأ خيال هذا الشاعر ، وكيف نشأ حسه وشعوره ، لم تبين الظروف التي قال في خلالها شعره ، على اني اعتقاد ان ذكر هذه الامور لا يتيسر في هذا العصر لمؤرخ ادبى ، وعلى التخصيص ذكر الروح الادبي والروح الفني في عصر من العصور ، لوعورة هذا المسلك وخشونته هذا المركب ، ولا يتهم شيئاً من ذلك الا بعد سنين طويلة فكتاب تاريخ الادب في هذا العصر ليست من التاريخ في شيء وانما هي مجاميع مشتملة على قليل من دراسة الادب ونقده ، فلنبحث هل تشتمل في الحقيقة على شيء من هذه الدراسة وهذا النقد .

اخذت عرضاً تاريخاً اديباً وضعيه استاذ من استاذ الادب في مصر ، وكتب التاريخ قليلاً ثلاثة او اربعة على ما اظن ، اخذت عرضاً هذا التاريخ وقرأت كلام صاحبه على المتنبي حتى اعرف كيف حاول ان يبحث عن المتنبي ، ولم تكن غايتي الاستعانة بهذا الكلام ، فان النافذ الادبي يجب عليه ان يقرأ آثار المؤلف حتى يستطيع ان يبني رأياً فيها ، فاذا استعان بكلام غيره على هذه الآثار لم يكن نقداً ، قرأت الكلام على المتنبي في هذا التاريخ لاطاع على اسلوب المؤرخ او على

اسلوب الناقد على الوجه الاصح ، فوجدتة بعد ان ذكر اليسيير من اخبار حياته اشار الى منزلته في الشعر فحكم له وقال : لم ينبغي احد بعده بلغ غايته في الشعر ، الا اني كنت احب ان اعرف شيئاً عن نبوغ المتنبي نفسه ، فلماذا لم ينبغي أحد بعد المتنبي فلم يبين الناقد السهام التي حلق فيها المتنبي ، ولم تطاولها سهام ، ولا الافق الذي امتد اليه حسه ، ولا الصور التي صورها ، ولم يذكر شيئاً من شعور المتنبي ودقائق هذا الشعور ، وهو العامل الاكبر في شعره ، ولا ذكر طبيعة هذا الشعور ولا اشار الى شيء من عاطفته ، ولا وضيحة طبيعة هذه العاطفة ، ولا يبحث عن قلق المتنبي واضطرابه وعن اسباب هذا القلق والاضطراب ، ولا اشار الى تناقض المتنبي في اخلاقه ، ولا صور لنا مثله الاعلى في الحياة ولا ذكر هل كان هذا المثل مادياً ام معنوياً ، ولا تعرض لبعض نزاعات المتنبي في الفلسفة ولا ابدى رأيه في خلود المتنبي ، هل يخلد ابو الطيب ، وما هو السبب في خلوته ، وفي الجملة فقد قرأت البحث عن المتنبي فلم تنشأ في ذهني صورة عامة ، قال المتنبي في كل الاغراض ، ما هي هذه الاغراض ، أجاد المتنبي في وصف المعارك ، ولكن أين مواطن الاجادة ، المتنبي في كلامه كثير من التعقيد اللفظي ، فain مواضع هذا التعقيد ؟ قرأت هذا كله فلم تنشأ في ذهني صورة المتنبي العامة ، ولا صورة شعره ولا صورة حسناته ولا صورة سيئاته ؛ فلم أعرف شيئاً عن جملة حاله وشعره وأسلوبه .

فرغت من هذا التاريخ ، فاخذت تاريخاً غيره فوقع نظري عرضأً على بحث صاحبه عن ابي فراس الحمداني ، فتبين لي ان المؤلف قد استعان برأي الشعالي في ابي فراس ؛ حتى انه لجأ في ذلك الى الفاظه نفسها فقال : ولما خرج قرر البيان من سراره ، واطلق اسد الحرب من اساره . وقال في موضع آخر في كلامه على شعر ابي فراس : شعره على مثال الشعر الغديم متانة وأسلوباً الا ان عليه رواه الطبع وسمة الظرف وعزه الملك ولم تجتمع عنه الخلال قبله الا في شعر عبد الله بن المعتن وهذا الكلام انما هو كلام الشعالي نفسه ، اي امانة في نقد لم يقرأ صاحبه الا اثر الادبي الذي ينقده ، اي روح في كلام لم يصدر عن قاب صاحبه ، فلو قرأ هذا

المؤلف الاَّدبي الذي ينقده لكان له ترائي فيه خاص به ، مثل المصادر الادبية في تأثيرها في اذهاننا كمثل مشاهد الطبيعة في تأثيرها في حواسنا فكما ان هذه المشاهد قد تركت في حواس مصور آثاراً لا تتركها في حواس غيره من المصورين ؛ فكذلك المصادر الادبية فانها قد تركت في ذهن رجل آثاراً لا تتركها في ذهن غيره ، فيجب على الذي يتفرغ للنقد ان يقرأ الكلام الذي ينقده ؛ وأما اذا ردّ ما قاله غيره فلاتجد أمانة في قوله فإذا كنا لا نزال نكرر آراء المتقدمين ونسعى على بحثنا بكلامهم نفسه أو نشوّه هذا الكلام في بعض الاحيان فكاننا نخط خطوة في الفسفة . اكتفيت بهذا القدر من الاستشهاد لاين لكم ان فريقاً من المؤلفين في الادب لا يزالون ينسخون في هذا الدهر اقوال المتقدمين ، فهم ينسحبون على اذيالهم في كتابة المؤرخات الادبية مع شيء يسير من التعديل ، على ان البحث عن مؤلف من المؤلفات في هذا العصر مختلف عما كان في القديم فقد استفاضت المناهج العلمية في دراسة الادب وشاءت مذاهب النقد وتبادات الارض غير الارض والسموات واصبح هذا التطور علامة الحياة نفسها ، فلو اجترأنا بآراء المتقدمين لمحمدت الفرائح ؛ ولنضبت الخواطر ، فان لكل ناقد أسلوباً وان لكل مؤرخ مذهباً وعلى قدر اختلاف هذه الاساليب والمذاهب يزداد رونق الادب . فاذا تشابهت فنون الكتابة نفرت الاذان عن كل مردد ، وانقضت القلوب عن كل مكرر .

اما وقد أشرت الى بعض المطاعن في المؤرخات الادبية فلا أرى باسأاً بان أتو عليكم صفات المؤرخ الادبي على حسب ما حددها الاستاذ «فاكه» في كتابه : فن القراءة .

« يجب على المؤرخ الادبي ان ينسليخ من دخلته »^(١) على قدر ما أعاد عليه الامكان ؛ يجب عليه أن يتجرد منها كل التجرد ؛ فلا يجوز له أن يعرب عن الاَّثر الذي أبقاءه في نفسه مؤلف من المؤلفين ؛ وانما ينبغي له ان يفصح عن الاَّثار التي أبقاها هذا المؤلف في أهل عصره وابناء زمانه ، فاذا كان يبحث عن عصر من

(١) دخلة الرجل : مذهب وجميع أمره وقد استعملتها بدلاً من « الشخصية »

العصور وجب عليه أن يبين روح هذا العصر العام على حسب ما يعرف من تاريخه وإن يوضح الروح الادبي والروح الفني في هذا العصر على قدر ما يعرف من التاريخ الادبي والتاريخ الفني ، يجب عليه أن يقيس - وهذا الامر يكاد يكون ممتنعاً - العوامل التي عملت في مؤلف من المؤلفين وإن يبين كيف نشأ عقل هذا المؤلف بحسب الكتب التيقرأها في حياته ، وبحسب الرسائل التي كتبها ، وبحسب رأي اهل عصره فيه ، يجب عليه ان يبحث عن مجتمع الظروف العامة التي كتب في خلاها : ظروف قومه ، وظروف مكانه ؛ وظروف اهله ، وظروف شخصه . يجب عليه ان ينقب عن التأثير الذي اثره هذا المؤلف نفسه ؛ اي ان يذكر الرجال الذين راقتهم كتاباته والرجال الذين لم تعجبهم هذه الكتابة . فلا يجوز للمؤرخ ان يعرف الا الحوادث ولا ان يعلم غيره الا بهذه الحوادث نفسها وبروابطها ، فلا يحق للقاريء ان يعلم كيف يحكم هذا المؤرخ ، ولا يحق له أن يعلم انه يحكم ولا يجوز له ان يعرف كيف يشعر ، ولا يجوز له ان يعرف انه يشعر .

أما الناقد الادبي فانه على خلاف المؤرخ فهو يبتديء من حيث ينتهي المؤرخ الادبي ، انه على سطح هندسي غير السطح الذي ترى عليه المؤرخ الادبي ، فالذى يتطلب الى الناقد ان يبينه انما هو فكره في مؤلف من المؤلفين ، أو في أثر من الآثار العقلية سواء اكان هذا الفكر صادراً عن عوامل عقلية ام كان صادراً عن هواجح نفسية ، فلا يتطلب اليه ان يصور مخططاً وانما يتطلب اليه ان يبين الآثار التي بقىت في نفسه بعد سفر من الاسفار ،؟

أطوار النقد

أفلا يزال منكم على ذِكر ما قلته لكم في آخر مجلس من مجالسنا ، أفلا يزال عالقاً بحفظكم تاریخ الادب شيء وان الندشیء آخر ؟ فقد حدثكم بختصائص المؤرخات الادبية ، و تعرضت لبعض المطاعن فيها ، فأرى ان أجعل النقد حديثي في هذه الامسية فالمجح الى أطوار النقد في لغتنا الكريمة في الجاهلية وصدر الاسلام وفي زمن بنی أمیة وبنی العباس ؛ ثم أجمل الكلام على النقد الادبي في بعض لغات الغرب في القرون الوسطى وفي العصر الحديث .

كان نقد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام وفي أيام بنی أمیة حكماً مختصرأ يحكمونه على شاعر من الشعراء او شاعر منهم ، وقد كان يجري شيء من هذا النقد في اسواق العرب وأنديتهم في الجاهلية وفي مجالس الخلفاء وقد مثلت كتب الادب بكثير من موجز هذه الأحكام ^{انقل اليكم نماذج منها على} سهل الاستشهاد .

قيل للخطيبة : من أشعر الناس ، فأنخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية وقال : هذا اذا طمع .

وقال ابن عباس ؛ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أشدني لأشعر شعرانكم قلت : ومن هو يا أمير المؤمنين ، قال زهير ، قلت : وكان كذلك قال : لا يغاظل بين الكلام ولا يتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه .

وكتب الحجاج بن يوسف الى قتيبة بن مسلم يسأله عن اشعر الشعراء في الجاهلية وأشعر شعراء وقته فقال : اشعر الجاهلية امرؤ الفيس وأضر بهم مثلا طرقه ، وأما شعراء الوقت فالفرزدق أخفرهم وجير الأجاجم والاخطل او صفهم .

من هذه الأمثلة القليلة يتبيّن لكم ان النقد كان عبارة عن خطرات سريعة ونظرات عجيبة لا يستند الى شيء من قواعد الفن الشعري الا ان هذه الاحكام كانت صادقة في معظم الاحيain تصدر عن بديهة وفطنة حتى جاء القرن الثالث فدخل النقد في طور آخر وألف المؤلفون فيه كتاباً، منها طائفه زعم اصحابها انها تشتمل على تفصيل الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام والحضرمين ، وانما لهم منازل والاحتياج لكل شاعر بما وجده اصحاب هذه الكتب من حجة له ، وما قال فيه العلماء ، من هذه الكتب طبقات الشعراء للجمحي ؟ غير ان صاحب هذه الطبقات لم يبحث الا عن الصور الفنية كحسن الديباجة وكثرة الرونق وجزالة البيت وما شابه ذلك ، كقوله مثلاً : كان الخطية متين الشعر ، شرود القافية . وكان نابغة بنى جعدة شاعراً مقلقاً فلا يختلف طراز هذه الاراء عن الطراز القديم . ومنها طائفه تتضمن قواعد الشعر ككتاب أبي العباس ثعلب الا ان بعض الذين توسعوا في هذا الباب هم المحافظ في كتابه البيان والتبيين ، وابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء وقدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر ، وابن عبد ربه في عقده الفريد ، والآمدي في موازنته بين أبي تمام والبحترى والجرجاني في وساطته بين المتنبي وخصوصه ؛ وابن رشيق في كتابه العمدة الى غيرهم من الذين كتبوا في تراجم الشعراء والكتاب كالشعاليبي وابن خالكان .

كانت هذه الكتب اشبه شيء بكتاب الفن الشعري في بعض امم الغرب فانها تشتمل على قواعد الفن والذوق فلم يشر أصحابها الى الآثار الادبية الا من حيث الصور الفنية فلم يخبر ابن قتيبة مثلاً في كتابه : الشعر والشعراء ، الا عمما يستجاد من شعر الرجل وما أخذ العلماء عليه من الغلط والخطأ في الفاظه ، فلم يخبر الا عن الوجوه التي يختار الشعر عليها ، ويستحسن لها ، وكل هذا لا يتعدى المحسنون اللغوية غير ان ابن قتيبة قد تبسيط في بحثه عن القديم والحديث بعض التبسيط فقال : ولا نظرت الى المتقدم من الشعراء بعين الجلاله لتقديمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، فالذي يدل عليه باطن كلام ابن قتيبة ان القديم ائماً هو قديم بالنسبة الى

العصر الذي ظهر فيه ولكن الذي توسع في قواعد الفن انما هو ابن رشيق في كتاب العمدة ، على انه مع توسعه هذا لم يجاوز نقه الاقتصار على الصور الفنية فقد قال في فضل الشعراء :

(كل منظوم احسن من كل منشور من جنسه في معرف العادة الا ترى ان الدر وهو اخو اللفظ ونبيه واليه يقاس وبه يشبه ، اذا كان منشوراً لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب ومن أجله انتخب وان كان اعلى قدرأ واغلب ثمناً فاذا نظم كان اصون له من الابتذال واظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال وكذلك اللفظ اذا كان منشوراً تبدد في الاستماع وتدرج عن الطياع .)

فكأن الشعر عبارة عن الفاظ تشبه الدر على ان ابن قتيبة كان يعرف ان العرب احتاجت الى الشعر لتغنى بمكارم أخلاقها وطيب اعراضها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة ولكنه نظر الى ظواهر الاكسية التي كانت تصون كرم هذه الاخلاق وطيب هذه الاعراق وصلاح تلك الايام وزروح تلك الاوطان ولم يتغلغل في بواطن هذا الكرم وهذا الطيب وقد كان في هذه الكتب كلها شيء من النقد اللغوي وهو على ما اعتقد الاساس الذي لا يستغنى عنه النقد الادبي نفسه ، وان كان يختلف عنه ، فلا نكاد نجد نقداً اديباً دون ان يكون فيه نقد لغوي فالكتب التي ذكرتها لكم لم تنظر في روح الشاعر وفكرة وعاطفته فلم تفكك اجزاء هذا الشاعر وتباحث عن كل جزء منها ، فكان العصر الذي ظهرت فيه عصر صور فنية الا ان فريقاً من المؤلفين اشاروا الى تأثير بعض العوامل في الشعراء كتأثير البيئة من حاضرة وبدوي وتأثير المزاج من سلاسة في الطبع وجفاء في الخلقة ومنهم الجرجاني في وساطته وهذا مذهب طريف في نقد الادب في لغة العرب يكاد يشبه مذهب « تين Taine » في النقد الحديث وسيأتي الكلام على هذا المذهب .

ومن هذا القبيل ابو عامر بن شهيد الاندلسي فالا ثار الادبية في نظره صور ظاهرة تدل على بواطن اصحابها فمن قوله :

و مقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه فن
لانت نفسه من اصل تركيه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً يطلع
صور الكلام والمعاني في اجمل هيايتها ، ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من
اصل تركيه والغالب عليه جسمه كان ما يطلع في تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الاولى
في التمام والكمال وحسن الرونق » وهذا الاسلوب في النقد يكاد يشبه اسلوب
« ساتيوف » في هذا العصر ومنذهب « ساتيوف » التعمق في روح المؤلف حتى
يبعث من مدفنه فرزى هيئته وصورته .

اما الترجم فكتبت تجدون في معظمها اساليب متشابهة والفاظاً متقاربة بحيث
يتتحقق عندكم ان الشعراء الذين ينقدمون اصحاب هذه الترجم متهاطلون في صيغهم
وقواليهم فمن قول اصحاب هذه الترجم : فلان احد افراد الدهر في النظم والشعر
وفلان فرد دهره وشمس عصره وفلان اعجوبة الزمان ونادرته وفريد عصره
وابقعته ، فيكاد يخيل اليكم ان الناس كلهم اعاجيب الزمان ونوارده وآحاد الدهر
وشموس ، افلم يسعس ليل الى جنب شمس من تلك الشموس !

هذه هي جملة اطوار النقد في الجاهلية وصدر الاسلام وفي زمنبني أمية وبني
العباس أتيت على ذكرها على سبيل الايجاز ثم وقف النقد وفنته فلتنقل الى اطوار
النقد في بعض لغات الغرب في القرون الوسطى وفي العصر الحديث .

ما أظن ان أدباً من الاداب قد نمت مذاهبه وامتدت ظلاله في العصور

الاخيرة دون ان يكون للنقد الاثر الابلغ في نمو هذه المذاهب وامتداد هذه الظلال :
فالادب الالماني في القرن التاسع عشر قد انبليح نوره من فوق النافذ « Lessing » ،
وقد كان النقد روح الادب الفرنسي من ثلاثة قرون ، ولم يحدث حادث في هذا
الادب وفي اذواق أهلة من القرن السادس عشر حتى يومها هذا الا كان النقد
 مصدر هذا الحادث او اصله ، حتى ان كثيراً من شعراء فرنسة أمثال « رونسار »
و « مالرب » و « بوالو » و « فولتير » و « شاتوبريان » و « هوغو » قد اعتمدوا على
النقد وجاوا اليه في بسط آرائهم ومنتقداتهم في الادب .

نشأ النقد الأدبي الحديث في إيطالية في القرن الخامس عشر وقد كان لنشأته عوامل شتى منها عاملان كبيران : عامل باطن وعامل ظاهر ، أما العامل الظاهر فهو اضطرار رجال التجديد في إيطالية إلى تعارفهما وانصرافهما إلى استخراج ما خفي من الكذوز في متقدم العصور من مدافنها ، وأما العامل الباطن فهو تيقظ « الشخصية » فقد كان الرجل في القرون الوسطى تابعاً لطبقته ولرجال نقابته ، قبل أن يكون مالك أمره ، فلم يكن له في كل حين تصرف في شأنه وعمله وفكرة ولما طلع خبر التجديد تيقظت « القوميات » وخرج الفرد عن الرق فاصبح هم رجال الفن أن يدخل في عمله سواء أكان هذا العمل شعراً أم كان تصويراً شيئاً من روحه أي شيئاً من طابعه^(١) .

ثم انتقل النقد من إيطالية إلى فرنسة فصيغ فيها بصبغة أدبية يجعل نقدة الكلام في تأليفهم محل الأول للبساديم والمذاهب ، اني لا ا تعرض في هذا المقام لتطور النقد في فرنسة فهذا خارج عن موضوعي ، فلا ا تعرض لكتب الفن الشعري في العصرين السادس عشر والسابع عشر ، وما كانت تشتمل عليه هذه الكتب من قواعد الذوق والفن ، ولا اتصدى لاضجاج القوم في مسألة القديم والحديث ، وما نشاً عن ذلك من خروج النقد عن طور ودخوله في طور آخر وبعد ان كان الناقد يدرس الآثار من حيث أنها آثار شرع يدرسها من حيث أنها صور الحضارات . اني لا أتصدى لتطور النقد بعد هذا كله فقد اصبح للاثر الأدبي في نظر « فيلمن » Villemain « ارتباط وثيق بالاواعض الاجتماعية والسياسية » .

كل هذا لا حاجة بنا اليه في هذا المقام وربما مست الحاجة اليه في العام المقبل ، ربما احتاجنا اليه في دراسة نقدنا الأدبي في اطواره كلها في الجاهلية وصدر الاسلام وفي زمنبني أمية وبني العباس وفي عصرنا هذا فقد نظر إلى شيء من ذلك اذا درسنا هذا النقد وقابلنا بين اطواره وبين اطوار النقد الحديث .

كل هذا لا حاجة بنا اليه اليوم على انه لا أجد لي بداً من ان اذكر لكم اربعه

(١) رأي الاستاذ برونتير في كتابه : تطور الانواع في تاريخ الادب

نقدة قد استفاضت مذاهبهم في الادب الحديث وكان لها اثر فيه ، واريد بهم فيلمان سانتيوف وتيين وبروتير . فإذا أردنا ان نفهم أوضاع الادب الحديث فلامندوحة لنا عن الاطلاع على مذاهب هؤلاء النقدة .

أما « فيلمان Villemain » (١٧٩٠ - ١٨٧٠) فهو مؤلف كتاب درس الادب الفرنسي ، واستاذ البلاغة في السوربون ، وصاحب سر (الاكاديمية) وكتابه هذا كان فاتحة النقد الحديث فقد جعل فيلمان للمجالس الاجتماعية أثراً في الادب فقال :

لم يخرج من المجالس النيابية نوع حديث في الادب فقط او صبغة خطاطية او بلاغة سياسية بدلًا من البلاغة الدينية وانما خرج منها شيء آخر ، هيئت من هذه المجالس نفحة حياة ، خرج من هذه المجالس عنصر حديث امترج باجزاء الادب كلها فبدل منها وغير واعدها شبابها .

واما « سانتيوف Sainte-Beuve » (١٨٤٠ - ١٨٦٩) فقد حاول ان يطوي من ظل العاطفة الشخصية في النقد على قدر الامكان ، فالناقد في نظره يجب عليه ان يكون منها عن كل غرض حتى يستطيع ان يكشف أسرار أرواح تختلف عن روحه | يجب عليه ان يكون صاحب عقل مطلق لا يشغله غرض من اغراض الفن والأخلاق والدين والسياسة .

فالنقد يلزمـه ان يكون في حيدة عن كل شيء على نحو حيدة العلم .

لا يزيد « سانتيوف » ان يكون النقد تابعاً لاقيسة محدودة فإذا كان تابعاً شيئاً من ذلك فـكـانـاـ نـحاـولـ انـ نـلـزـمـ الاـشـيـاءـ انـ تـكـونـ تـابـعـةـ لـمـذاـهـبـنـاـ فـالـطـبـيـعـةـ مـلـوـءـةـ بـامـورـ مـتـنـوـعـةـ وـقـوـالـبـ مـخـتـفـيـةـ فـلـاـ يـلـزـمـ النـاـقـدـ انـ يـكـونـ خـاصـعـاـ لـسـلـطـانـ وـاحـدـ ،ـ وـقـدـ اـعـتـرـضـ عـلـىـ تـيـعـهـ وـتـيـنـ ،ـ لـمـ شـاءـ هـذـاـ انـ يـطـبـقـ مـذـاهـبـ الـعـلـمـ فـيـ الـعـقـلـ الـشـرـيـ وـيـجـعـلـ لـلـعـقـرـيـةـ الشـخـصـيـةـ أـسـبـابـأـ عـامـةـ .ـ يـقـولـ « سـانـتـيـوـفـ »ـ يـنـبـغـيـ لـلـنـاـقـدـ انـ يـتـجـرـدـ مـنـ نـفـسـهـ فـيـ النـقـدـ ،ـ فـنـ شـرـوطـ عـقـرـيـةـ النـقـدـ اـنـ لـاـ يـكـرـنـ لـلـنـاـفـدـ فـنـ وـانـ لـاـ يـكـونـ لـهـ اـسـلـوبـ فـاـذـاـ كـانـ لـلـنـاـقـدـ شـيـءـ وـنـ ذـلـكـ صـرـفـ هـمـهـ اـلـىـ اـثـرـ الـخـاصـ فـظـاهـرـ

اسلوبه في خلال الاثر الادبي الذي ينقده .

فإذا احتاط الناقد في هذه الامور كلها وجب عليه يومئذ ان يبعث كل مؤلف من مرقه حتى نرى هيئة الخاصة على ان يعتني بكل الظروف التي أتى على ذكرها المؤلف في ترجمته ومن هنا يتبين لكم ان النقد أصبح كناية عن تعمق في روح المؤلف . اراد سانتيوف ان يدرس آثار الرجال على نحو درس علماء الطبيعة لتأذج الانواع المختلفة في عالمي الحيوان والنبات الا انه يرى ان اليوم الذي نستطيع فيه تصنيف الكتاب اصنافاً ، ان اليوم الذي نستطيع فيه وضع تاريخ طبيعي للعقول انما هو يوم بعيد ، على ان الذي يهم انما هو وصف الافراد على وجه الضبط .

ـ واما تين (١٨٢٨ - ١٨٩٣) فكل اثر من الاثار الفنية في نظره يصدر عن صاحبه حتى اعلمه من العلل الخارجية لأن الرجل في الطبيعة يتبع القوانين العامة على نحو المخلوقات واليكم قوله :

قد يمكن ان يعتبر الرجل حيواناً من نوع سام يضم فلسفه ويقول شرعاً كما تنسج ديدان القز بيotta وكما تبني النحل خلاها فاذا وجدنا بستاننا ونحلا فاننا نريد ان نعرف كيف يكون بناء الخلية .

من هنا يظهر لكم ان « تين » قد حاول ان يطابق بين العلم وبين نقد آثار العقل والعاطفة وعلى هذا فقد أراد ان يجعل النقد تاريخاً طبيعياً كبيراً تفسر فيه الاثار والقرائح والامزجة بحسب الجنس، البيئة والزمن ، لقد ادخل تين عناصر حديثة في دراسة الاثار الادبية الا ان مذهبه لا يخوا من بعض المبالغات وقد اثر في الفلسفة وفن الرواية .

ثم جاء بروتيير Brunetière (١٨٤٩ - ١٩٠٧) فانبسط سلطانه على العقول حيناً من الدهر ومنهبه في الادب مذهب النشوء والارتفاع قال :

اننا نعلم ما استفاده التاريخ الطبيعي والتاريخ والفلسفة من هذا المذهب ، فاريدي ان ابحث عن هذا الامر : أولاً يستطيع التاريخ الادبي والنقد الادبي ان ينتفعا بهذا المذهب ، انما مثل الانواع الادبية في نظره كمثل انواع الحيوان والنبات

فإنها تولد فتعيش قتموت او تحول . وهو لا يؤمن بمنهـب التولد الذاتي في
الـادـب ، فالطـرـيقـةـ الغـنـائـيـةـ فيـ القـرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ لمـ تـظـهـرـ فـجـأـةـ وـاـنـماـ قدـ هـيـشـتـ
مـنـ القـرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ .

هذه نظرـةـ عـامـةـ فيـ أـطـوـارـ النـقـدـ الـادـبـيـ الـحـدـيـثـ لـيـسـ فـيـهـ شـيـءـ مـنـ النـطـوـيلـ
وـالـتـفـصـيـلـ وـاـنـماـ غـايـيـ اـطـلـاعـكـ عـلـىـ الزـهـيدـ مـنـ مـبـادـيـهـ هـذـهـ الـاطـوـارـ حـتـىـ لـاـ تـكـونـ
غـرـيـبـةـ عـنـ اـذـهـانـكـ وـقـدـ تـبـيـنـ لـكـ مـنـ هـذـهـ النـظـرـةـ كـيـفـ اـمـتـدـ سـلـطـانـ الـعـلـمـ إـلـىـ آـفـاقـ
الـادـبـ فـاـمـتـزـجـ بـالـادـبـ عـلـمـ النـفـسـ وـالـتـارـيـخـ الـطـبـيـعـيـ وـعـلـمـ الدـشـرـيـجـ وـعـلـمـ
الـفـيـزـيـوـلـوـجـيـهـ وـمـذـهـبـ النـشـوـهـ وـالـاـرـتـقاءـ ثـمـ دـخـلـ النـقـدـ بـعـدـ بـرـوـتـيـرـ فـيـ طـورـ آـخـرـ
وـقـلـ اـعـتـنـاءـ النـقـدةـ بـالـاقـيـسـةـ وـالـمـذاـهـبـ وـجـعـلـوـاـ هـمـ هـمـ اـنـ يـنـقـلـوـاـ يـنـقـلـوـاـ يـنـقـلـوـاـ
رـسـخـتـ فـيـ نـفـوسـهـمـ مـنـ قـرـاءـةـ كـتـبـ مـنـ الـكـتـبـ اوـ اـنـ يـفـهـمـوـاـ هـذـهـ الـكـتـبـ وـيـفـسـرـوـهاـ
لـنـاـ .

وـجـملـةـ القـوـلـ :ـ النـقـدـ يـحـيـطـ بـالـبـلـاغـهـ وـالـادـابـ وـالـفـلـسـفـهـ وـالـتـارـيـخـ وـمـاـ شـاـبـهـ
ذـلـكـ فـلاـ يـصـحـ اـنـ يـكـونـ النـقـدـ فـيـ حـالـ مـنـ الـاحـوـالـ ثـرـثـرـهـ وـهـذـيـانـاـ اوـ خـلـطـاـ
وـتـخـيـصـاـ .

الأسلوب

مر بكم وانا شخص لكم مذهب «سانديوف» في النقد ان الناقد ينبغي له ان يتجرد من نفسه في نقاده فن شرائط عبقرية النقد ان لا يكون للناقد فن وان لا يكون له أسلوب فإذا كان له شيء من ذلك صرف باله الى العناية باسلوبه فظهرت آثار فه على الكلام الذي ينقده . هذا الطراز من النقد اسمه : النقد الموضوعي وصاحب هذا المذهب يقتصر على الافاضة في الموضوع نفسه دون التعرض لأشياء لا تتعلق بالموضوع فكانه يحاول ان ينسليخ من عاطفته في نقاده وقد اعترض على هذا المذهب «أنطوان فرانس» فقال :

«النقد انما هو نمط من الروايات على نحو الفلسفة والتاريخ تزاوله العقول الفطينة الطلعة وكل رواية اذا نحن فهمناها كل الفهم ان هي الا ترجمة المؤلف بقلمه ، فالناقد الحاذق هو الذي يفصح عن خواج نفسه في تصاعيف روابع المؤلفات ، لا يوجد نقد موضوعي كما انه لا يوجد فن موضوعي وكل الذين يتبعجون بهم يضعون في مؤلفاتهم شيئاً غير روحهم وفهم واهمون ، فالحقيقة ان المرء لا يخرج من باطنه أبداً ، وهذا من اكبر شقاء البشرية ، اذنا قيد انفسنا فكاننا في محبس دائم ، فالذي يليق بنا عمله انما هو الاعتراف بهذه الحالة الفظيعة والاقرار باننا نتكلم بكلام على انفسنا كل ما عجزنا عن السكوت ، فإذا كان الناقد حرأ وجّب عليه ان يقول : سادتي ! اني اريد ان اتكلم بكلام على نفسي في اثناء كلامي على «شكسبير» او «راسين» او «باسكال» او «غيت» ، فان في ذلك فرصة حسنة .

وهذا النوع من النقد اسمه : النقد الذاتي ، وصاحب هذا المذهب لا يستطيع ان يتملص من الاعراب عن لوعج صدره في خلال كلامه على مؤلف من المؤلفين .

مألفنا ولهذا كله ، انما بغيتي الكلام على الاسلوب من حيث هو اسلوب دون الاندفاع في التنقيب عن طبقات الاساليب والتلويح الى محسنها ومقابحها الى غير ذلك مما يرجع الى صناعة الترسيل والاشاء .

من شرائط عصرية النقد ان لا يكون للناقد اسلوب فا هو الاسلوب ؟
قرأت من يو مين كتاباً دونت فيه احاديث «اناتول فرانس» في مجالسه ، قال
جامع هذه الاحاديث وهو من الذين كانوا يحضرون مجالس اناتول (١)
طلبوه الى اناتول ان يقص عليهم قصة «رنان» مع راهبة الدير في لبنان
فقال اناتول :

اسمعوا الحديث من فم رنان نفسه ولست اعني بهذا انه حسن القصص ولكنه
كان صاحب طريقة خاصة ، فكان يملأ احاديثه شواهد ويتاوه تاوهات
البريتونيين ويتبسّم ويدير اباهمه على بطنه ويورّم خديه الضخمين في اثناء الحديث
والخلاصة كان يطبع احاديثه بطبع خاص .

احب ان استنبط تعريف الاسلوب من هذا الكلام فالاسلوب هو الطابع
الخاص الذي يطبع به الكاتب كتابته ، والشاعر شعره ، والقاص قصته . الاسلوب
هو القالب الذي يصب فيه كل واحد منا فكره وعاطفته .

يقول «بوفون Buffon» : الاسلوب انما هو الرجل نفسه ، ومعنى هذا ان
الاسلوب انما هو فهم المؤلف وطابع عقله فالاسلوب على هذا الوجه انما هو الشيء
الذي يملكه المؤلف ويختص به في اي كتاب من الكتب ، لا يراد بهذا الكلام ان
الاسلوب صورة طبع المؤلف او صورة اخلاقه ، وإنما المراد به المنهاج الذي ينهجه
هذا المؤلف في الاصلاح عن فكر يختليج في ذهنه او عاطفة تضطرب في قلبه ،
 فهو جملة ما يتذرع به المؤلف من الندائع الى تصوير فكره او تصوير عاطفته .
لتضرب مثلاً للاسلوب ، فلنرجع الى اديب من ادباء العرب ، فلنرجع الى شيخ
ادبائنا في القديم وأعني به الماحظ ، من اساليب الماحظ انه يلجاً الى احقر

(١) اناتول فرانس قاص - بقلم نيكولا سكور - الصفحة ٧١

موضوع وأي موضوع أحقر من الكلام على الحاج الذباب، فيفرغ هذا الفكر في قاتب ويطبعه بطابعه الخاص، وإذا هو موضوع يستهوي النفس ويستميل القلب قد استخلاص منه حكمة من أروع الحكم، وأي حكمة أروع من عجز الإنسان عن اضعف المخلوقات أي عن الذباب، فالماحظ يعظم المعاني الحقيرة فتعظم ، ويحرر المعاني العظيمة فتحقر؛ من هذا النوع كلامه في كتاب الحيوان على الحاج الذباب على أحد قضاة البصرة في أيامه ، عبد الله بن سوار ، وصف الماحظ وقار هذا القاضي فصوّره في سطر فقال^(١) : لم ير الناس حاكاً قط ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذين ضبط وملك ؟ ثم وصف جلوس هذا القاضي فصوّره في صورة بناه مبني أو صخرة منصوبة فقال : فياً تي مجلسه فيحتسي ولا يتكيء فلا يزال منتصباً لا يتحرك لهعنوا ولا يلتفت ولا يحل حبوته ولا يحل رجلاً على رجل ولا يعتمد على أحد شقيقه حتى كأنه بناء مبني أو صخرة منصوبة ، ثم افاض في غير ذلك من دقائق الصفات حتى اذا فرغ من وقار القاضي وجلوسه ومن الحاج الذباب عليه وحركة القاضي في اطبق جفن على جفن والموالاة بين الاطباق والفتح وقع في نفس كل واحد منا انه يستطيع ان يقص هذه القصة باسهله من هذا الكلام ولكن اذا جمع ذهنه وقلّب نظره في الموضوع وعرض على باله مفردات اللغة وتراكيها واخذ قلمه ليكتب اتي عليه يومه كله ولم يقل شيئاً .

هذا هو الاسلوب وهذا هو معنى كلامي : الاسلوب ملك المؤلف لا ينزعه فيه منازع ، فالتفكير الذي يينه الماحظ انما هو فكر عام يخطر على بال كل واحد منا ولكن المعرض الذي عرض فيه هذا الفكر انما هو معرض جاحظي لا يقلده فيه مقلد ولا يزاحمه عليه من احم . قال صاحبه كتاب ثقافة الافكار الاستاذ د ريمي دي غورمون Remy de gourmont

« الكتابة صناعة من الصناعات ولكن الاسلوب ليس من العلم في شيء فإذا قلنا الاسلوب هو الرجل نفسه او اذا قلنا الاسلوب هو شيء مقدس يقولنا واحد ، فالاسلوب

(١) كتاب الحيوان - الجزء الثالث - الصفحة ١٠٦

خاص بصاحبها وكما أن لكل واحد منا صوتاً خاصاً به أو لوناً خاصاً بعينيه فلكل واحد منا أسلوب خاص به ، إنك تستطيع أن تتعلم صناعة الكتابة ولكنك لا تستطيع أن تتعلم كيف يكون لك أسلوب فمن الممكن أن تكون أسلوبك على نحو خضبك لشعرك ولكنك لزمالك أن تستأنف هذا التلوين في كل صباح دون شيء من اللهو ، قد تتعلم المرء قليلاً أن يكون له أسلوب إلا أنه ينسى في خلال الحياة ما تعلمه ، فالرياضة التي تحسن سائر المawahب تفسد في بعض الأحيان موهبة الأسلوب .

الكتاب على نحو ما يفهمها «فلوبر» أو «غونكور» إنما هي أن تكون شيئاً وان لا تشبه غيرك ، فالحصول على أسلوب إنما هو أن يكون لك في لغة عامة مشتركة لهجة خاصة نسيجها وحدتها على أن تكون هذه اللهجة لغة كل الناس ولغة واحد من الناس في وقت معـاً .

ومن أصحاب هذا الرأي «أنطول فرنس» فقد قال :

«أي الرجال يستطيع ان يفخر بأنه فكر في امر لم يفكر فيه غيره ، فالاديب يعلم علم اليقين ان الافكار ملك الناس باجمعهم فلا يقدر احد أن يقول : هذا الفكر لي ، الاديب يعلم ان قيمة الفكر بالقالب الذي يفرغ فيه هذا الفكر . فافرغ فكرة قديمة في قالب حديث هذا هو الفن كله وهذا ما يستطيع البشر ابداعه وإنشاءه ، ليس الفكر ملكاً لمن يدعه وإنما هو ملك الذي يشتبه في أذهان الرجال .»

وقال في موضع آخر :

الفن لا يكون موضوعه الحقيقة فالحقيقة تلتمس في العلوم لأنها غرض هذه العلوم فلا تلتمس في الأدب لأن الأدب لا موضوع له إلا الجمال ولا يمكن ان يكون له إلا الموضوع .»

هذه آراء كتاب الأفرنجية في الأسلوب فلننتقل إلى ناحية أقرب مما فلنهنظر إلى أدبائنا انفسهم والى آرائهم في هذا المذهب ، قال ابو هلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين وكتابه هذا من أبلغ الكتب التي تضمنت فوائد افن وذوق :

«ليس لاحد من اصناف القاتلين غنى عن تناول المعاني من تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ولكن عليهم اذا اخذوها ان يكسوها الفاظاً من عندهم ويزروها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حليتها الاولى ويزيدوها في حسن تأليفها وجوهه تركيبها وكمال حليتها ومعرضها فاذا فعلوا ذلك فهم احق بها من سبق اليها ولو لا ان القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته ان يقول ، وانما ينطق الطفل بعد استئعنه من البالغين . وقال امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه : لو لا ان الكلام يعاد لنفسه وقال بهضمهم : كل شيء ثنيته قصر الا الكلام فانك اذا ثنيته طال .

على ان المعاني مشتركة بين العقلاة فربما وقع المعنى الجيد للسوق والبطيء والزنجي وانما تتفاصل الناس في الالفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها وقد يقع للمتأخر معنى سبقه اليه المتقدم من غير ان يلم به ولكن كاوقع لل الاول وقع للآخر » .
وقال ابن رشيق في العمدة نقل عن بعض العلماء :

« ان المعاني موجودة في طباع الناس يستوي الجاهل فيها والخاذق ولكن العمل على جودة الالفاظ وحسن السبك وصحة التأليف ، الا ترى لو ان رجلا اراد في المدح تشيهي رجل لما أخطأ ان يشبهه في الجود بالغيث والبحر ، وفي الاصدام بالاسد ، وفي المصاه بالسيف ، وفي العزم بالسيل ، وفي الحسن بالشمس ، فان لم يحسن تركيب هذه المعاني في احسن حلاتها من اللفظ الجيد الجامع للرقابة والجزالة والعنونة والطلاوة والسهولة لم يكن للمعنى قدر ، وبعضهم مثل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة فان لم تقابل الصورة الحسنة بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها وتضليلت في عين مبصرها . »

من هذا يتبين لكم ان اكابر الادباء وبلغاء الكتاب قد اجمعوا على فضل الاسلوب فالاعتناء بالاسلوب قديم عهده في الامم فاليونانيون كانوا على هذا المذهب والرومانيون اولعوا الولع كله بجمال الاسلوب حتى افطرتوا في هذا الامر فأدى بهم افراطهم الى التقصير في الكتابة الحسنة : ان الاسلوب سلطاناً لا يقاوم

وما قيمة الكاتب الا أسلوبه ، يقول بعض الادباء : ان أكثر فواجع « شكسبير »
لم تكن الا سلسلة استعارات طرست على آثار القصة الاولى التي جاءته ، انه لم
يخترع الا شعره وعباراته فالصور التي صورها حديثة وحداثتها هذه هي التي
بعثت روحًا في فواجعه . انظروا الى الشعراء الذين عاشوا في زمن البحترى ثم
انظروا الى الذين طواهم فلم يمتد لهم ظل ولم يتسع لهم فيه أفيعيش البحترى
ويموت شعراء وقته لو لا الاسلوب ، ان اختراع المعاني محدود ولو لم يكن
للمرة اسلوب يختلف به عن غيره لنجد الكلام في العصر الاول من عصور الاداب
ولو كان مدار البلاغة على المعاني وحدها لكان الا لكن على رأي أبي هلال العسكري
بليغاً لانه يفهمنا حاجته بل يلزم ان يكون كل الناس بلغاء حتى الاطفال لان كل
واحد منهم لا يعدم ان يدل على غرضه بعجمته او لكتته او ايماهه او إشارته
بل لزم ان يكون السنور بليغاً لانا نستدل بضمائه على كثير من اراداته .

هذا هو الرأي الذي اطبقوا عليه وما شد عنه بعض الناس ولا طعنوا فيه
الاعجزهم عن ان يكون لهم اسلوب حسن ولا يقعن في خلد احدكم ان المراد
بالاسلوب مجرد الالفاظ فهذا ظاهر الاحالة لان الالفاظ تدل بطبيعتها على معانٍ
فلا ترون الفاظاً من دون معانٍ والذين تجدون لهم أساليب ضخمة ولا تجدون
لهم معانٍ ضخمة هم أصحاب اسلوب اجوف فارغ لانهم لم يحوكوا الكلام على
حسب الامانى ولا خطوا الالفاظ على قدوة المعانى ۲

سحر العصرية

اجملت الكلام حتى اليوم على امور كانت على غير قصد مني شبه تمهيد لدراسة شعراتنا الثلاثة : أبي الطيب وابي عبادة وابي تمام ، وافق التمهيد مديد . فانا اخشى اذا مضيت في هذه المقدمات ان تتفضي سنتنا ولم نجح الس أحداً من شعراتنا الثلاثة ولا احطنا بشيء من وشي طباعهم وصوب قرائحهم فارى ان اجترىء بهذا المقدار من التمهيد وان ادرس واياكم بعد اليوم اول الشعراء الذين ذكرتهم واريد به ابا الطيب المتنبي مالي الدنيا وشاغل الناس دون التعمق في دقائق الشعر وما يتعلق به فيه ، فما هر الشعر ومن هم الشعراء ؟

الشعر و معناه في اليونانية « الابداع » انما هو في متعارف الاصطلاح الفن الذي يستخدم الالفاظ المتناسقة في تصوير الجمال ، اي في تصوير افكار وعواطف لاصقة بما يناسبها من الصور . الغرض من الفنون بمجامعتها تصوير الجمال وقد علمتم ان تصوير الجمال انما هو الاصفاح عن فكر من الافكار او عن عاصفة من العواطف على ان تكون هذه الافكار والعواطف قد كسيت ما يشاكلها من ضروب اللباس ، والتأليف بين الافكار والعواطف وبين قوالبها انما هو من عمل الخيال اي خيال اصحاب الفنون ، فاذا خطر على بال واحد منهم موضوع من الموضوعات وقع في حالة اشبه شيء بالوحى يرتفع فيها الى جو اعلى من جو العامة ويحقق في سماء امد من سمائهم فيغترق الموضوع ذهنه وفي هذه الارتفاع تكشف الافكار له في شكلها الحسي فينزل الوحي عليه .

وعلى هذه الصورة ، الفنون كلها متماثلة وانما تختلف باختلاف الوسائل التي يتوصل بها اصحابها الى بيان اغراضهم ، فالصورة يتجها الى الخطوط والالوان ، وصاحب الموسيقى يرجع الى الانجان والاصوات ، والشاعر يعتمد الى الالفاظ

قال ، اناتول فرائس ، في سحر الالفاظ : فلق الشعراء لذذ ، فلا ترثوا لهم ان الذين يغنوون يعلمون كيف يخلعون حالة يضاهى على سواد قنوطهم ، فلا سحر الا سحر الالفاظ فالشعراء يتبعون كما يتبع الاطفال وما عزاهم الا الصور ، فالشعر لا يتم بالاوزان والتفقيه وانما يتطلب صوراً لانه بالصور وحدها يستطيع ان يخلع على الافكار والعواطف لباساً محسوساً .

(متى يكون الشعر)

لا يكون الشعر الا اذا جمعت الفاظ متناسقة و كانت هذه الالفاظ تتضمن صوراً تناسب المعاني التي تصورها ، فلا تزداد الافكار والصور تناسباً ولا تزداد الالفاظ من جهة ثانية تناسقاً ، سواءً كان هذا التناسق في الالفاظ نفسها ام كان في الافكار وفي الالفاظ التي تمثلها الا ازداد الشعر كالتالي .

قد يكون الشعر في مندوحة عن الاوزان طال ما ان الشاعر يستطيع ان ينسق كلامه من دون وزن ، الا ان الاوزان نافعة لان الالفاظ الموزونة اشد تناسقاً دع عنك ان هذه الاوزان " عل لكل نوع من انواع الفكر والعاطفة لغة خاصة فلكل جنس من اجناس العروض مقام واذا امكن ان يكون شعر دون أبيات موزونة ولا اقول دون تناسق او اذا امكن ان تكون أبيات موزونة دون شعر فلا بد لنا في كل حال من اعتبار الاوزان قال « شينيه Chaignet » في كتابه علم الجمال " " البيت من الشعر ما هو الا لباس ولكنه لباس طبيعي لطيف تلبسه الفكرة الشعرية ، البيت من الشعر جناح يعين هذه الفكرة على الارتفاع من الارض ويحول دون تلطخ بردها القشيب بالوحول ، البيت من الشعر انما هو المثل الاعلى للكلام .

وقال ابن رشيق في العمدة :

« اذا اخذه — اي اذا اخذ الشعر — سلك الوزن وعقد القافية تألفت اشتاته وازدواجت فرائده وبناته واتخذه اللبس جمالاً والمدخل مالاً فصار قرطه

الاذان وقلائد الاعناق واماني النفوس واكاليل الرؤوس ، يقلب بالالسن ويختبأ في القلوب مصوّنا باللب منوعاً من السرقة والغصب .

(ما هو ارتباط الشعر بالموسيقى)

الغناء الذي يزيد في تناقض الكلام يزيد ايضاً في كمال الشعر وقد كان الشاعر والموسيقي في بده الجماعات متحددين فكان كل شاعر صاحب موسيقى على ان اتحاد الموسيقى والشعر لا ينفع الشعر الا اذا كانت الحان الموسيقى تصاحب في الشعر الالفاظ وحدها .اما اذا حالت الموسيقى دون فهم الشعر امتنع الشعر ، ولم يزاول الناس الموسيقى في الاصل للموسيقى ذاتها ولكنها خادمة الشعر ولهذا لم تتكامل اغاني الامم في بدنها تكامل الموسيقى في عصرنا هذا .

وهنا لا بد لي من تلخيص هذا الامر : الموسيقى فن مختلف عن فن الشعر وان كانا يستخدمان الالحان في تصوير الجمال ، الا ان الموسيقى تستخدمن الالحان للالحان ذاتها فغايتها العاطفة موصولة بالالحان ، فكل ما غرقت الموسيقى في تناقض الالحان وتجردت من الفكرة التي تصورها الفاظ هذه الالحان كانت الموسيقى متكاملة ، اما الشعر فإنه على خلاف هذا الامر فهو يعتبر اللحن بمنزلة علامه لنقل الفكرة والصورة . فاللحن ليس بغرض الشعر الحقيقي وانما حقيقة غرض الشعر الفكرة المحسوسة التي يمثلها اللحن للذهن ،

للافصاح عن الفكرة والعاطفة مذهب آخر من الكلام وهو النثر ، فالشعر يختلف عن النثر من وجهين من حيث المعنى ومن حيث المبني .

اما من حيث المعنى فالمنظوم من الكلام غرضه تصوير الجمال أي جمل الافكار محسوسة فهو يصور الجمال للجال نفسه فلا تكون غايته الا الله ولكن النثر قد يكون من دون ان تجدوا فيه صيغة محسوسة للافكار ، واذا عني الكتاب في بعض الاحيان بالجمال فما هو الا ليحصلوا على منفعة ما ، فهم يستفيدون من سحر الجمال ما يمكنهم من النهي واصناع وما شابه ذلك .
الشعر لا يعرض علينا الافكار مجردة كما يفعل النثر ولكنه يعرض علينا

حقائق هذه الافكار المحسوسة حتى نكاد ندرك الافكار ذاتها وظواهر صيغها ، كل هذا في شكل مرصوص كأنه بناء مبني لا خلل فيه فإذا قلنا الربع فانا نفهم الذي يراد بكلمة الربع ولكننا لا نتصور شيئاً في أذهاننا واما اذا سمعنا الباحري يقول :

أناك الربع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد ان يتكلما
ادركتنا الفكرة نفسها اي فكرة الربع ولكن سحر العبرية قد بعث في
هذه الفكرة حياة حتى كأننا بمحض شخص باسم الثغر ضاحك الوجه قد
هم بالكلام .

فالشعر غرضه ان يعرض الفكر في معرض ظاهر فهو يتحامى التجريدات ومصطلحات العلم واستدلالات الفلسفة التي هي من خصائص الشر فهي تجعل الشعر في عالم مختلف عن عالم الخيال وعالم الصيغ المحسوسة ، قال « اناتول فرانس » : « يحق للعلم ان يطلب اليانا ان يجتهد ذهنا وينبه فكرنا ولكن الفن ليس له هذا الحق ، شأن الفن ان يلذك ويسرك ليس له غير هذا الشأن ، ولكنهم في هذا العصر قد خلطوا وخصوصاً فاحبوا ان يطبقوا في نتائج الادب ما طبق من الطرائق في العلم على ان بين انشودة من الانشيد وبين الهندسة الوصفية بوتاً عظيمآً فالشعر غير الهندسة وما ينبغي ملاذ الفن ان تكون متيبة للذهن » .

ولست ادرى الى اي غرض رمى ابن رشيق في كلامه لما قال : « والشعر ما خرذ بكل علم مطلوب بكل مكرمة لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل من نحو ولغة وفقه وحساب وفريضة » .

اما ان يكون الشاعر مشقفاً فهذا لا بد منه ، واما ان يحمل الشعر ما تحمله لياه من فقه وفريضة وحساب فهذا مالا قدرة له عليه ، فالشعر شيء والجمع والطرح شيء آخر .

قلت : الشعر يختلف عن النثر من حيث المعنى وهو يختلف عنه من حيث المبني فلكل فكر من الافكار صورة تناسبه من الكلام وال فكرة الشعرية تختلف

عن الفكرة التثيرة فوجب ان يكون لكل من الشعر والثر لغة خاصة قال ابن رشيق : « وللشعراء ألفاظ معروفة وأمثلة مأولة لا ينبغي للشاعر ان يدعوها ولا يستعمل غيرها كما ان الكتاب اصطاحوا على الفاظ باعianها سمونها : الالفاظ الكتابية لا يتتجاوزونها الى سوانها » .

فالشعراء هم اساتذة اللغة ان لهم ألفاظاً أشرف من الفاظ الكتاب فهم يستعملون كلاماً اندر واقدم وبولسون الفاظاً وترانكيب كتواليد امرىء القيس لهذا التركيب : بعيدة فهو القرط ، وكتواليد غيره من الشعراء .
هذا موجز القول في الشعر وما أظن اي بلغت الغاية في الكلام عليه فان في الشعر شيئاً غير تناصق الالفاظ وغير تناصق المعاني والصور ، ان في الشعر سراً روحانياً يدركه الذي يزاوله وقد لا يدركه غير الذي يزاوله وهذا السر الروحاني هو الذي يجعل الشعر شرعاً يهز النقوس ويحرك الطياع ، ما اجمل قول صحار العبدى لمعاوية وقد قال له معاوية :

ما هذا الكلام الذي يظهر منك ، فقال صحار : « شيء تجيئ به صدورنا فتقذفه على الستنا » نعم الشعر شيء والشعر كل شيء ، ولكن ما هو هذا الشيء ، ان هو الا وحي يوحى ، فما الاوزان وما القوافي وما التنسيق ، ان في الشعر شيئاً لا تبهه صناعة وانما تبهه الطبيعة وحدتها ، تاممه الهاماماً فيفتح على خاطر صاحبه ، فيقذفه على لسانه فلن كان الشعر غير مناسب لطبيعته وغير ملائم لفريحته فليس بمحظ ما قاله له ابن عبد ربہ :

« فلا تمض مطيتك في التهاسه ولا تتعب نفسك الى ابعائه باستعارتك الفاظ الناس وكلامهم ، فان ذلك غير منصر لك ولا مجد عليك ما لم تكون الصناعة مازجة لذهنك وملتحمة بطبعك ، واعلم ان من كان مرجعه اغتصاب نظم من تقدمه واستضائه بكوكب من سبقه وسحب ذيل حلة غيره ولم تكن معه أدلة تولد له من بنات ذهنه ونتائج فكره الكلام الحزم والمعنى الجزل لم يكن من الصناعة في غير ولا نغير » .

من هذا كله تستخلصون ان الشعر قد ركب في الطبع وامتزج بالنفس فالطبع هو العامل الاكبر في الشعر ولعمري كيف يكون الشاعر رقيقاً اذا قدت طبائعه من الصخر ، ونحت قلبه من الحجر ، أم كيف يكون ظريفاً اذا نشأ على الغلطة والفظاظة وطبع على فتور الذهن وجود النفس ، فالناس كلهم يستطيعون ان يتکلفوا الشعر وما كل شعر يقولونه خالد على وجه الدهر فإذا لم يكن الشعر ابن الوحي والاهام ذهب جفاء ولم يمکث في الارض .

هذا هو الشعر ، هذا هو سحر العبرية ، فمنهم الشعراه : من هم هؤلاء السحرة ، فإذا اردتم ان تعرفوا من هم الشعراه فاسمعوا ما قاله « فكتور هوغو » :

« من الخطأ لا بل من الجناية ان يخطر ببال الاديب انه يحق له ان يكون معزلاً عن صالح قومه ورثائهم ، وان يعدل بقرار يحته عن التأثير في اهل عصره وابناء زمانه وان يتفرد بحياته فلا يكون له عمل في البنيان الاجتماعي ، فمن الذي يخاص النية في هذه الاعمال الجليلة غير الشاعر ، أي صوت يعلو في العواصف غير صوته ، ام اي وتر يستطيع ان يخفف من شدة العواصف غير وتر قيثارته ؟ فمن الذي يقتحم الفوضى فيذهب بمقابحها ويهرج على الاستبداد فيدرج بمكارمه وقدیماً كان الشاعر صاحب الامر النافذ في الجمع بين الشعوب والملوک وحدیثاً له الامر في الفريق بينهم . »

فإذا علمتم مكانة الشعراه في المجتمع البشري ادرکتم معنى احتفال قبائل العرب في القديم بشعراهم ، قال ابن رشيق :

« كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أنت القبائل فهنأتها وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالملزاهر كما يصنعون في الاعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لانه حمایة لاعراضهم وذب عن احبابهم وتخلید لما شرهم واشادة بذكرهم وكانوا لا يهتمون الا بغلام بولد او شاعر ينبع فيه او فرس تنتاج . فمن حمى قبيلته زياد الاعجم وذلك ان الفرزدق هم به جاء عبد القيس فبلغ ذلك زياداً وهو منهم فبعث اليه : لاتجعل وانا مهد اليك هدية فانتظر الفرزدق المديدة فجاءه من عنده : »

فما ترك الماجون لي ان هجوتهم مصححاً أراه في أديم الفرزدق
ولا تركوا عظاماً يرى تحت لحمه اسکاره ابقوه للمتعرق
ساكسر ما أبقوه من عظامه وأنكست مع الساق منه وأنتقي
فانا وما تهدي لنا ان هجوتنا لكالبحر مهما يلقي في البحر يغرق
فليا بلغته الآيات كف عما اراد وقال :

لا سيل الى هجاء هؤلاء ما عاش هذا العبد فيهم ،

وكيف لا تحتفل العرب بشعراها وهم الذين يصورون الحق في صورة الباطل
ويصيرون الباطل في قالب الحق فإذا قالوا أنجحت مقالتهم في القلوب ، قال اناتول
فرانس :^(١)

« الشاعر ملك ، الشاعر اكثراً من ذلك ، انه فوق أفق البشر ، ينزل عليه إله
الشعر هدوء الفكر ومسرات العقل ، انه يكتشف عوالم حديثة على نحو « كولومب »
دون ان يزايل مرکزه ويفتح البلاد على نحو « شارلمان » من غير ان يتحرك
من مكانه .

ان يجمع هو انج النقوس فيبعث حياة كل واحد من البشر ، يشعر بفرح
كل من يفرح و يحس بألم كل من يتألم في هذا العالم .
اي سلطان في يديه ! انه يجمع الالفاظ ، تلك الالفاظ الباطلة التي تقلب العالم ،
الشاعر يحكم على الاحياء وعلى الاموات .

انظروا الى الملك « مكتب » دل استقصاء المؤرخين على انه لم يقتل احداً وعلى
ان زوجته كانت امرأة صالحة فلم يكن على يدي « مكتب » لطخة دم ولكن من
الذى يؤمن بعد اليوم بصلاح الزوجين الفاجعين . أراد شكسبير ان يصور الملك
« مكتب » في صورة مجرم فظيع فلطخ يد زوجته لطخة حمراء فنظر الناس بعد
تصوير « شكسبير » الى الملك « مكتب » والى زوجته فلم يروا في « مكتب » الا
رجال قاتلاً غاصباً ولم يروا في زوجته الا انامل غميسة في النجع . فلا يستطيع

(١) اناتول فرانس قاص - بقلم نيكولا سكور - الصفحة ٤٣

احد ان ينصفهما بعد كلام شكسبير ، وان ينظر في مظلمتهم مرة ثانية فقد نطق
الشاعر اذا الشاعر نطق فلا تسمع العصور غير صوته » .

ما أعظم سلطان الشاعر ! ما انفذ كلامه ! من كلام الاذدي على سيف الدولة
انه كان جائراً على رعيته ، ومن كلام قاضي سيف الدولة ابي الحصين : كل من
هلك فليس بسيف الدولة ما ترك ، ولما قتل هذا القاضي في احدى المعارك داسه سيف
الدولة بحصانه وقال : لا رضي الله عنك فانك كنت تفتح لي ابواب الظلم ، وذكر
بعض المؤرخين ان بني حمدان اكبوا على ابناء عمهم بني حبيب بصنوف الجور حتى
مرق بنو حبيب من دينهم والتحقوا بالروم ، كل هذا نسي منسي ، ذهب جور
سيف الدولة ان كان جائراً وذهب ظلمه ان كان ظالماً ولم يبق في اذهان بعض
الناس من سيف الدولة الا الصورة التي صورها ابو الطيب المتنبي في شعره ،
ستذكر الايام وتمر العصور وسيف الدولة :

شرف عدنان به لا ربيعة وتفتخرون الدنيا به لا العواصم (١)
هؤلاء هم الشعراء . —

دخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له من انت قال : ابن هرم
ابن سنان قال : صاحب زهير ، قال : نعم قال : اما انه كان يقول فيكم فيحسن قال :
كذلك نعطيه فتجزل قال : ذهب ما اعطيتموه وباقي ما اعطياكم .
وما اريد بعد هذه الخاتمة ان اقول شيئاً فالشعراء هم الذين اذا اعطوا بقيت
عطياتهم على شباب الايام وعلى هرمها ۹

٢٨ كانون اول سنة ١٩٢٩

(١) لا يراد بهذا الكلام ان حكم التاريخ على «مكتب» او على سيف الدولة قد
بطل دفعة واحدة وانما يراد به تصوير تأثير الشعراء ومبلغ هذا التأثير .

أمثلة ملخصة في كتب التراجم

١

اول عهدي به — دراستنا في الماضي والحاضر كتب التراجم

أرجع بالخاطر الى الماضي ، ويبين وبين هذا الماضي سبع عشرة سنة ، وما هي هذه البرهة قياساً بالزمان الذي لا ينتهي الى اوائله ، ولا تصل باواخره ، ما هو عمر كلها سواء اطالتها ام قصر ، وسواء أبسمت جنباته ام عبست ؟ ما هو عمر الانسان الى جنب اعمار العالم في الطبيعة والى جنب اعمار طبقات الارض . ما لنا ولها تعجب ، فاننا اذا امعنا في اشباه هذه المسائل غرقنا في خضم الزمان ، وتبيّن لنا اننا لم نك شيئاً في العالم ، ارجع بالخاطر الى الماضي ؛ وقد كان الشباب مئيد الغصن ، أملد العود ؛ وكان البال هادئاً و الفكر ساكنًا لم يشغله شيء من شواغل الحياة وما اكثـر شواغلها ، اللهم الا انصرافه الى الادب وتمتعه بآثاره الخالدة ولكن هل كنا نفهم هذه الآثار ؟ هل كانوا يفهموننا ايها ؟ هل كان يحسن فهمنا وتفهمونا ؟ كنت ورفيق لي اذا اغتنمنا خفة من زحمة مدرستنا نتردد الى مكتبة مطمئنة مستقرة ليس فيها شيء من العظمة وانما عظمتها في حقارته شأنها ، كنا نتنيب هذه المكتبة في حي رفيق أي في حي النصارى فما كنا نجالس من الشعرا الا شيخنا ابا الطيب ولا كنا نحادث من الكتاب الا استاذنا عبد الله بن المفعع .

اني لا ازال اذكر الایات التي كنا نرددتها ونستعظمها ونحن لا نعرف

السر في عظمتها، ومن هذه الآيات، وهي كريمة على، لاها رفيقة الصبوة
وشقيقه الروح :

وانا لنلقى الحادثات بانفسنا كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا ان تصاب جسونا وتسلم اعراض لنا وعقول
ومنها :

واحتمال الاذى ورؤيه جائيه غذاء تضوى به الاجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش اخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام
ومنها في استعطاف سيف الدولة :

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاك لم
ومنها في رثاء جدته :

انها كتاي بعد يأس وترحة فاتت سروراً بي فت بها غما
حرام على قلبي السرور فاني اعد الذي مات به بعدها سما
نعم هذه طائفة من الشعر الذي كنا نتحدث بهانا ورفيق من دون ان نخوض
في شيء من الكلام على بوطن هذا الشعر او نتصدى لكشف الغطاء عن اسراره
وانما كان يسحرنا بظاهره فيشغلنا جمال هذا الظاهر عن النظر في جمال الباطن
فكان نجھل المتنبي ونجھل طبيعة عقريته وانما كنا نتعجب بشعره حتى افترقنا
فطرحتي النوى مطارحها واداانا في شارع من شوارع الاسكندرية واداانا
في دكان وراق من الوراقين فاخذت عيني ديوان ابي الطيب الذي شرحه الشيخ
اليازجي فاشترت هذا الديوان وحفظت منه ما تيسر لي حفظه وقد ذهب المحفوظ
الا اقله وانا لم ازدد معرفة بالمتنبي وبحقيقة حاله وشعره وانما ازددت عبادة له .
هذا اول عهدني بشيخنا ابي الطيب وما قدمت هذا الكلام عبياً ، ولا رجوت
الى الماضي عرضاً؛ فلم انعود ان افق غيري واضجره بكلامي على نفسي وانما
المرء لا يكون اميناً كل الامين الا اذا جرى على لسانه ما تصوره فكره . هذ

ما قاله « أنا ول فرنس » لم اعرض الماضي عليكم عبئنا وانما اردت أن أصف لكم طوراً من اطوارنا في فهم الادب ، اردت ان اصور لكم كيف كانت دراستنا للادب من سبع عشرة سنة ، كتنا لا ندرى بشيء من جملة حياة الشاعر وجملة اخلاقه وطبعاته وجملة عقريته ، حسبنا ان نستظير بعض اشعاره ونروي هذا المستظير في مجالسنا حتى يطبعنا الادب بطبعاته ويصبنا في قوله . اما اليوم فلا يكفيانا ان نملاً اذهانا بعض ايات نجتمع بها في محافل الادب ، تلك حالة قد خلت ، ليس صاحبها في شيء من الادب قرأنا المتنبي فلم نعرف عنه كل شيء تهمنا معرفته ، لم نعرف أين ولد وأين نشأ وكيف حصل وقرأ ، وما هي اخباره من مبادئها الى خواتيمها ؛ كيف جال في الاقطار وكيف اتصل بسيف الدولة ثم انفصل عنه ، وكيف قصد كافوراً ثم تركه ، وكيف عاد الى بغداد ثم خرج منها ، وكيف رحل الى بلاد فارس ثم غادرها فقتل في طريقه الى وطنه الكونية قرأنا المتنبي فلم نحط بشيء من سلسلة اخباره ؛ فلم يتبين لنا طراز حياة المتنبي وما قصدنا ان نعرف انه اتصل بفلان او فلان من الوزراء والامراء ، وأنما اذا عرفنا جملة اخباره استخلاصنا منها نمط حياته فتبين لنا ان هذه الحياة كانت جياشة بالحوادث والفتنة ، في اضطراب بالقلق والاضطراب يكاد صاحبها لم يعرف المدوم في يوم من ايامه ، ولم يدق الطائفة في ساعة من ساعاته ، اعصاب هائجة مائحة اذا حرکوا منها طرفاً انتفضت ولا انتفاض البرق فويل للذى مسهها بسوء هكذا قرأنا المتنبي ، اما اليوم فاني احاول ان ادرسها واياكم على صورة أتم ، ووجه اكمل ، أحاول اليوم ان اقرأ شعره وان ادوّن في دفتر ي ما توحيه الى هذه القراءة ، وان احدثكم في كل أسبوع بما يقع في نفسي من آثارها على مختلف صفات هذه الآثار ، وعلى ما به لا بد لنا من ان ننتقل الى وطن شيخنا ابو الطيب ونراقبه في اطوار حياته بمجاهدها ونصحبه في اسفاره كلها ، في جرلانه في الشام وفي اتصاله بسيف الدولة ؛ وفي دخوله مصر وخروجه منها ، وفي رجوعه الى العراق وفي شخوصه من العراق الى فارس وفي مغادرته بلاد فارس وعودته الى

وطنه وفي مقتله على طريقه الى المكوفة ، لا بد لنا من أن نصحب شيخنا ابا الطيب من مبدإ منشأه الى خاتمة حياته وأن نعني بجميع ما حدث له من الحوادث في مجالسه كلها وما اكثره هذه الحوادث ، وان نستنبط منها طراز حياته وما ملئت به هذه الحياة من فرق واضطراب ، وما تقلبت فيه من علو وهبوط ، لا بد لنا بعد الوقوف على دقائق هذه الحياة من معرفة مزاجه وخلقه مستندن في هذه المعرفة الى آثار عبقريته نفسه الا لا بد لنا من النظر في آثار عصره في شعره وآثار شعره في عصره ، ما الذي اوحاه اليه عصره وما الذي اوحاه الى عصره ، لا بد لنا من النظر في عبقريته وفي خصائصها راجعين في الاحاطة بهذه الخصائص الى مصادر شعره ، وجملة القول لا بد لنا من ان نعيش مع المتتبني حتى نعرف من هو المتتبني ، وقد يجوز ان يعرض لي في اثناء هذا كله فكر عام يجره فكر خاص ، لأن المرء اذا تصور موضوعاً وهاهـ عن انصاره ثم أخذ قوله ليكتب هجوماً على ذهنـهـشيـ ما كان يتصوره ، كان قلم ابن المفعـعـ كثيراً ما يـقـفـ ، فـقـيلـ لـهـ فـيـ ذـلـكـ ، فـقـالـ تـرـ دـحـ الـافـكارـ فـيـ صـدـريـ فـيـقـفـ القـلمـ لـتـحـيرـهـ . أول ما يهمـناـ علمـهـ الـاحـاطـةـ بـحـيـاـةـ المتـتبـنيـ منـ أـوـلـهاـ إـلـىـ آـخـرـهاـ ،ـ والـوقـوفـ علىـ اـخـبـارـ وـحـوـادـثـ منـ دونـ انـ تـكـونـ هـذـهـ الـاخـبـارـ مـقـتـضـيـةـ مـبـعـثـرـةـ فـاـذـاـ وـقـعـ الـاقـضـابـ فيـ الـاخـبـارـ فـاتـنـاـ صـورـةـ صـاحـبـهاـ الـمـكـامـلـةـ ،ـ فـاـذـاـ كـنـاـ بـحـثـ عـنـ حـيـاـةـ المتـتبـنيـ وـتـعـرـضـنـاـ فـيـ خـلـالـ بـحـثـنـاـ لـلـكـلامـ عـلـىـ شـعـرـهـ دونـ انـ يـكـونـ هـذـاـ الـكـلامـ اـرـتـباطـ بـحـيـاـةـ صـاحـبـهـ شـاهـتـ صـورـةـ هـذـهـ الـحـيـاـةـ وـقـبـحـتـ فـاـلـاجـدـرـ بـنـاـ انـ نـرـسـلـ اـخـبـارـ الـحـيـاـةـ دـفـعـةـ وـاحـدـةـ ،ـ وـقـدـ عـنـ الـافـرـنجـيـ بـهـذـاـ النـمـطـ مـنـ التـرتـيـبـ العـنـايـةـ كـلـهاـ ،ـ اـذـكـرـ اـنـ قـرـأتـ كـتـابـاـ عـمـلـهـ «ـ اـنـاـتـولـ فـرـانـسـ »ـ سـمـاهـ عـبـقـرـيـةـ الـلـاتـيـنـيـةـ ،ـ وـصـفـ فـيـهـ طـائـفةـ منـ كـبـارـشـعـرـاءـ فـرـانـسـ وـكـتـابـهـ وـمـنـ جـمـلـهـ هـؤـلـاءـ الشـعـرـاءـ «ـ رـاسـينـ Racineـ »ـ وـكـادـ رـاسـينـ يـكـونـ أـكـبـرـ شـعـرـاءـ فـرـانـسـةـ ؛ـ عـقـدـ لـهـ اـنـاـتـولـ فـصـلـاـ فـيـ كـتـابـهـ بـشـتـمـلـ عـلـىـ خـمـسـ وـثـلـاثـيـنـ صـفـحةـ لـمـ يـذـكـرـ فـيـهـ الـاحـيـاـ رـاسـينـ مـنـ صـدـورـهـاـ إـلـىـ اـعـجـازـهـاـ وـقـلـيلاـ ماـ كـانـ يـتـعـرـضـ لـلـكـلامـ عـلـىـ عـبـقـرـيـتـهـ فـيـ تـضـاعـيفـ كـلـامـهـ عـلـىـ حـيـاـتـهـ إـلـاـ مـاـ اـقـضـاهـ المـقـامـ .ـ مـنـ هـذـاـ يـتـبـيـنـ لـكـمـ مـبـلـغـ اـخـبـارـ الـكـاتـبـ اوـ الشـاعـرـ فـيـ الـادـبـ الـحـدـيثـ لـاـنـ

لهذه الاخبار تعلقاً بروح الشاعر وبأخلاقه وبطبائعه وبعقريته نفسها .
رجعت الى المصادر التي استطيع ان اهتمي بها الى معرفة خية المتنبي ومن
جملة هذه المصادر : ابن خلkan ، طبقات الادباء ، يتيمة الدهر ، الصبح المنبي .
تصفحت كتاب ابن خلkan فبدلا من أن يبدأ بالكلام على مولد المتنبي ثم على أهله
ثم على تحصيله ثم على اخباره ثم على شعره ، بدأ بالكلام على تحصيله ثم انتقل الى
الكلام على شعره وتره ثم ذكر نظر الناس فيه ثم رجم الى اخباره ثم يَّن مولده
ثم ذكر نسبة حتى ركب البحث بعضه بعضاً دون شيء من الترتيب وكذلك صاحب
الصبح المنبي فانه عوضاً عن ان يروي لنا اخبار المتنبي دفعة واحدة رواها على
صورة مفرقة مبددة وانه لا يروي لنا اخبار المتنبي عند سيف الدولة اذ ينقلب
بنا فجأة الى اخباره عند ابن العميد بحيث قضيت ثلاثة ساعات ونصف ساعة
في التدقيق والتمحیص حتى اجمع اخبار أبي الطيب كلها ، وأصل بعضها
بعض من بده حياته الى يوم مقتله ، فلو ذكر صاحب الصبح المنبي الاخبار دفعة
واحدة من دون ان يتخللها شيء من نقد الشعر او غيره مما لا محل له في فصل
الاخبار لکفى القارئ . كثيراً من العنااء . ادبنا في القديم لا يزال فوضى ينقشه
كثير من الترتيب ، وهذه حقيقة واضحة حتى ان هذه الفوضى قد حلت بعض
الناس على ان يعتقدوا اننا لا ادب لنا في القديم ، او ان هذا الادب لا قيمة له .
وما اعتقادوا هذا الاعتقاد الا لقلة الترتيب في ادبنا فلو روى المؤلفون اخبار شاعر
من الشعراء على حدة حتى نستخلص من هذه الاخبار طراز حياته باجمعه . ولو
نقدوا اشعار هذا الشاعر على حدة حتى نستنبط من هذا النقد رأيهم في الشعر دون ان
يتخلل الاخبار شيء من النقد . او ان يتخلل النقد شيء من الاخبار مما لا يتعلق
بالنقد . لو فعل المؤلفون هذا كله لكان ادبنا في شكل اتم . فإذا قلنا ادبنا في القديم
فوضى فما في مقالنا شيء من المبالغة . وما اظن ان ادبنا في الحديث احسن ترتيباً
ومن المؤلم ان يدعوا استاذ روسي في المجمع العلمي في لينينغراد وهو الاستاذ اغناطيوس
كرياتشوفسكي ، ادباء العرب الى تنظيم ادبهم في هذا العصر قبل ان يفكر احد

من هؤلاء الادباء في التنظيم ، فقد كتب هذا الاستاذ مقالة بالعربية سماها : درس
الاداب العربية الحديثة — منهاجه ومقاصده في الحاضر — نظر واقتراح - وارسل
مقالته الى مجلة الجمع العلمي في دمشق ، وستظهر هذه المقالة قريبا في مجلة الجمع^(١)
وقد قرأتها كلها فان صاحبها دلنا على ما يجب علينا ان ننهجه من المناهج في ترتيب
الحديث واقتراح ان يكون دخول نابلس مصر فاتحة عصر هذا الادب ٢

١١ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

(١) نشرت هذه المقالة في الجزء الاول من المجلد العاشر من مجلة الجمع العلمي

العربي — كانون الثاني ١٩٣٠

وطن المتنبي

خد العذراء

1

»موقع الكوفة - أوليتها - وصفها«

انتقل بكم في غسل ليالينا هذه من البلد الذي رمى ظله عليه جبار بنى امية الى
البلد الذي اورفت ظلاله فيه جبار بنى العباس ، انتقل بكم من دمشق الى بغداد :
محضتك يا بغداد ودي على النوى واني ان أحضر ودادي أصدق
فما بردى لو لا الفرات بمورد لظمآن ان يشرب من الماء يشرق
ولا دجلة لو لا مناهل جاق بمجرى برود كالرحيق مصطفى
انتقل بكم من شواطئ بردى الذي نكاد نسمع نجواه ورائحة مدرستنا الى
شواطئ الرافدين : دجلة والفرات ؛ تصوروا الامم التي طوتها هذه الانهر الثلاثة ،
تصوروا العبريات التي نبتت على ضفاف هذا الماء السادر في غلوائه ، الجامع
في خياله ، الذي ما انفك يستخر في ماضيه وحاضره وآتيه من كل جبار عنيد . مالنا
ولهذه الذكريات الاليمة ، استغفر الله . وهل الامم الا سلاسل ذكريات . هل كان
الحاضر الا ابن الماضي ، هل كان الا -تي الا نتيجة الحاضر ؟ انتقل بكم من منازل
العصابة الذين نادهم حسان في الزمان الاول بجلق ، من منازل ابناء جفنة على
بردى الى منازل النعمان على الفرات ، من متزهات الغوطة جنة الدنيا الى متزهات
الخورنق والسدبر .

اني لاجوز هذه الموضع كلها دون ان أقف بكم على موضع منها ما خلا

موضعاً طلع على الدنيا والناس من عشرة قرون ونيف برجل ملاً الدنيا وشغل الناس، وقيح بنا ان نفاق شيخنا ابا الطيب في ضجعته ونبعثه من مرقده من غير ان نطوف بالوطن الذي انبت امثال ابي الطيب، ولا مثيل له، ونعرف شيئاً من خصائص هذا الوطن، ~~ولم~~ ابن ارضه وسمائه وماهاته وهوائه يأخذ من تربته ويعطيها ونتائجها، يتوثر فيه كل ناحية من نواحي هذه التربة فلا يتخلص من عوامل طبيعتها ولا ينسليخ من عوامل السياسة والاجماع والتاريخ في ~~افاقها~~ على ان بعضهم لم يجعل للبيئة المقام الاول في نشوء العبريات ~~قال الاستاذ~~ برونو تير ~~لذ~~ لا تنسوا ان المرء وان كانت بيته توفر فيه فهو يستطيع ان يتخلص من آثارها وانه يستطيع ان يحرر ~~فما~~ في دصالحة وقد أجمع علماء الطبيعة على هذا الامر لا شك انهم لا ينكرون آثار البيئة ولكنهم بعيدون عن ان يجعلوا لها حتى في علم الحيوان المخل الذي جعله لها ~~تين~~ في مذهبها . . .

وسوء اتركت الكوفة في شعر ابي الطيب اثراً من آثارها ام لم ترك .
وسوء اكان هذا الاثر غامضاً ام كان واضحاً لا بد لنا من السياحة في الكوفة
اين هو هذا الوطن على التحقيق ، ~~غير ان~~ المتمنى ولد في الكوفة في محل يقال
لها كندة ، ولـ~~كنا~~ قليلاً ما نفهم بمعرفة موقع الكوفة وقليلاً ما نبالي بمعرفة طبيعتها
ولا نسأل هل تغنى المتمني بوطنه ، هل عق وطنه . وحسبنا ان نعلم ~~ان~~ الكوفة
مدينة من مدن العراق ، ~~قال~~ ياقوت في معجمه : الكوفة بالضم المصر
المشهور بارض ~~بابل~~ من سواد العراق لا شك في ان هذا التعريف
العام لا يزال مبهماً ، فهو لم يزدنا علماً بموقع الكوفة ، فلم يبين ياقوت اين
الكوفة من بغداد وain هي من دجلة او الفرات حتى انه اورد ابياتاً في
هجاء اهل الكوفة من جملتها بيت من الشعر اتحاشى عن ذكره في مثل هذا
المقام يدل هذا البيت على ان الكوفة قرية من دجلة وهذا خطأ لم يتبه عليه ياقوت .

قال صاحب كتاب بلاد العرب الاستاذ دی فرجر M. Noel des Vergers

مصر عمر البصرة على خليج فارس ، ومصر الكوفة على بحرة الرهيمة ^(١) فain الرهيمة ؟ يقول لنا الفيروزابادي في قاموسه المحيط : ورهيمة جهينة عين بين الشام والكوفة . وهذا التعريف لا يقل عموماً عن تعريف ياقوت للكوفة ، وردت الرهيمة في شعر المتبنّى معرفة بالـ . لما خرج ابو الطيب من مصر ورجع الى الكوفة وصف منازل طريقه فقال في جملة ما قال :

فيا لك ليلا على اعكش أجمم البلاد خفي الصُّوى
وردنا الرهيمة في جوزه وباقيه اكثراً مما مضى
فلا انخنا ركزنا الرماح بين مكارمنا والعلى

من هنا يستدل على ان الكوفة قرية من الرهيمة لأن الرهيمة آخر ما ذكر المتبنّى في قصيده من الموضع ، وقد ذكر عشرين موضعاً وبعد ان ورد الرهيمة قال : ركزنا الرماح اي بلغنا الكوفة .

فالكوفة على التحقق واقعة على الجانب الجنوبي من بغداد ، في الجانب الغربي من الفرات ، وبينها وبين بغداد مائة واربعون كيلومتراً ، وصفها عراقي لي فقال : فيها بساتين ولا تزال آثار مسجدها القديم قائمة .

ولئن طولت الكلام على موقع الكوفة فقد تعمدت هذا التطويل لتعريفوا قلة التوضيح وقلة التحقيق في كثير من كتبنا .

مامعني الكوفة . ويسمى اقوم مخد العذر او سماها عبدة بن الطبيب : كوفة الجندي فقال : انـ التي وضعت يبتنا مهاجرة بکوفة الجندي قد غالـت بهـا غولـ

قال ياقوت في معجمه :

قال ابو بكر محمد بن القاسم : سميت الكوفة لاستدارتها ، اخذ من قول

(١) قال ياقوت في معجمه : الرهيمة عين بعد خفية اذا اردت الشام من

الكوفة وبينها وبين خفية ثلاثة اميال وبعدها القطيفة مغرباً .

وعلى هذا الا يكون تعريف الاستاذ دـي فـرـجـرـ ، صـحـيـحاـ كلـ الصـحـيـحـ قدـ

يجوز ان تكون الكوفة قرية من الرهيمة ولكنها لم تـبـنـ على الرهيمة نفسها

العرب رأيت كوفانا : وكوفانا بضم الكاف وفتح الراء المستديرة ، وقيل :
السميت الكوفة كوفة لا جماع الناس من قولهم تکوف الرمل اذا ركب بعضه بعضًا ~~ويقال~~ : اخذت الكوفة من الكوفان ^{٢٠} . هم في كوفان اي في بلاد وشر ، وقيل : سميت كوفة لانها قطعة من البلاد . من قول العرب قد اعطيت فلان كيفة اي قطعتهم ~~ويقال~~ : كفت اكيف اكيف اذا قطعت فالكوفة قطعة من هذا ، انقلبت اليام فيها واوا لسكنها وانضمام ما قبلها . وقال قطرب : يقال القوم في كوفان اي في أمر يجمعهم . قال ابو القاسم : قد ذهب جماعة الى انها سميت كوفة بموضعها من الارض وذلك ان كل رملة يخالطها حصبة تسمى كوفة . وقال آخرون : سميت كوفة لان جبل ساتيدها محيط بها كالكاف عليها . وقال ابن الكلبي : سميت بجبل صغير في وسطها كان يقال له كوفان ، وعليه اختطف مهرة موضعها . وكان هذا الجبل مرتفعاً عليها فسميت به . فهذا في اشتقاقها كاف .

نعم هذا في اشتقاقها كاف . وهذا اكثـر من الكافي ، ثمانية اسباب في تسمية بلد ، يختار المرء في معرفة الاصلح منها ، فيخرج من حيرته هادي البال ، مطمئن الفكر بقوله : والله اعلم .

مالنا ولهذه الفوضى ، فلننظر الى أولية الكوفة في الاسلام ، فلنرجع الى اوائل الفتح الاسلامي ، فنلـرجع الى أيام عمر بن الخطاب ~~لهم~~ ان نجاوز هذا الزمن مخافة ~~ان~~ نضيع في مجاهل العصور .

بنيت الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب على مقربة من اطلال الحيرة ، منازل المناذرة والاكسرة قبل الاسلام . قال قوم : مصّرت الكوفة في السنة التي مصّرت فيها البصرة وهي سنة ١٧ و قال آخرون : مصّرت الكوفة بعد البصرة بستين ، و قالوا بسنة . والسبب في بنائها ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب (١) استعمل ابو الطيب المتنبي في شعره كوفان بدلاً من الكوفة فقال في مدح سيف الدولة :

ابن المعرف في نجد فوارسها بسيفه وله كوفان والحرم

كانت تفدع عليه وفود العرب بعد الفتوح والوانهم شاحنة، وسخناتهم متغيرة فكتب إلى سعد بن أبي وقلا^{١)} : ان العرب لا يصلحها من المدان الا ما أصلح الشاة والبعير، فلا تجعل بيني وبينهم بحراً . وعليك بالريف فوقع اختيار سعد على أرض يقال لها قبل الاسلام سوستان فبني فيها الكوفة؛ وكان اول ما خط فيها المسجد ودار الامارة لقد نزل الكوفة في أوائل الفتح الاسلامي جماعة من نزار واهل اليمن، اما أهل اليمن فكانت خططهم في الجانب الشرقي من البلد، وهو خير الجانبين، واما نزار فقد كانت خططهم في الجانب الغربي من وراء الغابات، اني الفتك من اليوم الى منازل أهل اليمن في الكوفة فسيمر بكم ان المتني ينتسب الى حي يمان فكان اهل اليمن الذين نزلوا الكوفة في اول امرها في الاسلام أحبوا ان يسموا محلتهم فها كندة احياء لذكر كندة ابي حي من اليمن، والمتنبي ولد في هذه المحلة حتى قال قوم بدئه الشعر بكندة، يعنون امراً القيس، وختم بكندة يعنون ابا الطيب.

هذا موقع الكوفة وهذه اوليتها، أفلأ يليق ان نسمع وصفها، ونعرف طبيعتها وللشاعر ارتباط بطبيعة وطنه، وصف الكوفة محمد بن عمير العطاردي ابى الملك ابن مروان فقال : الكوفة سفلت عن الشام ووباتها وارتقت عن البصرة وحرها فهي بريمة مربعة اذا اتنا الشمال ذهبنا مسيرة شهر على مثل رضاض الكافور وادا هبت الجنوب جاءتنا ريح السواد وورده وياسمينه واترنجه، ما وانا عذب وعيشنا خصب.

ووصفها الحجاج فقال: واما الكوفة فبكر عاطل عنطاء لا حل لها ولا زينة .
وكل علي اذا اشرف على الكوفة يقول : يا حبذا مقالنا بالكوفة — ارض سواه سهلة معروفة — تعرضا ج المطا العلوقة ^(١)

وكان زياد يصيف في الكوفة ويشتهر في البصرة .

والظاهر ان الكوفة صفت في بده امرها بصبغة دينية فكان سليمان الفارسي

(١) هكذا ورد الضمير في تعرضا ولعل الرواية الصحيحة تعرضا جمالنا العلوقة .

يقول : اهل الكوفة اهل الله ; وهي قبة الاسلام يحيى اليها كل مؤمن وكان على
يقول : الكوفة كنز الایمان وحجۃ الاسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث
شاء والذي نفسي بيده لينصرن الله باهلهما في شرق الارض وغربها كما انتصروا بالحجاج .
وقال سفيان بن عيينة : خذوا المناسب عن اهل مكة وخذوا القراءة عن
أهل المدينة وخذوا الحلال والحرام عن اهل الكوفة .

هذه صورة الكوفة التي عرضوها علينا ، ولكن سرعان ما عرکت بالنوازل
ورکبت بالزلزال كما قال علي ، ولقد أشبهه المتنبي امه الكوفة فذا ظلم فما كان الابن
النوازل ولا كان الا صنو الزلزال ، مارسته ومارسها ، وطاعتها وطاعتها فيها هو
ملها ولا هي ملته .

نعم هذا هو وصف الكوفة على قدر ما ثیسر / ولقد نشا في الكوفة من
الشعراء مطبع بن أبياس وحماد بحد وابو دلامة ودعبل الخزاعي وابو العناية
وغيرهم حتى قال بعضهم : الشعر ميراث في الكوفة ، ولما استفر على اهل الكوفة
لقتال اهل الشام ولم ينفروا معه خطب فيهم فقال : « اذا تركتم عدتم الى مجلسكم
حلقاً عزيزاً تضربون الامثال وتنادون الاشعار ، تربت ايديكم وقد نسيتم
الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها وشغلتموها بالباطيل
والا ضاليل » . فالظاهر ان الشعر كان يجد في خذ العذراء تربة صالحة وهو اه
صالحة حتى زعم حماد بن النعيمان بن المنذر امر فنسخت له اشعار العرب في
الكراريس ثم دفنتها في قصره الايض بالكوفة فلما وثب المختار بن اي عبيدة الثقيفي
بالكوفة سنة ٦٦ في سلطان ابن الزبير قيل له : ان تحت القصر كنزاً فاحتفرو
فاخرج تلك الاشعار قال : فمن ثم اهل الكوفة أعلم بالشعر من اهل البصرة .

وفي الكوفة نشاً أكبّر النحاة : معاذ الهراء والكسائي والقراءة وابن السكين
فكان الشذوذ من طبع الكوفيين .

وفي الكوفة نشاً أكبّر علماء اللغة والادب حماد الرواية والمفضل الضبي
وابي عمرو الشيباني وابن الاعرابي وابن قتيبة وفيها نشاً كثير من الحفاظ .

من كل ما تقدم يتبيّن لكم أن الكوفة مدينة الشعر ومدينة النحو والشذوذ ومدينة اللغة ومدينة الدين ، فقد ظهر فيها شيء من هذا كله وظهر على شيخنا أبي الطيب شيء من هذه إلا ثار بجمعها فالشعر من طبع المتنبي والشذوذ من سجنته ولغة مختصرة فيه إلا الدين فاني لا أجد في شعره نزعة إليه وإنما لما اتصل بسيف الدولة ووصف غزوته في بلاد الروم وردت في شعره أبيات قلائل فيها شيء من النزعة الإسلامية اقتضتها طبيعة الحرب بين الروم والمسلمين .

— ولست أعني بهذا ان الكوفة هي التي خلقت الشعر في طبع المتنبي او طبعته على الشذوذ ولو كان الامر كذلك لوجب ان يكون شعراً الكوفة كلام مثل المتنبي وإنما المتنبي مطبوع على الشعر ومطبوع على الشذوذ . وإذا كان للبيئة اثر في المرء فقد يجوز ان يكون للكوفة بعض الاثر في نمو هذا الطبع وليس في هذا شيء من المبالغة على ان هذا المقام إنما هو مقام الكلام على وصف الكوفة وطن أبي الطيب لا غير ، فلا أخرج عن هذا الكلام .

هذا آخر ما أحببت ان اذكره لكم مما يتعلق بالكوفة ، ولقد وددت لو ان لخدر العذراء أثراً في شعر المتنبي أبلغ من الاثر الذي وجدته فليتني لم اعرف الكوفة الامن شعر أبي الطيب . وإذا الشاعر لم يتغى بوطنه فمن الذي يتغى به ؟ ان النفوس لتحر كما حبة الالوان والاشكال أي أشكال هذا الوطن الکريم والوانه البراقة الوضاءة فتى استطعنا ان تتغى بعيالنا واوديتنا وبمر وجنا وسهولنا ومتى استطعنا ان تتغى بهذا النسيم العليل الذي نشقه آباءنا وأجدادنا ، وبهذا الماء العذب الذي وردوا عليه وصدروا عنه وبهذه الغرفة الغناء مجلى الطبيعة ، ومعنى الانس عرفنا حينئذ قيمة الوطنية النقية الماءلة التي لا تقوى على قتلها العصور والاحقاب فما تكر عليها الايام الا ازدادت رسوحاً في القلوب وتمكننا من الصدور .

ان شيخنا ابو الطيب لم يبر وطنه المبرة التي نريدها في هذا العصر فكان فكرة الوطن حديثة ؛ ولكنها غير حديثة الا ان شعراً نام لم يعالجوها في القديم معالجتنا لها في هذه الايام .

لم يترك المتنبي في شعره اثراً للكوفة .. ولكنك تجده تغنى ببعض منازل قرية من وطنه فتارة كنت أجده شديد الحنين إلى كندة محله بالكوفة حتى جعل هذه الحلة بمنزلة والدته فقال لعلي بن ابراهيم التنوخي :

أمنسي السكون وحضرموتاً . وللذي وكندة . والسيعا

وتارة كنت اجده لا يوحشه وطنه لذا شططت به الموى فهو أفق يضرب في البلاد مكتسباً فقد قال :

وَمَا بِلِ الْإِنْسَانَ غَيْرُ الْمَوْلُقِ وَلَا أَهْلُ الْأَدْنَوْنِ غَيْرُ الْأَصَادِقِ

نعم مررة كان يستوحش فيشتاق إلى وطنه . والى اهله من مصر :

بِمَا التَّعْلُلِ لَا أَهْلَ وَلَا وَطَنَ وَلَا نَدِيهِ لَا كَأسَ وَلَا سَكِينَ

آخر الى أهلي وأهوى لقاءهم . وain من المشتاق عنقاء . مغرب

ومرة كان يستغنى عن هذا الوطن فيطيب له المقام بكل ارض يأمل فيها ضيعة

او ولاية ، فقد قال لكافور في مصر :

إِذَا مُتَطَّبِّيْ حَسِيْعَةً أَوْ لَوْلَيْةً فِيْ جُودَكَ يَكْسُونِيْ وَشَغَلَكَ يَسْلِبِ

وقال له :

وَكُلَّ اَمْرِنِيْ يُولِيْ الْجَمِيلَ مُحَبِّ وَكُلَّ مَكَانٍ يَنْبِتُ العَزِيزِ طَيْبِ

والملاحة لم يتغرن ابو الطيب بالترية التي أنتبه ونالهوا الذي شمه وبالظلال

التي أظلته . و اذا حن في بعض الاحيان الى شيء من هذا كله . و ذكر بعض أماكن

قرية من وطنه اختصر الكلام ولم يطوله :

وَلِيلًا تُوسِّدُنَا الشَّوَّيْهَ تَحْسِهَ كَائِنٌ بِرَاهِمَا عَنْبَرَ فِي الْمَرَاقِبِ

بِلَادِ اِذَا زَارَ الْحَسَانَ بَغْرِنَهَا حَصَى تَرَبَّهَا ثَقَبَنَهَا الْمَخَانِقِ

وَالْثَّوَيْهَ مَوْضِعٌ عَلَى مَقْرَبَهِ مِنَ الْكَوْفَهِ (١)

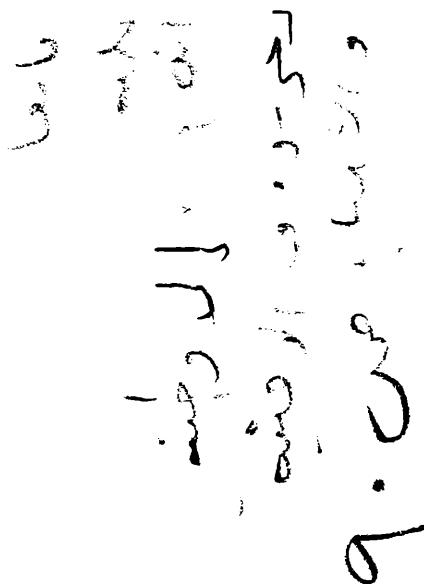
(١) قال ياقوت في معجمة : الثويه . موضع قريب من الكوفة ، وقيل بالكوفة ،

وقيل خربة الى جانب الحيرة على ساعة منها ذكر العلامة انها كانت سجناللعنوان .

وكم دون التوينة من حزين يقول له بقدوسي : إذا بذا كا
على ان المتبني كان جواب آفاق قد دحا الارض فلم تشتد الفته لوطنه .
كما في دحوت الارض من خبر في بها كان بنى الاسكندر السد من عزمي
فكان اذا نزل منزله وكرمه اهل هذا المنزل وبجلوه ، استطابه فلم يحن

الى ربعه $\frac{3}{4}$

١٨ كانون الثاني سنة ١٩٣٠



- بن للنذر كان يحبس بها من اراد قتله فكان يقال لمن حبس بها ثوى اي أقام
فسميـت الثـويـةـ بذلك ، وـقـالـ اـبـوـ حـيـانـ : دـفـنـ المـغـيرـةـ بنـ شـعـبةـ بالـسـكـوـفةـ بـمـوـضـعـ بـقـالـ
لـهـ الثـويـةـ ، وـهـنـاكـ دـفـنـ اـبـوـ مـوـسىـ الاـشـعـريـ فيـ سـنـةـ خـمـسـينـ
مـوـلـاـ مـلـاتـ زـيـادـ بـنـ اـبـيـ سـفـيـانـ دـفـنـ بـالـثـوـيـةـ

نسب المتنبي

٣

اتصاله بقبائل اليمن - تأثير الدم - فخره بقومه -

فهم الناس لشعره - أهله

ال Kovay

استوقفتكم وانا اطوف بكم في دخن العذراء، على الجانب الشرقي من هذا
البلد الطيب ، مهبط الشعر والعقبالية ، وذكرت لكم ان أهل اليمن الذين نزلوا
الكوفة في أول تصويرها كانت خططم ومنازلهم في هذا الجانب ، وهو خير
الجانبين ، والمتنبي ولد في كندة وهي محلة في الكوفة ، فكأن اليمنيين الذين استوطنوا
الكوفة ، احروا ان يحيوا فيها انتهاء بطونهم ، فسموا محلة كندة ، وكندة ابو حي
من اليمن ، وسموا محلة ثانية السبع ، والسبعين بن سبع ابو بطن من همدان ،
وهمدان قبيلة اليمن ، وقد جاء ذكر الحلتين في شعر ابي الطيب ، ورويت لكم
البيت الذي تضمنها :

(أمسى السكون وحضرموتا ووالدي وكندة والسبعين

فانتظر هل للمتنبي اتصال بهذه القبائل اليمنية وما هو نسب المتنبي .

لست ادرى كيف يؤلفون في مثل هذا العصر ، عصر التقسيب والاستقصاء كتباً
يبحث بحذا فيرة عن حياة المتنبي وخلقه وشعره واسلوبه ، من دون ان يتموا
بالبحث عن اصل المتنبي ، سواء كان هذا الاصل ظاهراً بعض الظهور او كان خفياً
بعض الخفاء ، لست ادرى كيف يفهمون كلام الذي يقول :

وقرادي من الملوك وان كان لساي يرى من الشعرا

من دون ان يعتنوا بالسؤال عن آباء الذي يحمل هذا الفؤاد ، فاذا خفي علينا

اصل المتنبي، خفي علينا ادراك روحه الذي يترافق في شعره ، واذا نحن لم نفهم
روح الشاعر فما الذي تفهمه من شعره .

اجمع الرواة على ان شيخنا ابا الطيب (ابنه) احمد ، وقد صرخ باسمه في شعره :

تحمل المسك عن غذائرها الريح وتفتر عن شنيب برود
جمعت بين جسم احمد والسمق وبين الجفون والتسهيد
وأجمعوا على ان اباه اسمه الحسين ، فالمتنبي احمد بن الحسين ، واكثراهم
اختلدوا في اسماء اجداده ، فقال بعضهم : هو احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد
الصمد ، وقال آخرون : هو احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار ، ولئن اضطربوا
في اسماء اجداده فقد اطبقوا على ان ابا المتنبي جعفي . قال صاحب طبقات الادباء :
وذكر القاضي ابو الحسن بن ام شبيان الهاشمي الكوفي ان عيدان كان جعفياً صحيح
النسب . وعيدان السقاء لقب والد المتنبي ، فقد هدا بالنا من ناحية نسب ايه
فلا نتظر اليه من ناحية نسب امه فلنستعن بطبقات الادباء فقد جاء فيه :

قال ابو الحسن وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا اشك فيها وكانت
جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات ، من هنا يتبيّن لكم ان والد المتنبي
جعفي وان جدته همدانية ، فانكشافت لنا ناحية من نسبة نستطيع الاستعانة بها
فللمتنبي اصل من الاصول فلأندقق هذا الاصل على قدر الامكان :

[قلت نزل الكوفة في اول امرها جماعة من أهل اليمن ومن هذه الجماعة
همدان ومذحج ، وبهمدان ومذحج استعان زيد وهو امير البصرة والكوفة على
القبض على حجر بن عدي صاحب فتنة الكوفة في ايامه وعلى شباب همدان
ومذحج في الكوفة كان يثنى زيد اذا علمت ان بين السنة التي مصّرت فيها
الكوفة وهي سنة ١٧ وبين السنة التي ولد فيها المتنبي وهي سنة ٣٠٣ ثلاثة قرون
على التقرير اذا احاطتم من جهة ثانية اسماء ثلاثة من اجداد المتنبي تحقق عندكم
ان اصل المتنبي من هذه القبائل الهاشمية التي رمت اظلاها على الكوفة في اول بنائهما ،
والد المتنبي جعفي وجدته همدانية فالمتنبي يماني الاصل من الناحيتين من

ناحية أية ومن ناحية امه وفي فضائل بيوتات اليمن يقول عبد الله بن عباس لبعض اليهانية لكم من السماء نجحها ومن الكعبة ركبتها ومن الشرف صبيحه .
فلتنظر الى المتنبي من ناحية ايهه . كان الحسين جعفياً صحيحاً النسب وجعفي على وزن درسي من بطون سعد العشيرة وانما سمي سعد العشيرة لانه لم يمت حتى ركب معه من ولده وولده ولله ثلاثة رجال سعد العشيرة من قبائل مذحج وبيان مذحج اقر ابو عبيدة فقال : ولسان العرب مذحج .

✗ وللناظر اليه من ناحية جدته . كانت جدته همدانية صحيحة النسب ، وبفروسية همدان اعترف ابن الكلبي فقال : وهدان احلاس وفي همدان الخيل يقول الشاعر
ناديت همدان والابواب مغافلة ومثل همدان سنتي فتحة الباب
كالهدواني لم تفلل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجاب
وفيهم يقول علي :

✗ فلو كنت بوابة على باب جنة لقات همدان ادخلوا سلاماً
ومن همدان اعشى همدان وهو شاعر كوفي من شعراء الدولة الاموية وكان النعسان بن بشير عامل حمص يقول فيه : هذا شاعر اليمن ولسانها . —
فالفروسية والصلاح من جلة اخلاق القبائل التي يننسب اليها المتنبي
والبيان في هذه القبائل .

اذا احطنا بهذا كله هان علينا ان نفهم كلام الذي يقول — وفؤادي من الملوك
فإن الذي يننسب الى قبائل فيها شيء لا بل اشياء من الفروسية والصلاح
وان الذي يننسب الى جدة صالحة موصوفة بالحزم لا يستغرب فخره ان فخر .
نعم اذا احطنا بهذا كله هان علينا ان ندرك روح المتنبي واسرار خلقه في
الآتي وليس من الضروري ان تكون جدة المتنبي صالحة او ان يكون جده او
خلله او عمه من الفرسان ، حتى يتوارث المتنبي عنهم الصفات وانما يكتفي
اما الطيب ان يكون احد اهل بيته في القديم قد جمع شيئاً من هذه الصفات حتى
ينتقل اليه هذا الشيء على سبيل الميراث فالمزم المتراث معاشر الصفات ومقابلاً بها

عن أهله في قريهم منه وبعدهم عنه فقد يتوارث عن أبيه أو خاله أو عمه وما ينبه وبين واحد منهم إلا قليل من الزمن وقد يتوارث عن أحد أقاربه في قديم الدهر مهما كان مدى الأيام بينه وبين هؤلاء الأقارب متراخياً، فالعرق نزاع  فرأيت مقالاً في مجلة بياريز لعالم من العلماء خلاصتها إننا لو حوتنا في هذه الأيام بلاد الترك بعد أن تغيرت سماتهم القديمة ومنعنا الأمم عن مخالطتهم وحصر الترك في بلادهم فلم يصهروا إلى أحد من غيرهم ولم يصهر غيرهم إلى أحد منهم ودام هذا الحصر الف سنة لرجمت هيآتهم بعد الف سنة إلى هيآت الترك القديمة المعروفة بلونهم الخاص وبتركيبهم الخاص وبصفاتهم الخاصة.

من هذا يسهل عليكم أن تعتقدوا أن المتنى انتقلت إليه صفاتهم التي سوف تكشف لكم في كلامي على أخلاقه من أحد أقاربه في الحديث أو في القديم ولا عجب في هذا مادام أبوه جعفيا وما دامت جرته هداية وفي جعفي وفي هداهان صفات تشبه صفات أبي الطيب.

للدم تأثير في العقارات واظن انكم لا تزالون تذكرون مذهب (تين) في النقد فقد أراد (تين) أن يجعل للجنس وللبية وللزمن تأثيراً في القرائح والامزجة فمن البشر على ما يقول من يجمع صفات الشجاعة والقطنة ومنهم من يعرف بالبلاهة وقصر المدارك ومنهم من يعلو في التصورات والمخترعات ومنهم من يسف ومنهم من يختص بطائفة من الاعمال وتفوى فيهم طائفة من الغرائز كما أن من الكلاب ما يصلح للعدو والركض ومنها ما يصلح للصيا و منها ما يصلح لحراسة الدور والمواشي وقد ذكرت لكم أن (تين) قد ادخل عناصر حديثة في دراسة الآثار الأدبية إلا أن مذهبة لا يخلو من شيء من الإفراط، وقد أشار الاستاذ (بروتير) في اثناء كلامه على هذا المذهب إلى ناحية الإفراط ففي نظر (تين) أن بعض أجناس البشر يصلحون شيء لا يصلح له أجناس غيرهم فقال (بروتير) لو صحي هذا النظر على الاطلاق لامتنع علم ما وراء الطبيعة في الشعوب السامية مثلاً لأن هذا العلم

مشهور في الشعوب الآرية في الهند وعلى الرغم من هذه الشهرة فقد كان أكابر عالم في علم ما وراء الطبيعة في العالم كله رجالاً ساماً من بلاد البرتغال وهو سينوزاً.

ولئن كان منهب (تين) فيه شيء من الافراط فهو لا يخلو من شيء من الحقائق . فان للدم تأثيراً في العبريات . فقد تشتهر أجناس من البشر بأمور لا يشتهرون بها غيرها . وقد تعرف قبائل بشيء لا يعرف بها غيرها . كانوا يقولون مثلاً : جرأة بني الحمرث . فتك مراد . باس زيد . كيد جعفي . مغار طيء إلى غير ذلك . وقد يتوارثوا آخر القبيلة المحسن والمساوي عن أولئك . فالمتنبي انتقلت إليه صفاتهم من أحد أقاربه في جعفي أو في همدان على سبيل الارث . ولا يمكن أن يجمع المتنبي صفاتهم المعروفة من دون أن تكون مجمعة في أحد أقاربه . من كل ما تقدم استخلص أن أبا الطيب وقد صح نسبة في جعفي وفي همدان ولد وفي طبعه بشيء متواتر عن أهله في هذين القبيلتين . فهو لم تحدثه نفسه بهذه الامانى البعيدة من دون أن يكون منتسباً إلى أهل قد حدثتهم أنفسهم بمثل هذه الامانى . وإذا لم نشا أن نفهم هذا كله فكأننا لا نشاً أن نفهم روح أبي الطيب .
 فالشيخ أبو الطيب يماني الأصل من ناحية أبيه ، ومن ناحية أمّه فهو عريق في يمانية . وفي عرويته وسانكلم في الأسبوع الآتي بكلام على تغنيه بعرويته . ومن الغريب أن المتقدمين من المؤلفين وفي جملتهم ابن خلkan وصاحب طبقات الأدباء والتعالبى وصاحب الصبح المتنبي اقتصرت في كلامهم على أبي الطيب على أن قالوا في أبيه أنه جعفي ، وفي جدته أنها همدانية من دون أن يبحثوا عن أسرار هذه الصفات التي اجتمعت فيه . ومنهم من لم يشر إلى أصله ، وأغرب من هذا كله أن صاحب كتاب أبي الطيب المتنبي الذي نشر كتابه في مصر من تسع سنين قد انبت أبا الطيب في أسوأ المناصب ، ورده إلى ارذل الأصول ، ولم يكتف بهذا كله فذهب مذهبًا بعد ، فقد ذهب إلى أن أبا الطيب نفسه كان يعترض في بعض شعره بوضاعة نسبة واحتطاط أصله ومن هذا الشعر قوله في رثاء جدته :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكان اباك الضخم كونك لي أما
فظن ان ابا الطيب ينفي عن جدته كرم والدها ، وعجب طراز هذا الفهم ،
فابو الطيب يقول لجده في هذا البيت : لو لم يأتوك الكرم من نواحي ايتك لاتاك
من ناحيتي ، فكأنه يقول : انت بنت اكرم والد ، وانت أم اكرم ولد ، فقد جمعت
ايتك الكرم من ناحية ايتك ومن ناحية ابنتك ، ولعمري كيف ينفي الكرم عن قومه
من يقول في القصيدة نفسها :

~~واني~~ ملـن قـوم كـان نـفوسـهم بـها أـنـفـاـنـتـسـكـنـالـلـحـمـوـالـعـظـمـ

فـاـذـاـكـانـالـقـوـمـالـذـيـنـ تـأـنـفـنـفـوـسـهـمـ انـتـسـكـنـالـلـحـمـوـالـعـظـمـ لـاـيـمـلـكـوـنـ

مـنـ كـرـمـ الـاعـرـاقـ شـيـئـاـ فـنـ الـذـيـ يـمـلـكـ هـذـاـ الـكـرـمـ ؟ـ أـفـيـمـلـكـ الـلاـصـقـوـنـ بـلـحـوـمـهـمـ

الـلـازـقـوـنـ بـعـظـامـهـمـ الـذـيـنـ لـمـ يـحـلـقـوـاـ فـيـ جـوـ اـعـلـىـ مـنـ جـوـ الـحـيـوانـيـةـ .ـ

وـكـاـ اـنـهـ أـسـاءـ إـلـىـ اـبـيـ الطـيـبـ فـيـ فـهـمـ هـذـاـ الـبـيـتـ قـدـ أـسـاءـ إـلـيـهـ فـيـ فـهـمـ اـيـاتـ

غـيـرـهـ مـنـ جـمـلـتـهـ قـوـلـهـ :

ولـسـتـ بـقـانـعـ مـنـ كـلـ فـضـلـ بـاـنـ أـعـزـىـ إـلـىـ جـدـ هـمـامـ

فـظـنـ اـنـ اـبـيـ الطـيـبـ يـنـفـيـ عـنـ جـدـهـ عـظـيمـ هـمـمـهـ وـالـمـتـبـيـ يـقـولـ وـلـاـيـحـتـاجـ قـوـلـهـ إـلـىـ

دـلـيـلـ :ـ لـسـتـ اـقـعـ مـنـ الـفـضـلـ بـاـنـ اـكـوـنـ مـذـسـوـبـاـإـلـىـ جـدـ عـظـيمـ الـهـمـةـ وـاـنـمـاـ أـمـنـيـتـيـ

اـنـ اـجـمـعـ شـيـئـاـ مـنـ الـفـضـلـ بـنـفـسـيـ فـابـوـ الطـيـبـ يـعـتـقـدـ اـنـ فـاضـلـ وـابـنـ فـاضـلـ .ـ

مـنـ جـمـلـةـ هـذـهـ الـاـيـاتـ الـتـيـ سـاءـ فـهـمـهـ طـاـقـوـلـهـ :

فـخـرـ الـفـتـىـ بـالـنـفـسـ وـالـأـفـعـالـ مـنـ قـبـلـهـ بـالـعـمـ وـالـأـخـرـالـ

اوـ قـوـلـهـ لـبـاحـثـ عـنـهـ :

اـنـاـ اـبـنـ مـنـ بـعـضـهـ يـفـوقـ اـبـاـ الـبـاحـثـ وـالـنـجـلـ بـعـضـ مـنـ نـجـلهـ

اـنـماـ يـذـكـرـ الـجـدـوـدـ لـهـ مـنـ نـفـرـوـهـ وـانـقـدـوـاـ حـيلـهـ

فـلـاـ يـسـتـبـطـ مـنـ هـذـاـ اـنـ الـمـتـبـيـ لـاـ يـفـخـرـ بـعـمـوـتـهـ وـخـرـوـلـهـ وـاـنـمـاـ الـمـتـبـيـ

يـرـجـعـ فـيـ هـذـهـ الـاـيـاتـ إـلـىـ شـانـشـنـتـهـ ،ـ فـهـوـ يـرـىـ اـنـ الـفـخـرـ بـالـنـفـسـ وـبـالـفـعـلـ اـعـظـمـ مـنـ

الـفـخـرـ بـالـعـمـ وـبـالـخـالـ وـهـذـاـ لـاـ يـنـفـيـ عـنـ اـبـيـ الطـيـبـ فـخـرـهـ بـالـعـمـوـمـهـ وـالـخـرـوـلـهـ وـاـنـمـاـ

المتنبي ي يريد ان يجمع الى تالد الفخر طريفه وهذا أبعد مجالات الهمة .
ولما قال :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسى فخرت لا بجدودي
و بهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجانى وغوث الطريد
ما قال هذا ظنوا انه يعتقد ان قومه لا شرف لهم وانما الذي عنده بقوله هذا
ان قومه شرفاء وانهم فخر العرب كلها ولكنكه اشرف من قومه .

ما رميت في كلامي هذا الى الدفاع عن منبت المتنبي وعن اخلاقه وانما اردت
ان انبه على خطأ وقعوا فيه مما يتعلق بهم شعر المتنبي وما اظن انهم انتوا ابا الطيب
هذا المنبت الا لأن والده كان سقاء في الكوفة حتى قالوا :

اي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بـ ~~بكرة~~ وعشيا
عاشر حيناً يبيع في ~~الكوفة~~ الماء وحينما يبيع ماه الحبـا
فلو كان الحسين الجعفي من اصحاب النعم أفكـان الناس ينظرون الى المتنبي
وابوه غني نظرـهم اليه وابوه سقاء ، فلـمال وحده هو الذي حرـف الانـظـار ، ومتى
كان المـال مـقياس الـاصـول وـكرـم الـاعـراق ، أـفـلا نـجـدـ فيـ أيـامـناـ منـ اـبـانـاءـ سـلاـطـينـ
آل عـمـانـ وـمـنـ حـاشـيـةـ قـيـاصـرـةـ الـرـوـسـ الـذـيـنـ شـتـتـ السـيـاسـاتـ شـلـهـمـ فيـ الـبـلـادـ منـ
يـشـتـغلـ باـحـقـرـ الصـنـاعـاتـ حتـىـ لاـ يـمـوتـ منـ الجـوعـ ، أـفـلاـ نـجـدـ منـ أـصـاحـبـ النـعـمـ
رـجـالـاـ لـأـعـلـمـ إـلـاـ اللـهـ مـقـادـيرـ أـخـلـاقـهـمـ الـفـاسـدـةـ ، إـنـاـ لـاـ أـرـيدـ إـنـ أـقـولـ إـنـ المـتـنـبـيـ نـشـأـ
الـمـلـكـ فيـ بـيـتهـ قـدـيـماـ وـلـكـنـيـ لـاـ اـعـتـقـدـ إـنـ وـضـيـعـ وـلـاـ أـرـيدـ إـنـ أـعـتـقـدـ إـنـ كـانـ
يـعـتـرـفـ بـوـضـاعـتـهـ .

اما وقد فرغت من الكلام على أبي الطيب . فلننظر الى أهله في عصره
و ايامه فقد أشار في شعره الى امه والى جدته .

اما جدته فقد كان غالباً عنها في أقطار الشام ، وطالت غيابـهـ هذهـ ، وـقدـ
أـرـسـلـتـ إـلـيـهـ كـتـابـاـ تـشـكـوـ فـيهـ شـوـقـهـ إـلـيـهـ وـطـولـ غـيـبـتـهـ عنـهـ . فـتـوجـهـ نـحـوـ العـراـقـ
وـلـمـ يـمـكـنـهـ دـخـولـ الـكـوـفـةـ عـلـىـ حـالـتـهـ تـلـكـ ، فـانـجـدـرـ إـلـىـ بـغـدـادـ وـكـانـ جـدـتـهـ قدـ يـلـتـستـ

ـ منه ، فكتب اليها كتاباً يسألها ان تسير اليه فقبلت كتابه وحتمت لوقتها سروراً
ـ به وغلب الفرح على قلبها فقتلها فرثاها بقصيدة ملاها من رقة العاطفة وصدقها
ـ سأـ تكلم عليها في أثناء كلامي على شعره وفي هذه القصيدة أبيات تدل على شدة محنة
ـ جدته إياها . وعلى شدة محنتها إياها فمن قوله في حبها آيات :

ـ لك الله من مفجوعة بجيها قتيلة شوق غير ملحقها وصها

ـ ومن قوله في حبه إياها :

ـ أحن الى الكأس التي شربت بها وأهوى لثواها التراب وماضيا
ـ ولا يبعد ان جدته كانت تقرأ فكانت تعجب من خط كتابه اليها ومن لفظه :

ـ تعجب من خططي ولفظي كأننا ترى بروفة السطار أغربة عصها

ـ وتلشمـه حتى أصار مداده محاجر عينيها وانيابها سجها

ـ وقد وصفها بالحزن فقال :

ـ فواأسفا الاكب قبلـا لرأـسك والصدر الذي ملـنا حزـما

ـ وانـي اعتقد انـا الطـيب قد توـارث عنـ جـدـته هـذه بعضـ صـفاتـها وـمنـ جـملـتها
ـ هذاـ الحـزم .

ـ واماـ اـمهـ فـلـماـ اـعـتـقـلـ وـطـالـ اـعـتـقـالـهـ كـتـبـ الىـ الـوـالـيـ أـيـاتـاـ أـشـارـفـيـهاـ اليـهاـ :

ـ } يـديـ أـيـهاـ الـامـيرـ الـاريـبـ لاـ لـشـيءـ الاـ لـانـيـ غـرـيبـ

ـ } اوـ لـامـ لهاـ اذاـ ذـكـرـتـيـ دـمـ قـلـبـ فيـ دـمـعـ عـينـ يـذـوبـ

ـ وفيـ هـذـاـ الـبـيـتـ عـاطـفـةـ الـأـمـوـمـةـ وـالـبـنـوـةـ وـلـمـ كـانـ فـيـ اـرـجـانـ عـنـ اـبـنـ العـمـيدـ عـملـ
ـ شـعـرـآـ فـيـ اـبـنـ العـمـيدـ قـالـ لهـ فـيـ جـملـهـ :

ـ ياـ ليـتـ باـكـيـةـ شـجـانـيـ دـمـعـهاـ نـظـرـتـ الـيـكـ كـاـنـ نـظـرـتـ فـتـعـذرـاـ

ـ وـلـكـسـتاـ لـانـعـرـفـ هـذـهـ الـبـاـكـيـةـ الـيـ بـكـتـ عـلـىـ فـرـاقـ اـبـيـ الطـيـبـ وـأـحـزـنـهـ دـمـعـهاـ .

ـ } وـكـانـ لـهـ وـلـدـ اـسـمـهـ مـحـسـدـ صـحبـهـ الـىـ بـلـادـ فـارـسـ وـيـظـهـ اـنـ مـحـسـداـ كانـ شـاعـراـ

ـ نـقـلـ صـاحـبـ الصـبـحـ الـمـنـيـهـ عـنـ يـاقـوتـ اـنـ المـنـبـيـ كـانـ جـالـساـ بـوـاسـطـ فـدـخلـ
ـ عـلـيـهـ رـجـلـ وـقـالـ :ـ نـرـيدـ اـنـ تـجـيزـ لـنـاـ قـولـ الشـاعـرـ :

زارنا في الظلام يطلب سترنا فاقتضينا نوره في الظلام
فرفع ابو الطيب رأسه وكان محسد واقفاً بين يديه وقال :
يا محسد قد جاءك بالشمال فاًته باليمين فقال محسد ارجحالا :
فالتجأنا الى حنادس شعر سترتنا عن أعين اللوام
وقد قرأ الشیخ البازجی انه وجدت له في احدى نسخ الديوان ایات بعد
فراوه من مصر يظهر فيها شوقة الى ابنه محمد والی شیخ يقال له الحسین ، من
هذه الایات :

لولا محمد بل لولا الحسین لما رأیت رأیي بوهن العزم مختلطًا
هذا هو اي وذابني خط مسكن ذا بمصر والشام القى دائمًا خططا
والایات كلها ثمانية وفيها اشارة الى هرب ابی الطیب من مصر ولكنها لا
تخلو من تحریف اذا صحت أما محمد الوارد اسمه فيها فقد يجوز ان يكون حرفاً
عن محسد واما الحسین فقد يجوز ان يكون شيئاً له وعلى كل الروایة غامضة .
هذا كل ما حققته من نسب المتنی ومن اهله في عصره وایامه ، واما ما
يتعلق بزوجته وبقيقة اهله فهو خاف علينا . وقد وردت في شعره ایات تدل
على اهتمامه باهله وعطفه على عياله وقلقه اليهم اذا بعثت الدار وشط المزار ،
من هذه الایات ما جاء في احدى امدادیجه في سيف الدولة :

ان الذي خلفت خلني ضائع مالي على قلقي اليه خيار
و اذا صحبت فكل ما شرب لولا العيال وكل ارض دار
إذنُ الأمير بأن اعود اليهم صلة تسير بذكرها الاشعار

٢٥ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

عِرْوَبَتُ الْمُتَنَبِّي

الفتى العربي

٤

حرص العرب على قوميتهم - اختلاط العرب بالاجم -

تشتت العرب

ـ تغنى الشعراء بالقومية العربية ،

أرأيتم كف كان اليهاليون وهم في أرض غير أرضهم ، وتحت سماء غير سمائهم يلهجون بذكر بطونهم واحيائهم ، وقد تقاذفت بهم وهاد وتلاع ، وشطرت بهم غربة نازحة ، أرأيتم كيف كانوا يخزنون الى قبليهم وعشيرهم ، فما يسمون منازلهم في خد العذراء الا كندة والا السبيع ؟ أرأيتم كيف كان اهل البدو يعتضمون بالعروة الوثقى من قوميتهم وتطرب السنتهم بذكر يانهم ، وهل القومية الا الحرص على الذكريات ، هل القومية الا التغنى باصحاب هذه الذكريات . قال المؤرخ الايطالي (فورو Ferrero) اصبح احتفال الامم بعد تعاقب مائة عام على وفاة الفضلاء من رجالها عقيدة قومية في كل الامصار ، وهذا مما جاء به القرن التاسع عشر .

و الى هذا رمى « اوغوست كونت » لما اراد ان يجعل عبادة عظام الرجال بمنزلة عقيدة من عقائد البشر .

فالمعتقد الذي يذهب اليه الافرنجة في عصرنا هذا ذهب اليه العرب في قديم الدهر ولئن ملأن ملأن مذهب القوميات القرن التاسع عشر على ما قال الاستاذ « سورل » فإن هذا المذهب قد ملا « تاريخ العرب من قبل ان يخلق القرن التاسع عشر .

لقد كان العرب يحرصون على قوميتهم و هل القومية الا اتصال رجال الأمة بعضهم ببعض ، امواتهم باهياتهم ، و حاضرهم بعابرهم ولم لا يحرصون هذا الحرص وقد كانوا أمة على معنى المصطلح الاجتماعي في عصرنا هذا ، ينتسبون الى اصل واحد وقد تقارب اخلاقهم وطبيعتهم ، وتشابهت هياياتهم وسخناتهم ، وتماثل تاريخهم و سياساتهم ، وجمعتهم ارض واحدة ، واظلتهم ساء و احده ، و هل الامة الا واحدة في جنسها و بيتهما و لغتها و دينها و حكمتها وارضها ، على اننا نرى في ايامنا اماماً من اجناس مختلفين ، يتكلمون بلغات مختلفة ويدخلون في اديان مختلفة ؛ اننا نرى شعوب يحملونهم نظام قومي محكم وهم مبعثرون في نواحي العالم كله . كالبيهود مثلاً ، اننا نرى شعوباً يتكلمون بلغة واحدة ولا ينتسبون الى امة واحدة كالانكليز و اميركان الشمال ، وسكنان اسبانية وجمهوريات اميركة الجنوبيّة ، وسكنان البرتغال والبرازيل ، وسكنان فرانسية وبلجيكية الشرقية ، وسكنان المانية وسويسرة الشرقية ، اننا نرى اماماً من اجناس مختلفين ؛ كالروس ، او كاهل الولايات المتحدة ، حيث نشاهد الايض والاسود والاحمر . اننا نرى اماماً فيها مذاهب شتى واديان متباينة »

عاملان من العوامل ينشئان الامة : اشتراك الامة في ميراث ملآن من الذكريات واجتماع كلية هذه الامة على احياء ميراثها المشترك ، فالعرب في قديم الدهر قد تناولت ميراثاً خصياً بذكرياته وتضافرت على احياء هذا الميراث فعاشت به زمناً رغداً يتغنى العربي بعروبيته . ويفخر بقوميته ، فهو صاحب الامر النافذ في دياره يتصرف في ملكه لا يشاركه رومي او تركي او فارسي او ديلي في سلطانه ، العربية لسانه والعالم تيجانه والشرفية سيفه والخطية رمحه ، نعم عاش العرب في صدر الاسلام بهذا الميراث الحصيف :

« يتبحثون على شباب الدهر في ظل السرير »

ولكن سرعان ما حالت احوال وحدثت حوادث وما هو الا كرد الفاس اذا

(١) دائرة المعارف الفرنسية : بحث القوميات .

القيسية واليمانية ، واذا الفتن والشغاف ، واذا الفرس والترك والديلم واذا النطاول
لانتزاع الملك والسلطان ، واذا الفرقه بعد الالفه . واذ الطولونية والاخشيدية
والجمدانة والفاطمية والسلجوقية ، ذهبت وحدة العرب أو كادت ، وطاعت
الشعوبية في البلاد فلا عز ولا منعة ولا حكمة السن ولا شدة عقول :
فلست بتارك إيوان كسرى لتوضح او لحومل فالدخول
وضب في الفلاساع وذئب بها يعوي وليث وسط غيل
هذه هي نغات الشعوبية بعد ان كان السلطان عريياً وللسان مضرياً . والوشي
يعانياً ، ازدحم الاعاجم في البلاد وأخذ عمال الخلافة العباسية ينفصلون عن بغداد
وينفردون بامور الملك والسلطان ، قال غاستاف لو بون :

« من جملة الاسباب في ضعف العرب اختلاف الامم الذين خضعوا للسلطانهم
فقد أدى هذا الاختلاف الى تمازج شعوب لا يشبه بعضهم ببعضه والى تنازع
هذه الشعوب ونشاء عن هذا كله تزاوج عناصر متباعدة ، فاولد هذا التزاوج دم
الفاتحين من العرب ، لقد كان تمازج الشعوب المتباعدة في بلاد واحدة سبباً في
انقراض هذه البلاد في كل عصر من العصور واثبت التاريخ ان لا سبيل الى ابقاء
اجناس مختلفين في قبضة واحدة الا بامرین ، اما ان يشتد سلطان الفاتحين فلا تخرج
الخوارج عليهم وأما ان لا يتزوج الغالب الى نساء المغلوب اي ان لا يندمج الغالب
في المغلوب وهذا الامر الثاني لم يحدره العرب » .

نعم لم يحدر العرب هذه الامور كلها حتى اخطلوا بالاعاجم فتفرق كلهم
العرب وضعف تغنى القوم بعروبيتهم .

فلننظر في هذه الحالة الالية هل حافظ المتبني على عروبيته ، افكان يضطر
في هذه العروبية اضطرابه في حنيته الى وطنه ، افكان يتغنى بها مرة ، ويعقها مررت
كما كان يحن حيناً الى كنده ، وحياناً يرى ان كل مكان ينبع العز طيب ، فلننظر
هل اشتدت ألفة المتبني ليمانيته وعروبيته في جم اطوار حياته .

لأن كان أبو الطيب قلقاً في تغنيه بترتبه كريشه في مهب الريح ، لأن عطف

حينما على وطنه وعقه حيناً آخر ، فما كان فلماً في تغنيه بعروبيته ، لم يعشها في يوم من أيامه ولا حمته نفسه بالانسلاخ عنها في حال من أحواله ، ولكن لم تشتت الفة أبي الطيب لترتبه فقد اشتدت الفتة ليمانيته وعروبيته وهذه العروبة مزوجة بنفسه موصولة بروحه من أول حياته إلى آخرها .

المتنبي عريق في يمانيته ، شديد الحرص عليها وهل هو الا من جعفي وهدان وكأي به وهو يقول في صباحه على لسان بعض التنوخيين :

﴿ وَمُجْرِي يَدِ بْنِ خَنْدَفَ عَلَى أَكْلِ كَرِيمِ يَمَانِ ﴾

ـ كأني بيりد نفسه بهذه المانية ولكن أبا الطيب لم يقع في عقر يمانيته فقد طار في فضاء أوسع وحلق في سماء أمد ، فانسلخ عن المانية واندمج في العروبية باخر بكل شيء عربي يفاخر بالسان العرب وبتيجان العرب وبسيوف العرب وسواء أكان ابو الطيب رقيق الحال ام كان واسع النعمة وسواء اكان في ابلاد العرب ام كان في بلاد العجم انه حافظ على هذا الدم العربي وتعلق به اداب هذه القومية العربية فلم يرض بغيرها ديناً ولم يتبع عنها حولاً .

وما قولكم في شاعر يمر بشعب بوان بأرض فارس وهو أحد متزهات الدنيا مشهور بحسنه وكثرة شجره وتدفق أمواهه وكثرة انواع طيره .

اذا أشرف المحزون من رأس تلعة على شعب بوان استراح من الكرب
تغنى به الكتاب والشعراء فوصلوا فيه جداً ماء أرق من دموع العشاق
وابرد من ثبور الاحباب ، ووصفوا تررق آذيها وتدفق تيارها وتكسر حباتها
في خلال زهر ورياض ، ووصفوا ظلها الخضل الالمي ، ما قولكم في شاعر يصف
هذا المترفة ويقول فيه :

ملعب جنة لو سار فيها	سلیمان لسار بترجمان
طبت فرسانا والخيل حتى	خشيت وانكر من من الحران
غدونا تنفس الأغصان فيها	على اعراضها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الحر عن	وچئ من الضباء بما كفاني

والقى الشرق منها في ثيابي دنانيرأً تفر من البنان
 لها ثمر تشير اليه منه باشربة وقفن بلا أوان
 وأمواه تصل بها حصاها صليل الحلي في ايدي الغواي
 ما قولكم في شاعر يرى هذه العجائب والغرائب فلم تستول على قلبه ولم
 تأخذ من نفسه لانه تذكر وهو في شعب بوان انه عربي بين عجم فتأوه وقال :
 ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان ✕
 وما هذا الفتى العربي الا أبو الطيب نفسه .
 وحن الى منازل دمشق العربية وقال :

منازل لم يزل منها خيال يشيعني الى النوبنذجان
 اذا غنى الخامن الورق فيها اجابت اغاني القیان
 ومن بالشعب أحوج من حمام اذا غنى وناح الى البيان

* * *

من هذا يتبين لكم مقدار احتفاظ المتنبي بعروبيته وهو في آخر مدی حياته قد وقف على الحسينين أو جاؤ زها ولم يكتف بهذا المقدار فذهب في هذه النزعة القومية مذهبأً أبعد ، فهو لا يريد أن يرى الا ملكاً عربياً ، ولا يعتقد ان العرب تتبرج اذا كانت ملوكها من العجم لأن العجم ينقضون العهود ولا يخافرون الدعم
 وإنما الناس بالملوک وما تفلح عرب ملوكها عجم
 لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
 بكل أرض وطشتها أمم ترعى بعد كأنهما غنم
 يستخفشن الخز حين يلمسه وكان يرى بظفره القلم
 وما هؤلاء العبيد الا عبيد الخلفاء من الاتراك الذين يأمرؤن على الناس ،
 فالمتنبي يرى بين قومه وبين الاعاجم من ترامي المسافات مالا يمكن تقريريه فهم
 متباهيون في اللغة والذكريات فليس لهم ماض مشترك يؤلف بين قلوبهم . ليس
 لهم ذكريات واحدة . وأدب واحد . وأخلاق واحدة . وترابة واحدة . فالتنافر

مستحكم بينهم من كل النواحي . -

فالمتنبي عربي في سلطانه . وقد حملته عرويته هذه في بعض الاحابين على
إيلام الأعاجم فانه لما قدم من الرملة يريد انطاكيه من بابن كيغلغ وهو رجل
روماني كان يحافظ على الطريق في طرابلس). فسألها هذا الرومي أن يمدحه فترفع
أبو الطيب عن مدحه . فاعتاقه ابن كيغلغ عن سفره ثلاثة أيام . فلما فارقه المتنبي
قال فيه تصييده المشهورة : لهو النقوس سربرة لا تعلم . من جملتها هذا البيت :

أفعال من تلد الكرام كريمة وفعال من تلد الأعاجم أبعم

أنظروا كيف كان أبو الطيب يتجرد للهراوة دون حياض العرب . فقد كان
يماهر بكل شيء عربي . يماهر بلسان العرب ويتيجان العرب وبسيوف العرب . وصحبه
هذه العاطفة الشريفة حتى آخر نفس من أنفاسه الذكية . لم يمدح ابن العميد في أرض
فارس وهذا بالذيروز مدح فيه عروبة الإنسان قبل كل شيء فقال :

عربي لسانه فلسي فرأيه فارسية اعياده

ولما انصرف سيف الدولة من الظفر بمحصن بربوبيه وعاد إلى انطاكيه جلس في
فازة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان . افتقظون
أن أبي الطيب فضل تيجان الروم على عمائم العرب كلام كلام . فقد قال لسيف الدولة
وفي صورة الرومي ذي الناج ذلة لابلح لا تيجان الا عمائمه
تقبيل افواه الملوك بساطه ويذكر عنها كمه وبراجمه
نعم كان يفاخر بكل شيء عربي (انظروا إلى مفاخرته بسيوف العرب قال يمدح
سيف الدولة ويدرك بناءه مرعش :

تهاب سيف الهند وهي حدائق فكيف اذا كانت نزارية عربا

* * *

وكان هذه النزعة القومية كانت نزعة طائفية من شعراء تلك الأيام على ان
الحرب التي كانت تدور بين المسلمين والروم قد صبغت بصبغة دينية فكان ملك الروم
اذا غزا بلاد المسلمين يجهز رجاله بالصلب الأحمر وقد كان شعراء العرب يومئذ

يذهبون في شعرهم بعض مذاهب اسلامية بجراة لطبيعة الحرب بين الروم والمسلمين
قال أبو الطيب سيف الدولة

خضعت لمنصلك المناصل عنوة وأذل دينك اثر الاديان
ولكنهم مع هذا كله قد خرجو من أفق الدين الى أفق أوسع وأعم ، فلم
يقتصر ابو الطيب في مدائحه في سيف الدولة على الاشارة الى نصرة الاسلام في حرب
الروم ولكنه كان يرمي عرياناً بعد افقاً فمن قوله في سيف الدولة :
رفعت بك العرب العياد وصيرت قم الملوك موافق النيران
أنساب فخرهم اليك وانما انساب أصلهم الى عدنان
فقال : رفعت بك العرب ولم يقل رفع بك الدين .

نعم كانت هذه اللهجـة لهـجة كثـير من شـعراـء تـلـك الـاـيـام ، لما بـني سـيف الدـوـلة
قلـعة الحـدـث وـتـدـجـع اـمـكـالـالـرـومـأـكـابـرـهـمـهـ وـجـزـهـمـ بالـصـابـبـ الـاحـمـ هـنـاءـ
كـثـيرـ منـ الشـعـراـءـ مـنـ جـاتـهمـ الـمـسـرـيـ الذـيـ قـالـ فـيـ بنـاءـ الحـدـثـ :

رفـعـتـ بـالـحـدـثـ الـحـصـنـ الذـيـ خـفـضـتـ مـنـ الـحـوـادـثـ حـتـىـ ذـلـ صـاحـبـهـ
أـعـدـتـهـ عـدـوـيـاـ فـيـ مـنـاسـبـهـ مـنـ بـعـدـ ماـ كـانـ روـمـياـ مـنـاسـبـهـ
وـكـتـبـ اـبـوـ فـرـامـ اـلـىـ سـيفـ الدـوـلةـ وـهـوـ فـيـ اـسـرـ اـيـاتـاـ مـنـ جـمـلـتـهـ :

وانـكـ لـيـ الجـبـلـ المـشـمـخـ بـلـ لـقـوـمـكـ بـلـ لـلـعـربـ

وـمـنـ قـوـلـ أـبـيـ نـصـرـ بـنـ بـنـاتـهـ فـيـ سـيفـ الدـوـلةـ :

حـاشـاكـ اـنـ يـدـعـيـكـ الـعـربـ وـاـحـدـهـ يـاـ مـنـ ثـرـىـ قـدـمـيـهـ طـيـنـةـ الـعـربـ
وـمـاـ اـكـرـمـ هـذـهـ الصـرـخـةـ التـيـ صـرـخـهـ اـبـوـ فـرـاسـ عـلـىـ لـسـانـ نـسـاءـ بـنـيـ كـلـابـ
وـذـكـ اـنـ سـيفـ الدـوـلةـ اـصـطـنـعـ بـنـيـ كـلـابـ وـأـدـنـاهـ وـآمـنـ سـرـبـهـ فـقـهـرـوـاـ الـعـربـ
وـعـلـتـ كـلـمـتـهـمـ اـلـىـ اـنـ بـدـتـ مـنـهـمـ هـفـوـةـ اـحـفـظـتـ سـيفـ الدـوـلةـ فـاـسـرـىـ يـهـمـ
وـأـقـعـ بـهـمـ وـمـلـكـ حـرـمـهـ وـاـمـرـالـهـ ثـمـ صـفـحـ عـنـهـمـ وـكـرـمـ وـجـمـعـ الـحـرـمـ وـوـكـلـ
بـهـنـ الخـدـمـ وـحـلـهـنـ وـافـضـلـ عـلـيـهـنـ وـاحـسـنـ الـيـهـنـ فـكـتـبـ اـلـيـهـ اـبـوـ فـرـاسـ فـيـ تـلـكـ الـحـالـ
قصـيـدةـ يـقـولـ فـيـهاـ :

ينادين بين خلال البيوت لا يقطع الله أصل العرب
وفي هذه الواقعة يقول أبو الطيب :

فنه جلود قيس والثياب
وتحت ربابه نبتو واثوا وفي أيامه كثروا وطابوا
وتحت لوائه ضربوا الأعادي وذل لهم من العرب الصعب

* * *

هكذا كان تغنى الشعراء بالقومية حتى أن أبا تمام لما قال قصيدة الخالدة في مدح المعتصم وذكر فتح عمورية نزع في شعره نزعة اسلامية ولكنه لم يسعه في آخر القصيدة الا التغنى بالعروبية فقال :

موصولة أو زمام غير منقضب
ان كان بين صروف الدهر من رحم وبين أيامك اللائي نصرت بها
أبقيت بنى الأصفهان كاسهم صفر الوجوه وجافت أوجه العرب
فأتمت تجدون في هذا كله ان كلية العرب كانت تجري على ألسن الشعراء في ذلك العصر حتى في المخروب الدينية وفي هذا اشارة الى نزعة قومية لا يخفى أمرها.

* * *

هذا ما عنَّ لي من الكلام على عروبية المتنبي، ولم لا يغنى أبو الطيب بعروبيته ، وقد جاءته هذه العروبية من ناحية أبيه ومن ناحية أمِه فاخترمت في صدره فلم تفارقه في طور من أطوار حياته ، وإذا كان شاعر مثل المتنبي لم ينزع في شعره نزعة قومية فمن الذي يذهب لهذا المذهب ، فاللسان العربي الذي هج أبو الطيب بمحبته عامل من أقوى عوامل القومية . ولأنَّ وجدنا شعوبَاً يتكلمون بلغات واحدة ولا ينتسبون إلى أمة واحدة فلا يستنبط من هذا ان اللغة الواحدة لا تكون عنصراً من عناصر القومية فاللغة إنما هي أشد الاواصر بين حاضر الأمة و الماضيها ، وبين أحياها وموتها . فيها كل شيء يربطنا بالماضي ، فيها افراح العرب وألامهم وفيها أفكارهم وعواطفهم ، إنها تضمنت هيراثنا الادبي

الذي تعب آباؤنا وأجدادنا في سهل جوانبه وتهذيب حواشيه ولا تكون
الامة أمة على مصطلح هذا العصر الا اذا اضافت رجالها على الاعتناء بهذا الميراث
هذا ما رمى اليه ابو الطيب في الماضي وهذا ما نرمي اليه في الحاضر والآتي

١ شباط سنة ١٩٣٠

هل كان المتبنّى شعوبياً

٥

نفيهم عنه التعصب لوطنه - نفيهم عنه التعصب لقومه
«نقد الشاعر من ناحية واحدة»

هياًت الكلام على ابتداء أمر المتبني، وعلى أول ترثيته وثقافته ، وعلى رقة حاله جملة أخباره، ووصف طبائعه وأعددته لأحاضر بـه في هذا اليوم الا ان المقام اقتضى أن أعود على ما بدأت به من الكلام على تعصب المتبني للعرب والعروبية، وعلى حزنه الى وطنه واضطرابه في هذا الحين لاني وجدت بعض المؤلفين في هذا العصر من عملوا كتاباً على حدة في أبي الطيب المتبني ينفون عن أبي الطيب تعصبه لقومه ، وتعصبه لبلد ، ملقين الكلام على عواهنه دون شيء من التمحیص . أما نفيهم عنه التعصب للوطن ، فقد استندوا فيه الى طافحة من الآيات التي رويتها لكم وأشارت فيها الى اضطراب المتبني في حزنه الى تربته منها :
﴿ وما بلد الانسان غير المواقف ولا أهل الادنوں غير الاصادق و منها :

و كل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب
أضافوا اليها آياتاً غيرها من جملتها :
غنى عن الاوطان لا يستخفني الى بلاد سافرت عنه اياب
و منها :

في سعة الخافقين مضطرب وفي بلاد من أختها بدل
على ان البيت الذي جاء قبل هذا البيت وهو :
اذا صديق نکرت جانبه لم تعيني في فراقه الحيل

يidel على أن أبي الطيب اذا حدثته نفسه بالاضطراب في سعة الخائفين فانما ذهب هذا المذهب لأنكاره جانب الصديق ولم ينذهه لأنكاره جانب الوطن نفسه . ذكروا هذه الآيات كلها ، وقارنوها بينها وبين الآيات الـ آية التي يقولها اصحابها في حنينهم الى بلادهم والى قومهم :

بلادِي وَانْ جَارَتْ عَلَيْهِ عَزِيزَةٌ وَقَوْمِي وَانْ ضَنَوا عَلَيْهِ كَرَامُ
أَوْ كَفُولُ الْمَعْرِيْ :

فَلَا هَطَّلَتْ عَلَيْهِ وَلَا بَارَضَ سَحَّابُ لِيْسَ تَنْظَمُ الْبَلَادُا
فَكَمُوا عَلَى الْمُتَنبِيِّ أَنَّهُ لَا يَتَعَصَّبُ لِبَلَدِهِ، وَرَمَوهُ بِضَعْفِ الْخَلْقِ، وَشَبَّهُوهُ
بِالْطَّفَلِ الَّذِي يَمْدُّ يَدَهُ إِلَى الْخَيْرِ، لَا يَبَالِي أَنْ وَجَدَهُ وَكَيْفَ التَّقْطِهِ . —
وَأَمَّا نَفِيَّهُمْ عَنْهُ التَّعَصُّبُ لِقَوْمِهِ، فَأَنَّهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا الْآيَاتِ الَّتِي اسْتَنْدُوا إِلَيْهَا
فِي هَذَا النَّيْـ وَلَكِنَّهُمْ أَشَارُوا إِلَى مَدَائِعِ أَبِي الطَّيْـ فِي عَضْدِ الدُّولَةِ وَفِي كَافُورِ
وَعَجَّبُوا مِنْ الْمُتَنبِيِّ كَيْفَ يَمْدُحُ الْأَعْاجِمَ بَعْدَ قَوْلِهِ :

وَانَّمَا النَّاسُ بِالْمَلُوكِ وَمَا تَفْلُحُ عَرَبُ مَلُوكِهَا بِعِجْمَ

— كَيْفَ يَمْدُحُ أَبِي الطَّيْـ عَضْدَ الدُّولَةِ، وَكَيْفَ يَذْكُرُ فِي شِعْرِهِ اسْمَهُ وَلَقْبَهُ وَيَقُولُ :
وَقَدْ رَأَيْتَ الْمَلُوكَ قَاطِبَةً وَسَرَّتْ حَتَّى رَأَيْتَ مَوْلَاهَا
أَبَا شَجَاعَ بِفَارَسِ عَضْدِ الدَّلَـ وَلَهُ فَنَـا خَسِرَ وَشَهَنْشَاهَـا

نعم عجبوا من هذا كله ؛ فَكَمُوا عَلَى الْمُتَنبِيِّ أَنَّهُ مُجْرِدُ مِنَ التَّعَصُّبِ لِلْعَرَبِ
وَلِبَلَادِ الْعَرَبِ فَكَانُهُمْ يَقُولُونَ فِيهِ أَنَّهُ شَعُوبِيٌّ، وَانَّمَا يَصْرُحُوا بِهِـ الصَّفَةِ ، فَلَنْتَظَرُ
فِي مِبْلَغِ هَذَا الْعَجْبِ وَمَقْدَارِ هَذَا الْحُكْمِ، أَفَكَانُوا مَصِيدِيْنِ فِي هَذَا الْحُكْمِ أَمْ كَانُوا
مَخْطَئِيْنِ فِيْهِ ، أَفَصَدَرَ حُكْمَهُمْ بَعْدَ أَنْ نَظَرُوا إِلَى أَبِي الطَّيْـ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِيِّ ، أَمْ
صَدَرَ الْحُكْمُ وَهُمْ لَمْ يَنْظَرُوا إِلَى الْمُتَنبِيِّ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ وَاحِدَةٍ، فَلَا بَأْسَ بِأَنْ
يَكُونَ الدَّرِسُ فِي هَذَا الْيَوْمِ ضَرِيْباً مِنَ الْنَّقْدِ .

الغريب أنهم اذا نقدوا شعر شاعر ، وصوبوا النظر وصعدوه في باطن هذا الشاعر وفي ظواهره ، نظروا اليه من طرف واحد . فهم من ينظرون اليه من

الناحية التي يظنهما ناحية المحسن ، ومنهم من ينظر اليه من الناحية التي يحسبها ناحية المساوي ، وفي هذين المذهبين اشتقطاط في الرأي وذهاب مع الهوى وانقياد للعاطفة وضعف في النظر ، وما ينبغي للناقد ان يكون خاضعاً لسلطان الهوى ، ما ينبغي للعين ان يخفى عليهما الضياء فلا ترى الا الظلم ، فانهم اذا ذهبوا في النقد هذه المذاهب ، وساروا هذه السيرة ضاعت الحسنات ، حتى أنهم ليعظمون العورات في بعض الاحيان و يتعقبونها فيمرون بالحسنات الرائعة والى جنبها سلسلة خفية فيغضون على الواقع و يتهمون بالعورات وما هذا من النقد في شيء ؛ واذا الناقد لم ينظر الى الشاعر من جميع الوجه ، من وجه الحسنات ومن وجه السيئات على السواء لم يكن نقاداً ولا تميزه تميزاً ، اذا هو نظر اليه من طرف واحد وحكم الهوى في نظره كان نقاده مثلث الم JW الجوانب .

جردوا أبي الطيب من كل عاطفة وطنية ومن كل نزعه قومية واعتمدوا في تحريرهم هذا على الآيات التي روتها لكم فلننظر في حكمهم على أبي الطيب من الناحية الوطنية ، والمراد بالوطنية في هذا المقام الحنين الى الوطن ، لا ريب في ان أبي الطيب لم يثبت على حال في شوقي الى تربته ، وقد يثبت اضطرابه في هذا الحنين فلا اجد حاجة الى الرجوع اليه ^{لم} وقد يكون لهذا الاضطراب اسباب شتى : منها أن أبي الطيب لم يستقر في وطنه منذ نشأ وترعرع حتى قتل ، فمن بادية العراق الى بادية الشام ، ومن اللاذقية الى انتاكية الى حلب ، ومن حمص الى دمشق ومن دمشق الى طبريا الى الرملة ومن فلسطين الى مصر ومن مصر الى العراق ومن العراق الى بلاد فارس ، فهو لم يقم بوطنه فلم تألف عينه هذا الوطن ، ومنها أن النفس تعرض لها في بعض الساعات عوارض فتندهل عن كل شيء في الدنيا حتى أنها لتکاد تعاف الحياة والمتنبي عصبي المزاج فكان تعرض له هذه العوارض من ألم في النفس وضيق في الصدر كما تعرض لكل واحد منها وما قوله في شاعر يترك بلاد الشام ويذهب الى مصر فيخلي له كافور داراً ويخلع عليه ويحمل اليه آلافاً من الدرام فيسقط به المتنبي بهذا الشعر :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا ان يكن "أمانياً"
ما قولكم في شاعر يمني الموت وهو في بحبوحة من العيش وسعة من
الأمل أفيكش عليه ان يعاف بلده في بعض الساعات اذا كان يعاف حياته على
أن ابا الطيب لم يجرد من العاطفة الوطنية كل التجريد، فإنه اذا اضطرب وقال:
غى عن الاوطان لا يستخفني الى بلد سافرت عنه اياب

هذا بعد مضطربه وقال وهو في بلاد فارس بين يدي ملك عجمي:

أحب حمضاً الى خناصرة وكل نفس تحب حياماً

وصفت فيها مصيف بادية شتوت بالصحصحان مشتهاها

وان الذي يقول: وكل نفس تحب حياماً ، او يقول: أحن الى اهلي وأهوى

لقاءهم ، لا يرمي بمعقة الوطن فكان ابو الطيب يضطرب في بعض الاحوال ثم يهدأ

فيصفو خاطره ويروق ذهنه فيذكر أهله ووطنه فكان يجب على الذين نفوا عنه
التعصب لبلده ان ينظروا اليه من النواحي كلها ، من ناحية حنينه الى تربته ومن

ناحية اضطرابه في هذا الحنين حتى يكون حكمهم صادقاً الا انهم لم ينظروا اليه

الا من ناحية واحدة / فاشاروا الى الايات التي دلت على اضطرابه في الحنين الى

الوطن وسكنوا عن الايات التي تضمنت حنينه اليه فـإما ان يكونوا متحاملين

على المتنبي ، واما انهم لم يقرأوا ديوانه كله ، والامر الثاني أغرب فكيف يؤمنون

في هذا العصر كتاباً في شاعر من الشعراء ولا يقرأون شعره كله !

على انهم لو أنصفووا فنظرموا الى ابي الطيب في وطنيته أي في حنينه الى تربته

من الناحتين ، وأحبوا ان ينتقدوه من الناحية التي اشتملت على تغنيه بترتبه لوجدرها

بحال النقد ذا سعة فان ابا الطيب لم يخلف لنا في شعره صورة التربة التي ألفها

فلم يحملنا على الحنو على هذه الارض الكريمة التي رويت من دماء آبائنا وأجدادنا

فلو أحطنا مثلاً في شعر ابي الطيب وهو في مصيفه في حمص بالعاشر من منعطفات

شطوطه ، فلمنا على هذا النهر المنبع وصوبنا النظر وصعدناه في مروجه وفي

جنانه وشمنا نسيم الشيح والقيصوم في الباذية التي جال فيها كل مجال لشعرنا حيث قد

بفرط الحنو على هذه الارض الكريمة حيث بنت لنا في كل بقعة من بقاعها أصول دقيقة قوية تذكرنا قبيلنا وعشيرنا في الماضي .

لو نقدوا ابا الطيب من هذه الناحية ، وقالوا لم يختلف في شعره صورة تجمع أشكال التربة التي ألفها وألوان هذه التربة لاصابوا في نقدم بعض الاصاده ولكنهم لم ينقدوا من هذا الوجه وإنما جردوه من العاطفة الوطنية تجريداً ، وهذا موضع الاشتتاط ، على ان ابا الطيب لم يخل شعره من اثر التربة التي مرّ بها وألفها ، ولكن هذا الاثر إنما هو اثر اعرابي يوافق ذوق ابي الطيب وعاداته في مشابهته الاعراب وهل هو الا ابن البدية ، وربيب القبائل الف الاعراب في حداثة سنّه واخذ عنهم اللغة ، صحّهم سنين ثم جاء المكوفة وهو بدوي قح ، نعم لم يخل شعره من اثر التربة التي ألفها ، لما قال :

أحب حصاً الى خاصرة وكل نفس تحب حيالها
وصفت فيها مصيف بادية شtot بالصحصحان مشتهاها
وصف في مصيفه في حمص ومشتها بالصحصحان نمط عيشه وما هذه
العيشة الا عيشة الاعراب :

ان أعشبت روضة رعيناها او ذكرت حلقة غزوناها
او عرضت عانة مقزعة صدنا باخرى الجياد اولاها
او عبرت هجمة بنا تركت تكوسن بين الشروب عقرهاها
(والخيل مطرودة وطاردة تجر طول القنا وقصرهاها
يعجبها قتلها السکاة ولا ينظرها الدهر بعد قتلهاها

هذا الذي تركه لنا من مصيفه ومشتها في حمص والصحصحان واتم ترون ان هذه الآثار أعرابية ما فيها الا الصيد والا الغزو .

فلننظر الان في حكمهم على المتنبي من الناحية القومية ؟ فقد عجبوا منه كيف سمحت له نفسه بمدح العجم والاعاجم ، بعد مدح أمراء العرب ككيف الدولة وأضرابه ، وبعد تصرّبه بكراهية العجم ، لا شك في ان ابا الطيب مدح

ملوكاً وامراء لا ينتسبون الى اصل عربي من جملتهم عضد الدولة ومن جملتهم الاستاذ كافور ولكن هل يجوز ان يكون مجرد مدحه لامراء وملوك اعاجم دليلاً على لينه فيعروبيته وهوادته في قوميته وعلى الخصوص فانه لم يجر على شعره في مدائحه فيهم شيء يستخلص منه انه فضل الاعاجم على العرب او انه طعن على العرب ورفع من مقادير العجم كما كانت تفعل الشعوبية فهو لم يمدح الروم والصفالب والبلغار ولا مدح الدهستق وقسطنطين . وانما مدح ملوكاً مسلمين يتكلمون بلغة العرب ويفاخرون بها فان ملوك آل بويه شعروا ورويت لهم اشعار وكان في خدمتهم من الكتاب والوزراء امثال أبي اسحق الصابي وأبي القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبي احمد بن عبد الرحمن بن الفضل الشيرازي وأبي القاسم علي بن القاسم القاشاني وابن العميد عماد ملك آل بويه والصاحب أبي القاسم وغيرهم من كانوا امراء البيان والاشاء وكانت اللغة الفارسية قد غرقت في خضم العربية وكان عضد الدولة نفسه على ما ذكره الشاعري في يديمه يتفرغ للادب ويشاغل بالكتب ويؤثر مجالسة الادباء على منادمة الامراء ويقول شعراً كثيراً قال ابو بكر المخوارزمي :

كان ينادم عضد الدولة بعض الادباء والظرفاء ويحاضر بالاو صاف والتسييرات ولا يحضر شيء من الطعام والشراب وآلتها وغيرها الا وأنشد فيه لنفسه او لغيره شعراً حسناً ، فيما هو ذات يوم معه على المائدة ينشده كعادته اذ قدمت به طائفة فنظر عضد الدولة كالامر إياه بان يصفها فارتज عليه وغلبه سكوت معه خجل فارتجل عضد الدولة وقال :

بهرطة تعجز عن وصفها يا مدعى الاوصاف بالزور
كانها في الجام مجلوة لآليه في ماء كافور

وقد رويت اشعار لابنه تاج الدولة أبي الحسين ولعز الدولة أبي منصور بختيار ولأبي العباس خسرو بن فیروز بن ركن الدولة فالمتنبي لم يمدح ملوكاً طعنوا على العربية وانما مدح ملوكاً كانوا يتكلمون بها ويفاخرون وفي

اتصاله بهم لم ينس عروبيته ولم يتجرد منها وأظن أنكم لا تزبون تذكرون قوله في مغاني شعب بوان :

ولَكُنْ الْفَقِيرُ فِيهَا غَرِيبُ الْوِجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

والنزعـةـ العـرـبـيـةـ فـيـ هـذـاـ بـيـتـ وـاضـحةـ فـالـذـيـ لـاتـهمـهـ العـصـيـةـ لـقـوـمـهـ لـاـ يـسـتوـحـشـ
في بلاد العجم وقد كان يستطيع أن يرضي العجم فيقول لهم مثلاً إذا نزل
العربي بأرضكم فلا يكون غريباً ولكن نفسه العربية أبت الا الوحشة وإلا
الحنين الى منازل دمشق .

وكذلك الاستاذ كافور فقد كانت مجالسه عامرة بالشعراء منهم الانصاري
و كانوا يتفاوضون في اللغة والادب حتى ان المتنبي عارض الانصاري بحضوره
كافور في قصيده الميمية التي يقول فيها : (نظر الحب الى الحبيب غرام) ، وقال
له : العرب لا تقول اليه غرام وإنما تقول له ، فقال له الانصاري العرب
تقول اليه ولديه وله وحروف الخفاض ينوب بعضها عن بعض .
فالمملوك الذين تعمـرـ بـجـالـسـهـ بأـمـثـالـ هـذـهـ الـمـجاـدـلـاتـ اـنـمـاـ هـمـ مـلـوـكـ لـاـ يـكـرـهـونـ
الـعـرـبـ عـلـىـ مـاـ أـظـنـ فـاـ فـيـ مـدـحـ المـتـنـبـيـ هـمـ طـعـنـ عـلـيـهـ مـنـ النـاحـيـةـ الـقـوـمـيـةـ فـاـكـانـ
بحـضـرـتـهـ يـغـضـ منـ العـرـبـ وـيـنـقـصـهـمـ .

المتنبي، عربي في أصله، عربي في عيشته، عربي في نزعته ، وقد صحّب
الاعراب وخالطهم وهذه المخالطة آثار في شعره، فيجب على الذين ينفون
عنه التعصب لوطنه ولقوه ان ينظروا اليه من كل النواحي حتى يكون
نقدّهم صحيحاً .

ابن تعلق المتنبي

عرفنا أين ولد المتنبي ، وعلمنا ما تيسر لنا عليه من نسبه وعروبيته ، فـ أين تعلم القراءة والكتابة ، وأين طلب أدبه ولغته ، وهل كان مدرسته آثار في عقريةه ، هذا ما ابحث عنه وإياكم في مجلسنا هذا .

قال أبو الحسن محمد بن بحبي العلوى : كان أبو الطيب محبـاً للعلم والأدبـ فـ صاحب الاعراب في البادية وجامـنا بعد سـين بـدويا قـحاـ وـكان تـعلم القراءة والـكتـابة فـلزم أـهلـ الـعـلمـ والأـدبـ وـاـكـثـرـ مـنـ مـلاـزـمـ الـوـرـ آـفـينـ فـكانـ عـلـمـهـ مـنـ دـفـاتـرـ هـ .

وقـالـ الشـعـالـيـ : ذـكـرـتـ الرـوـاهـ أـنـ إـيـاهـ سـافـرـ بـهـ إـلـىـ بـلـادـ الشـامـ فـلـمـ يـزـلـ يـنـقـلـهـ مـنـ بـادـيـتهاـ إـلـىـ حـضـرـهاـ ، وـمـنـ مـدـرـهـاـ إـلـىـ وـبـرـهـاـ وـيـسـلـمـهـ مـنـ الـمـكـاتـبـ وـيـرـدـدـهـ فـيـ القـبـائـلـ وـمـخـاـيلـهـ نـوـاطـقـ الـحـسـنـيـ غـنـهـ وـضـوـامـنـ النـجـحـ فـيهـ ، حـتـىـ تـوـفيـ إـبـوـهـ وـقـدـ تـرـعـرـعـ أـبـوـ الطـيـبـ وـشـعـرـ وـبـرـعـ .

وقـالـ صـاحـبـ الطـبـقـاتـ : وـأـقـامـ بـالـبـادـيـةـ وـطـلـبـ الـأـدـبـ وـعـلـمـ الـعـرـبـ وـنـظـرـ فـيـ إـيـامـ النـاسـ .

وقـالـ اـبـنـ خـلـكـانـ : وـاشـتـغلـ بـفـنـونـ الـأـدـبـ وـمـهـرـ فـيهـ وـكـانـ مـنـ الـمـكـثـرـينـ مـنـ نـقـلـ الـلـغـةـ وـمـطـلـعـيـنـ عـلـىـ غـرـبـيـهـ وـحـوشـيـهـ وـلـاـ يـسـأـلـ عـنـ شـيـءـ إـلـاـ وـاستـشـهـدـ فـيهـ بـكـلامـ الـعـربـ مـنـ النـظـمـ وـالـشـرـ حـتـىـ قـيـلـ أـنـ الشـيـخـ اـبـاـعـلـيـ الـفـارـسـيـ صـاحـبـ الـايـضـاحـ وـالـتـكـملـةـ قـالـ يـوـمـاـ : كـمـ لـنـاـ مـنـ الجـمـوعـ عـلـىـ وـزـنـ فـعـلـيـ ، فـقـالـ المـتـنـبـيـ فـيـ الـحـالـ : حـجـلـيـ وـظـرـبـيـ ، قـالـ الشـيـخـ اـبـوـ عـلـيـ : فـظـالـعـتـ كـتـبـ الـلـغـةـ ثـلـاثـ لـيـالـ عـلـىـ أـجـدـ الـهـذـينـ الـجـمـيعـيـنـ ثـلـاثـاـ فـلـمـ أـجـدـهـ .

من هذا يتبيّن لكم أن ابا الطيب قد جهد نفسه في طلب الأدب واللغة فكانت له دفاتر يدرسها في الليل وربما مضى من الليل أكثره وهو يدرس وكان كثيراً الاشتفاق على هذه الدفاتر اذا سافر أخذها معه لانه كان قد انتخبها وأحکمها قراءة وتصحیحاً، ولسنا نعرف هذه الدفاتر ولا ندري بما كانت تشتمل عليه، وإنما نقل عنه انه كان يروي شعر أبي تمام ويقول « او يجوز للاديب أن لا يعرف شعر أبي تمام ، وهو أستاذ كل من قال الشعر بعده » المتنبي درس كثيراً وقرأ كثيراً فن الشعراه الذين نظر في شعرهم البحترى وابن الرومي وابو تمام ومسلم ابن الوليد وبشار وأبونواس وابن المعتز والفرزدق وعمرو بن كلثوم وامبرؤ القيس والاعشى وبعض رجاؤن العرب وغيرهم من الذين لا يخلو شعره من رسومهم واني لا جائز في هذا المقام الاشارة الى ثقافة العامة فانخطا الكلام على تجاربه في الحياة وعلى ما فتخت له هذه التجارب من ضروب الحكم :

اذا ما الناس جربهم لم يبيب فاني قد أكلتهم وذاقوا

واتخطى الكلام على نظر انه الفلسفية مرجحاً هذا كله الى حين البحث عن هذه النظرات فلا انعرض في هذا المجلس الا آثار مدرسته الاولى في شعره .
للbadia في ثقافة المتنبي آثار ظاهرة على شعره في كل طور من اطوار هذا الشعر فهو ابن البديع والفيافي ، من أفق البادية درج خياله ، وفي جو البادية نما هذا الخيال فلا عجب اذا علقت بذهنه صور هذه البادية ، الف المتنبي ابل البادية وخيالها ومهامها ومحاوزها وغزوها وصيدها وسيوفها وقناتها ، فلا تجدون في كثير من شعره فرقاً بينه وبين الاعراب الذين صحّهم في التغني بكل امر من امور البادية ولا يكاد شعره يخلو من آثار صهيل الخيل وقعقة اللجم وصرير العوالى فالبادية اول مدرسة درس فيها المتنبي وكانت للبيئة وللزمن وللدم تأثيراً في العبرية فكذلك التربية فانها لا تخلو من التأثير في الذهان ، الف المتنبي البادية فلم يخف عليه امورها ولم تشكل عليه اللغة التي يحتاج اليها ابن البادية في وصف ابله وخيله وسلامه وضروب ذلك ، وقد رسخت في ذهنه صور البادية

من حدائقه سنه الى آخر يوم من أيامه حتى انه اذا فارق الاعراب وجالس الملك والامراء والوزراء ، كانت صور البادية ترجع الى ذهنه من حين الى آخر فلست اعرف شاعراً أعمد من المتنبي في الحرص على آثار تراثته الاولى ، جالس الملك والامراء والوزراء فلم يقلع عن اعرابيته ، وعرضت عليه الحضارة مشاهد رائعة فلم تنزع به عن بدويته ، فقد غلت عليه صور البادية فلندين هذا الامر على قدر ما ينسع له مجلسنا .

للمتنبي وأربعة اطوار في شعره ، طور وهو يجول في أقطار الشام قبل اتصاله بسيف الدولة وطور وهو في ظلال سيف الدولة وطور وهو في حضرة كافور الاخشيدى وطور وهو في بلاد فارس ، فلنشظر في آثار البادية على شعره في كل طور من هذه الاطوار الاربعة .

لما كان المتنبي يجوب آفاق الشام ويمدح رجالها وذلك في اول نشاته وترعرعه كانت آثار الثقافة البدوية ظاهرة على شعره كل الظهور فان خياله الذي نما في البادية كان خيالاً على فطرته الاولى فكانه اعرابي لم يألف الحضر .

برتني السري بري المدى فرددتني اخف على المركوب من نفسي جرمي وابصر من زرقاء جو لاتني متى نظرت عيناي سوأهما علي كاني دحوت الارض من خبرتي بها كاني بني الاسكتندر السد من عزمي فالإشارة الى السري والى حدة البصر والى الخبرة بالارض كل هذا من

مذاهب أهل البدو الذين لا يقيمون بيقعة من الارض دون بقعة .

اوأنا في بيوت البدو رحلي وآونته على قيد البعير فاراة كان يتغنى ببنات الجديبل وبالفتنه المحايل والفلوات .

نحن ركب ملجن في زي ناس فوق طير لها شخوص الجمال من بنات الجديبل تمشي بنا في البيد مشي الايام في الآجال كل هوجاء للدياميم فيها اثر النار في سلطط النبال

وتارة كان يتغنى بسيفة :

كفرندي فرندي سيفي الجراز لنة العين عدة للبراز
 تحسب الماء خط في هب النار ادق الخطوط في الاحرار
 كلما رمت لونه من الناظر موج كائنه منك هاذي
 ودقيق قدى الهباء أنيق متواط في مستوى هزهاز
 الى آخر ما وصف به هذا السيف .

هكذا كان دأبه في الشدو بامر البدية ولقد تجلت شنشنته هذه في ارجوزته :
 التي كان يتشبه فيها بالاعراب منها ارجوزته :

ما للمروج الخضر والحدائق يشكو خلاها كثرة العوائق
 فكان له حجر تسمى « الجحامة » وله مهر يسمى « الطخور » فاقام الثلج
 على الارض بانطاكيه وتعذر المراعي على المهر فقال المتنبي، ارجوزته هذه ومن
 فرائها حسب بدوياً يصف الخيل .

كل هذا من آثار مدرسته الاولى ولقد أثرت فيه هذه المدرسة من الناحيتين
 المادية والمعنوية حتى انه اذا تغزل كان يتغزل بالاعرابيات :

هام الفؤاد باعرابية سكنت بيتأ من القلب لم تمدد له طنبأ
 واذا شبه في غزله جرت على خاطره في الحال تشبيهات اهل البدية ، فالرماح
 والسيوف أدوات يلجا اليها في هذا الغزل :

من طاعني ثغر الرجال جاذر ومن الرماح دماليج وخلال خل
 ولذا أسم اغطية العيون جفونها من انها عمل السيوف عوامل
 على أنكم تجدون في بعض الاحوال اثاراً حضرية الى جنب هذه الـ آثار
 البدوية خالية من السيوف والرماح وما شابه ذلك :

ليس الوشي لا متجملات ولكن كي يصن به الجمالا
 وضفرن الغدائـر لا لحسن ولكن خفن في الشعر الضلاـلا
 نعم انـكم تجدون في بعض غـزلـه وشيـ الحضـارةـ ونـعـومـتهاـ :
 حـسانـ التـئـيـ يـنـقـشـ الوـشـيـ مـثـلهـ اذاـ مـسـنـ فيـ أـجـسـامـهـ النـوـاعـمـ

و يلسم عن در تقلدن مثله كأن التراثي وشحت بالمباس
ليس معنى هذا ان المتنبي لم يصف مشاهد الحضر ولكن الباذية شغلت القسم
الاعظم من خياله فاذا وصف مشهدًا من مشاهد الحضر عادت الى ذهنه في الحال
صور الباذية ، لنضرب مثلاً لذلك :

من قوله في قصيدة يمدح بها علي بن ابراهيم التنوخي وقد تصدى لوصف

بحيرة طبرية :

لولاك لم أترك البحيرة والغور دفيء ومؤها شرم
والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها فرسان بلق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضر بها جيشاً وغنى : هازم ومنهرم
كأنها في نهارها قمر حف به من جنانها ظلم

فأئتم ترون انه لما أراد أن يشبه الموج شبهه بهدير الفحول، ولما أراد أن
يشبه الطير وهي فوق الحباب شبهها بفرسان خيل بلق، ولما أراد أن يشبه الرياح
وهي تضرب الطير شبهها بجيشي وغنى ، فالفحول وفرسان الخيل والجيوش والماء الشرم
والقطم كل هذا لا يخلو من اثر بدوي ، واذا أردتم ان تعرفوا الفرق بين هذا الخيال
البدوي وبين الخيال الحضري فارجعوا الى وصف ماه لشاعر من شعراء العرب ،
ارجعوا الى وصف البحترى للبركة ، ومن شروط المقايسة والموازنة ان تأخذوا
قصيدتين في موضوع واحد ، اذ أنه لا تصح الموازنة بين قصيدتين مختلفتين في
الموضوع ، فالمتنبي وصف بحيرة طبرية والبحترى وصف البركة ، وقد سمعتم
وصف أبي الطيب فاسمعوا شيئاً من وصف البحترى ، ولا يتسم المقام لذكر
الإيات كلها وإنما اذكر طائفة منها :

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السباتك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكـا مثل الجواشن مصقو لا حواشيهـا
فجاجـبـ الشـمـسـ أحـيـاناـ يـضاـحـكـهاـ وـريـقـ الغـيثـ اـحـيـاناـ يـياـكـهاـ

اذا النجوم ترا مت في جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها
الى غير ذلك من وصف السمك وعومه والرياض وبشاشتها؛ وانا اترك لكم
الحكم على الفرق بين الوصفين فانكم ولا شك تعترفون معي بان الفضة البيضاء
ومضاحكة الشمس وما شابه ذلك انما هو كلام حضري لا اثر للبداوة عليه .
هذا هو الطور الاول في شعره فلتلتفت الى ابي الطيب وهو في ظلال سيف
الدولة قد وجد في هذه الظلال الوارقة أفقاً مدبراً يسرح فيه خياله البدوي فانه
ما اتصل بسيف الدولة سنه الى الرواضن فعلموه الفروسيه والمطراد والمشافهه ،
وصحب سيف الدولة في عدة غزوات لم بلاد الروم فصرف المتنبي في وصف
هذه الحروب والغزوات أبلغ التصرف في ساعاته على ذلك أمور شتى منها تربته الاولى
ومصاحبه للاعراب وما أثرت فيه هذه المصاحبة من الاثار التي شهدتم منها شيئاً
في شعره في طوره الاول وهي كلها سهل مهده الى وصف الحروب ، ومنها مصاحبه
لسيف الدولة في هذه الغزوات فاذا وصف انما كان يصف بعد العياب فاكثر
شعره في سيف الدولة وصف فيه هذه الحروب فلا تعرض في هذا المقام لشيء
من هذا الوصف لان هذا يأتي في الكلام على شعره ، وانما غرضي في هذا المجلس
ان أبين ان المتنبي كانت تغلب على شعره آثار البداوة وان هذه الآثار جاءته من
مدرسته الأولى وما هذه المدرسة الأولى الا البدائية ولئن كان أبوه يسلفو به من
البدو الى الحضر فان صور البدو شغلت الناحية الكبرى من خياله ، فهل تبدل
خياله البدوي وهو في ظل سيف الدولة ، هل أقل من التغني بالابل وبقوته على السير
وما شابه ذلك فلتلتفت في هذا كله .

لما اتصل بسيف الدولة اتصل بملك قد روی من نعيم الحضارة وترفها فاخلاق
بابي الطيب ان تظهر على شعره آثار هذه الحضارة فأول قصيدة قالها فيه وصف
فيها فازة من الديجاج عليها صورة ملك الروم وصورة وحش وحيوان وقد جلس
سيف الدولة على هذه الفازة فقال أبو الطيب :

وأحسن من ماء الشيبة كله حيا بارق في فازة انا شاتمه

عليها رياض لم تحكمها سحابة
وأغصان دوح لم تعن حماه
من الدر سوط لم يتقبه ناظمه
ترى حيوان البر مصطاحاً به
إذا ضربته الريح ماج كاهه
تجول مذاكهه وتتأهي ضراغمه
وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة
لا بلج لا تيجان إلا عمامه
فاثتهم تجدون في هذا الشعر صوراً حضرية حتى ان غزل المتنبي ظهرت عليه

آثار رقة الحضر فقد عدل في غزله عن السيف والرماح إلى الأزاهير والرياحين :

سقاك وحيانا بك الله انما على العين نور والخدور كائمه

ومنه قوله :

شفعت اليها من شبابي بريق
وغضبى من الادلال سكرى من الصبى
سترت فى عنده فقبيل مفرقى
وأشتب معسول الشنات واضح
وأجياد غزلان كيدك زرنى
فلم أتبين عاطلا من مطوق

ومنه قوله :

وانى لاعشق من أجلكم نحولي وكل امرئ ناحل
ولوزلت ثم لم أبكم بكىتك على حبى الزائل

ولكنه مع هذا كله لم تفارقى صور البداء ذهنـه فكان يرجع اليـها في بعض

غـزلـهـ فيـرجـعـ إـلـىـ السـيـوفـ وـأـشـكـالـهـ :

بصاحب غير عزهـاهـ ولا غـزلـهـ
وقد طرقـتـ فـتـاهـ الـحـيـ مـرـتـديـاـ
فـبـاتـ بـيـنـ تـرـاقـيـناـ نـدـقـعـهـ
وـلـيـسـ يـعـلـمـ بـالـشـكـوىـ وـلـاـ القـبـلـ
ثـمـ اـغـتـدـىـ وـبـهـ مـنـ درـعـهـ أـثـرـ
عـلـىـ ذـؤـابـهـ وـالـجـفـنـ وـالـخـلـلـ
وـيـرـجـعـ إـلـىـ هـذـهـ الصـورـ فـيـ المـرـائـيـ نـفـسـهـ :

نـعـدـ المـشـرـفـيـةـ وـالـعـوـالـيـ وـتـقـتـلـنـاـ المـزـونـ بلاـ قـتـالـ

وـنـرـتـبـ السـوـابـقـ مـقـدـمـاتـ

وـمـنـهـ قـوـلـهـ فـيـ هـذـهـ القـصـيـلـهـ :

لساحبيه على الاجدات حفسن كأيدي الخيل أبصرت المخالي
والحفش والمخالي والخبيب وارتباط السوابق كل هذا من آثار البدو ولا ريب
في ذلك .

فابو الطيب في التبدل اليسير الذي تبدل وهو في أفياه سيف الدولة اي في افياه
النعم والترف كان يعود الى شذنته في التغنى بالابل وبالقوة على السير الى غير
ذلك من مذاهب الاعراب واهل البدو، فلن وصفه للابل :

وحكمت في البلد العراء بناعج معتاده مجتباه معتاله
يمشي كما عدت المطي وراءه ويزيد وقت جامها وكلله
وتراع غير معقلات حوله فيفوتها متجللا بعقله
فعدا النجاح وراح في اخفافه وغدا المراح وراح في ارقاله
نعم انه لا يكاد ينسى فرسه ورحمه وسيفه وناقه حتى في مراطن الغزل :
سللي عن سيرتي فرسي ورمحي وسيفي والهملمعة الدفاقة
ولا يكاد يذهب عن الخيل والبيداء :

(الخيل والليل والبيداء تعرقي والسيف والرمح والقرطامن والقلم
صحبت في الفلووات الوحش منفرداً حتى تعجب مني ~~الحكومة والامم~~

* * *

هذه هي شذنة المتنبي وهو في ظلال سيف الدولة المديدة فلتنظر اليه لما غضب
على سيف الدولة وترامت به اليد والغافي الى كافور الاخشادي ، فلتنظر الله هل
اقلع عن هذه الشذنة أم لازمه في مصر ، أظن انه لم يقلع وهو في مصر عن
شيء من هذه العادات البدوية فقد عاد الى دأبه من ذكر الخيل والقنا والعوالى
وما مائل ذلك حتى في اول قصيده في كافور .

~~أ~~ وجدا مدننا بين اذانها القنا فبين خفافاً يتبعن العوالى
تماشى بايد كلما وافت الصغا نقشن به صدر الbizat حوافيا
ونظر من سود صوادق في الدجي يرين بعيدات الشخصوص كما هيا

وتنصت للجرس الخفي سواماً يخطن مناجة الضمير ثنادياً
ولما طالبه كافور بذكر الدار التي بناها على البركة بازاء الجامع الاعلى لم يقل
 شيئاً في وصفها يسمى وصفاً فكانه يحتقر الدور .

مستقل لك الديار ولو كان نجوماً آجر هذا البناء
ولو أن الذي يخر من الام واه فيها من فضة يضاء

فكأن يحاول التخلص من الوصف الى المديح والوصول الى ذكر الجناد

والسمهرية السمراء والصوارم البيض والهيجاء

وبساتينك الجناد وما تهم لـ من سهرية سمراء
انما يفخر الكريـم ابو المـسك بما يبني من العـلـيـاء
وابـيـامـهـ التيـ اـنـسـلـخـتـ عنـهـ وـمـاـ دـارـهـ سـوـىـ الهـيـجـاءـ
وبـمـاـ اـذـرـتـ صـوـارـمـهـ الـبـيـضـهـ فـوـمـاـ يـطـبـيـ قـلـوبـ النـسـاءـ
لـأـبـمـاـ يـتـنـيـ الـحـوـاضـرـ فـيـ الـرـيـ

فـاـينـ هـذـاـ خـيـالـ مـنـ خـيـالـ الـبـحـتـرـيـ فـيـ وـصـفـهـ لـفـصـورـ بـنـيـ العـبـاسـ فـيـ بـغـدـادـ

نـعـمـ لـمـ يـقـلـعـ عـنـ هـذـهـ الشـشـشـةـ حـتـيـ وـلـاـ فـيـ غـزـلـهـ فـهـوـ لـاـ يـحـبـ الـبـدوـبـاتـ

ـ كـأـوـجـهـ الـبـدـوـيـاتـ الرـعـاـيـيـبـ ماـ أـوـجـهـ الـحـضـرـ الـمـسـتـحـسـنـاتـ بـهـ
ـ حـسـنـ الـحـضـارـةـ بـجـلـوـبـ بـتـطـرـيـةـ وـفـيـ الـبـداـوةـ حـسـنـ غـيرـ بـجـلـوـبـ
ـ اـيـنـ الـمـعـيـزـ مـنـ الـأـرـامـ نـاطـرـةـ وـغـيرـ نـاظـرـةـ فـيـ الـحـسـنـ وـالـطـيـبـ
ـ أـفـدـيـ ظـبـاءـ فـلـاـةـ مـاـ عـرـفـنـ بـهـ مـضـعـ الـكـلـامـ وـلـاـصـبـغـ الـحـواـجـيـبـ
ـ وـلـاـ بـرـزـتـ مـنـ الـحـامـ مـائـلـةـ أـوـرـاـكـهـنـ صـقـيـلـاتـ الـعـرـاقـيـبـ

ـ وـلـاـ أـصـابـتـهـ الـحـيـ وـهـوـ بـمـصـرـ وـوـصـفـهـ لـمـ يـقـلـ فـيـ وـصـفـهـ عـنـ التـغـيـ بـمـاـ

ـ يـتـغـيـ بـهـ الـأـعـرـابـ عـادـةـ :

ذراـيـ وـالـفـلـاـةـ بلاـ دـلـيلـ

ـ وـوجـيـ وـالـهـجـيـ بـلـاـ لـثـامـ

ـ فـانـيـ أـسـتـريـحـ بـذـيـ وـهـذاـ

ـ وـأـتـعبـ بـالـأـنـاخـةـ وـالـمـقـامـ

ـ عـيـونـ رـوـاحـلـيـ انـحـرـتـ عـيـنـيـ

ـ وـكـلـ بـغـامـ رـاحـلـةـ بـغـامـيـ

فقد أرد المياء بغیر هاد سوی عدی لها برق العمام
فأئتم تردون في هذا كله آثار ما يتغنى به الاعراب عادة فسلوك الفلاة بلا
دليل . واعتىاد السير في المغير بغیر لثام . والمعروفة بدللات النجوم بالليل وعد
برق العمام كل هذا مما يغدر به أهل البدو .

ولما فارق مصر وورد الى الكوفة وصف منازل طريقة فكأن المتنبي

متلعم بثوب بدوي في هذا الوصف :

ألا كل ماشية الميني
فدى كل ماشية الميني

وكل نجاة بجاوية
خنوف وماي حسن المشي

ولسكنهن حبال الحياة
وكيد العداوة وميط الاذى

ضررت بها التيه ضربا
ضررت بها التيه ضربا

تمار إما لهذا وإما لهذا

وكذلك ماري ابا شجاع فاتكا وهو في الكوفة بعد خروجه من مصر وأشار الى العيس:

لا أبغض العيس لكنني وقيت بها
قلبي من الحزن أو جسمي من السقم

طردت من مصر أيديها بارجلها
حتى صرقن بنا من جوش والعلم

تبرى لهن نعام الدو مسرجة
تعارض الجدل المرخاة باللجم

* * *

هل رغب المتنبي عن مذاهب أهل البدو في آخر طور من أطوار شعره فانه لما خرج
 من مصر وقدم العراق ثم شخص من العراق الى بلاد فارس اتصل بابن العميد وبعضاً من الدولة
 وعرف ان الذين يحال عليهم في فارس هم غير الاعراب وأشار الى ذلك في اماديجه في ابن العميد:

من هيلع الاعراب اني بعدها
جالست رسطالييس والاسكندراء

X من ينحر البدر النضار لمن قری
وممللت نحر عشارها فاضافني

وسمعت بطليموس دارس كتبه
وتملكاً متبدئاً متحضراً

نعم جالس المتنبي في بلاد فارس أمثال رسطالييس وبطليموس وجاري الفرس

في عادتهم في النيروز في اتخاذ أكاليل من النبات والزهر وليس هذه الاكاليل :

ملابسنا فيه الاكاليل حتى
لبستها تلاعه ووهاده

وشهد مشاهد تأخذ بمجامع القلوب مثل شعب بوان :
 مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الرياح من الزمان
 ومع هذا كله فقد يدقوا قحاماً كان في صباحه، شهد هذه المشاهد كلها فلم يزهد
 في أعرابيته ولأن رق غزله بعض الشيء وخرج من التغزل بالبدويات إلى
التغزل بالشاميّات :

شامية طالما خلوت بها تبصر في ناظري حياماً
 فقبلت ناظري تغالطي وإنما قبلت به فها
 فليتها لا تزال آوية وليتها لا يزال ما وها
 تبل خدي كلما ابسمت من مطر برقة ثناها
 ما نفخت في يدي غداً رها جعلته في المدام أفواها
 لأن رق هذا الغزل بعض الشيء وأن تبدل خياله بعض التبدل فما تبدلت
 أعرابيته حتى انه عاد في القصيدة نفسها التي تغزل فيها بالشاميّات الى ذكر
 الغزو والصيد وقد كنت تلوت عليكم ابيات هذا الغزو وهذا الصيد :
 أن أعشبت روضة رعيناها او ذكرت حلة غزوناها
 وعاد الى التغزل بالقنا و الطعاف :

فاما ترني لا أقيم ببلدة
 يجعل القنا يوم الطعاف بعقوتي
 تبدل أيامي وعيشي ومنزلي نجائب لا يفكرون في النحس والسعادة
 لأن بدلات هذه النجائب أيامه وعيشه ومنزله فما بدللت أعرابيته : وارجوزته في
 عضد الدولة وقد خرج للصيد دليل على تعلقه باهداه بهذه الاعرابية وهي من آخر شعره :
 ما أجدر الأيام والليالي بان تقول ماله وما لي
 فثار مدرسته الاولى ظاهرة على شعره من ابتداء أمره الى منتهاه .

١٥ آذار سنة ١٩٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧

١ مَا يَكُمْ أَبَا الطَّيْبِ لَمَّا تَرَعَّعَ وَشَعَرَ وَبَرَعَ تَوْفِيَ أَبُوهُ، فَالْحَسِينُ فَارِقُ الدُّنْيَا
وَابْنُهُ أَحْمَدُ فِي عَنْفَوَانَ صَبُوتَهُ، فَلَنْزَاقَ أَبَا الطَّيْبَ فِي أَوَّلِ حَرْكَةٍ مِنْ حَرْ كَاتِهِ بَعْدَ
أَنْ تَمَّ لَهُ مَاتِمٌ مِنْ طَلْبِ الْأَدْبِرِ وَاللُّغَةِ فِي الْبَادِيَةِ وَالْحَاضِرِ، فَلَنْقَتَصَّ أَخْبَارُ ذَلِكَ
الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي ذَهَبَ بِحَقِيقَةِ اسْمِهِ وَجَعَلَ لَهُ اسْمًا آخَرَ خَالِدًا عَلَى وَجْهِ الدُّهْرِ
وَهُوَ الْمُتَنَبِّيُّ، لِمَاذَا لَقِبُوهُ بِالْمُتَنَبِّيِّ، هَلْ تَذَكَّرُ أَبَا الطَّيْبِ وَكَمْ كَانَ عُمْرُهُ فِي دُعُوَيِّ
النَّبِيَّةِ؛ مَا هِيَ أَفَوَالُ رِجَالِ التَّارِيخِ فِي هَذِهِ النَّبِيَّةِ، هَلْ نَسَبُوا إِلَيْهِ أَمْوَالًا غَيْرَ دُعُوَيِّ
النَّبِيَّةِ، هَلْ نَسَبُوا إِلَيْهِ أَنَّهُمْ بَالْخَرْوَجِ أَوْ أَنَّهُ ادْعَى أَنَّهُ عَلَوِيٌّ، أَوْ أَنَّهُ ادْعَى غَيْرَ ذَلِكَ،
مَا هِيَ مَعْجَزَاتُهُ، مَا هُوَ قُرْآنُهُ، مَا هِيَ أَفَوَالُهُ فِي نَبِيَّتِهِ وَقُرْآنِهِ هَلْ تَهْيَا لَهُ شَيْءٌ
مِنْ أَسْبَابِ التَّائِيرِ فِي عَقُولِ الْأَعْرَابِ، هَلْ صَرَحَ فِي شِعْرِهِ بِدُعُوَاهِهِ، هَلْ وَطَنَ
نَفْسَهُ لِلْمَوْتِ وَهُوَ فِي السِّيْجِنِ عَلَى نَحْوِ أَكَابِرِ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَا يَبْلُونَ بِمَا يَصِيبُهُمْ فِي
سَبِيلِ مَذَاهِبِهِمْ أَمْ أَوْهَنُ رِجْلِيهِ ثَقْلُ الْحَدِيدِ، فَاسْتَغْاثَ وَاسْتَصْرَخَ.

لِمَاذَا لَقِبُوهُ بِالْمُتَنَبِّيِّ؟

حَكَىْ أَبُو الْفَتْحِ عُثْمَانَ بْنَ جَنِيِّ وَابْنَ جَنِيِّ هَذَا صَحْبُ أَبَا الطَّيْبِ دَهْرًا طَوِيلًا قَالَ:
سَمِعْتُ أَبَا الطَّيْبِ يَقُولُ أَنَّمَا لَقِبْتُ بِالْمُتَنَبِّيِّ لِقُولِيِّ :

أَنَا فِي أَمَّةٍ تَدارِكَهَا اللَّهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي نَمُودٍ

وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَقُولُ :

مَامَقَامِيْ بِأَرْضِ نَخْلَةِ الْأَرْدَ كَفَامِ الْمَسِيحِ بَيْنِ الْيَهُودِ

فَتَشَبَّهَ بِصَالِحٍ وَبِالْمَسِيحِ مَدْعَاهُ إِلَى تَلْقِيَهِ بِالْمُتَنَبِّيِّ .

هل تنبأ النبيء، وكم كان عمره لما تنبأ، وما هي اقوال رجال التاريخ في هذه النبوة؟

قال ابو عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي :

قدم ابو الطيب النبيء اللاذقي في سنة عشرين وثلاثمائة، (كان عمره يومئذ سبع عشرة سنة) وهو لا عذر له، وله، فرة الى شحمي اذيه، فاكرمه وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سنته فلما تمكن الانس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من ادبه قلت له : والله انك لشاب خطير ، تصلح لنادمة ملك كبير فقال : ويحك أتدري ما تقول ؟ أنانبي مرسل ، فظننت انه يهزل ثم تذكرت اني لم اسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته فقلت له : ما تقول : فقال انانبي مرسل قلت ، له : مرسل الى من ، قال : الى هذه الامة الضالة قلت : تفعل ماذا ، قال : املاً الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً ، قلت : بماذا ؟ قال : بادرار الارزاق والثواب العاجل والآجل لمن اطاع وأتى ، وضرب الاعناق لمن عصى وابى فقلت له : ان هذا امر عظيم اخاف منه عليك ان يظهر وعدله على ذلك فقال بيها :

ابا عبد الله معاذ اني خفي عنك في الهيجا مقامي
ذكرت جسم ما طببي وانا نخاطر فيه بالمج الجسام
أمشلي تأخذ النكبات منه ويعجز من ملاقاة الحمام
ولوبرز الزمان الي شخصاً لخضب شعر مفرقه حسامي
وما بلغت مشيتها الليلي ولا سارت وفي يدها زمامي
اذا امتلأت عيون الخيل مني فوبل في التيقظ والمنام

هذا قول ابي عبد الله معاذ اللاذقي في نبوة النبيء فلنسمع قول كافور الاخشidi وانتم تعلمون ان ابا الطيب لما غصب على سيف الدولة قصد كافوراً فوعده كافور بولاية بعض اعماله فلما رأى تعالىه في شعره وسموه بنفسه خافه وعوتب فيه فقال : يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، اما يدعى المملكة مع كافور فحسبكم.

اما ابو العلاء المعري ، فقد ذكر عنه الاستاذ عباس محمود العقاد في مقال له في « البلاغ » عنوانه هل تنبأ المتنبي انه قد شك في دعوى النبوة وبنى مقاله على هذا الشك ، فهو يعتقد ان قصة النبوة رواها عن ابي الطيب جماعة من اهل عصره اكثراهم من خصومه وحساده او من ملفق الأحاديث .

وقد رجعت الى كلام ابي العلاء فلم أجده فيه ما يدل على انه كان يشك في دعوى النبوة فهو قد صدق الداعوى وروى احاديث حدثه بها الثقة عن معجزات المتنبي ، وهذا كلام المعري : «^(١)

« وحدثت انه (ابي المتنبي) كان اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة اي المرتفع من الارض وكان قد طمع في شيء طمع فيه من هو دونه ، وانما هي مقادير يديرها في العلوم مدير ظفر بها مزوفق ، ولا يراعي المجهود يتحقق ، وقد دلت اشياء في ديوانه انه كان متأنطاً ، ومثل غيره من الناس متدهلاً ، فمن ذلك قوله :

ولا قبالا الا لخالقه حكما

وقوله :

ما أقدر الله ان يخزي بريته ولا يصدق قوماً في الذي زعموا
واذا رجع الى الحقائق فنطق اللسان لا يبني عن اعتقاد الانسان ، لأن العالم
محبول على الكذب والنفاق ويحتمل ان يظهر الرجل بالقول تدينا ، وانما يجعل ذلك
تزينا ، يريد ان يصل به الى ثناء او غرض من اغراض الحالة ام الفناء ، ولعله
قد ذهب جماعة هم في الظاهر متبعدوون وفيما بطن ملحدون .

فمن هذا يتبين لكم ان ابا العلاء لم يلحظه الشك في الدعوى التي ادعاه المتنبي
حتى انه يبيّن علة هذه الدعوى فأشار الى طمع ابي الطيب في شيء قد طمع فيه من
هو دونه ، وستسمعون احاديث معجزات ابي الطيب التي حدث بها ابو العلاء ،
واذا شك المعري في شيء فإنه قد شك في صدق النبوة لا في صدق دعوى هذه
النبوة والفرق بين الشكين ظاهر .

ومن الذين تكلموا على دعوى النبوة ابو منصور الثعالبي فقد قال :
ويحكي انه تنبأ في صباح وفتن شرذمة بقوة ادبه وحسن كلامه .
ومنهم الانباري صاحب الطبقات فقد قال :

قال علي بن حامد : سمعت قوماً بحلب يحكى أن أبا الطيب المتنبي تنبأ بياديه
السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية فقل له
وأنسره ، وشرد كل من كان اجتمع عليه من بي كلب وكلا布 وغيرهم من قبائل
العرب وحبسه في السجن دهرآ طويلا حتى كاد يتلف فسئل في أمره فاستتابه
وكتب وثيقة ، وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الاسلام وأطلقه .

* * *

هذه أقوال من تكلموا على دعوى نبوة المتنبي على ان بعضهم نسبوا إلى
المتنبي أو رأى غير ذلك مثل طمعه في الملك وادعائه العلوية وغير ذلك مالم يذكره ،
فالثعالبي قبل ان يتكلم على دعوى النبوة وقد سمعتم كلامه ، تكلم على طلب
الملك فقال :

وبلغ من كبر نفسه ، وبعد همه ، ان دعا إلى يعته قوماً من راشي نبله على
الخداثة من سنّه ، والفضاضة من عوده ، وحين كاد يتم له أمر دعوته ، تأدى
خبره إلى والي البلد ورفع إليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده .

وابن خلكان روى دعوى نبوته وقال :

وانما قيل له المتنبي لانه ادعى النبوة وهو في بادية السماوة وتبعه خلق كثر .
من بي كلب وغيرهم ، فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الاخشيدية فأسره
وتفرق أصحابه وحبسه طويلا ثم استتابه وأطلقه ثم قال بعد هذا :

وقيل غير ذلك ، وهذا أصح ، فما الذي قيل غير ذلك ؟ فلم يبينه ابن
خلكان إلى ان قال :

وقيل أنه قال : أنا أول من تنبأ بالشعر .

و ابن الأباري تكلم على دعوى النبوة وقد ذكرت لكم كلامه وأضاف

إليه ما يلي :

— وقال القاضي أبو الحسن بن أم شيبان الهاشمي الكوفي ، وكان أبو الطيب لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ، وادعى أنه علوى ، ثم ادعى النبوة ، ثم عاد يدعي أنه علوى إلى أن أشهد عليه في الشام وأطلق .

* * *

فالذى يستخلص من كل ما تقدمت الإشارة إليه أن الأقوال في أمر المتني متباعدة فنهم من قال أنه ادعى النبوة ، ومنهم من قال أنه هم بالخروج ، ومنهم من قال أنه ادعى أنه علوى ومنهم من قال غير ذلك .

ولابأس بان المحى إلى طائفة من معجزاته وقرآن ما دام بعض رجال التاريخ قد تكلموا على نبوته .

— أما المعجزات فقد ذكر منها أبو عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي حبس المطر ، فلن شاء فليقرأ خبرها في الصبح المتني . وذكر أبو العلاء المعربي غير حبس المطر فقال :^(١)

« وحدثي الثقة عنه حدثاً معناه أنه لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه : هنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أفررنا إنك مرسلاً . وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل فتحيل حتى وتب على ظهرها ففترت ساعة وتنكرت برهة ثم سكن نفاريها ومشت مشي المسماحة وانه ورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم .

— وحدثت أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية وإن بعض الكتاب انقلب على يده سكين الأفلام فخرحته جرحًا مفرطاً وإن أبي الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير متظر لوقته وقال المجروح لا تخلها في يومك وعد له أياماً وليلي .

وأن ذلك الكاتب قبل منه فبرى الجرح فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد ويقولون هو كحي الاموات

وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقة أو في غيرها من السواحل أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ولقيهما كلب اخ عليهما في النباح ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: إنك ستتجدد ذلك الكلب قد مات فلما عاد الرجل الفي الامر على ما ذكر ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئاً من المطاعم مسموماً والقاوه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل؛ والخريق سبب الكلاب .

واما القرآن فيها انا انلو عليكم منه ما دونه صاحب الطبقات نقلنا عن أبي علي

بن حامد، قال أبو علي :

«وكان قد تلا على البوادي كلاماً زعم انه قرآن انزل عليه فكانوا يحكون له سورة كثيرة نسخت منها سورة ثم ضاعت وبقي أولها في حفظي وهو: والنجم السيار، والفلك الدوار والليل والنهر ان الكافر لبني اخطر . امض على سنتك . واقف على اثر من قبلك من المرسلين فان الله قامع بك زبغ من الخد في دينه وضل عن سبيله ، قال : وهي طويلة لم يبق في حفظي منها غير هذا . . . سمعنا هذا كله فلنسمع ما نقل لنا عن المتتبلي في هذا القرآن وفي هذه النبوة فهل اثبتت على نفسه قرآن ونبيته .

قال أبو علي بن حامد : وكان المتتبلي في مجلس سيف الدولة اذا ذكر له قرآن هذا وامثاله مما كان يحكى عنه أنكره وجحده ؛ وقال له ابن خالويه النحوي يوماً في مجلس سيف الدولة : لو لا ان اخي جاهل مارضي ان يدعى بالمتتبلي ملان معنى المتتبلي . كاذب ومن رضي ان يدعى بالكذب فهو جاهل . فقال لست ارضي ان أدعى بذلك وانما يدعوني به من يريد الغض مني ولست اقدر على المنع .

قال التنوخي : قال لي أبي : فاما انا فسألته بالاهواز عن معنى المتتبلي . لأنني اردت ان أسمع منه هل تنبأ او لا فجاوبني بجواب مغالط وقال : ان هذا شيء

كان في الحداثة فاستحبثت أن استقصي عليه فامسكت .

وقال له بعض الأكابر في مدينة السلام : خبرني من أثق به إنك قلت إنكنبي

قال : الذي قلته : أنا أحمد النبي .

هذه جملة ما يتعلق من الأخبار بدعوى نبوة المتنبي ودعوى علويته ودعوى
نه بالخروج وغير ذلك فيكاد يحار الإنسان في الدعوى التي ثبتت عليه . وإنما
النرى ابن جنى وهو من أصحاب أبي الطيب بين لنا سبب تقبيل أحمد بالمتنبي .
ونرى أبا عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي يروي لنا قドوم المتنبي اللاذقية وادعاءه
النبوة . ونرى كافوراً يصدق دعوى نبوة المتنبي . وهؤلاء كلهم من أهل عصر
المتنبي . وإنما النرى أبا العلاء المعري يحدثنـا عن ثقة باحاديث معجزات المتنبي
وما بينه وبين أبي الطيب إلا القليل من السنين . ونرى الانباري يتكلـم في طبقاته
على دعوى النبوة وكذلك الشعالي وكذلك ابن خلـكان أذنـرى الشعالي نفسه يتـكلـم
على هـمـ المتـنبيـ بالـخـروـجـ عـلـىـ السـلـطـانـ . ونـرىـ الانـبارـيـ نـفـسـهـ يـتـكـلـمـ عـلـىـ اـدـعـاءـ
المـتـنبيـ العـلـوـيـةـ . ونـرىـ ابنـ خـلـكـانـ يـتـكـلـمـ عـلـىـ اـمـرـ آخرـ غـيرـ النـبـوـةـ ، وغـيرـ العـلـوـيـةـ
ويـرجـحـهـ عـلـيـهـ وـلـاـ يـذـكـرـهـ ~~وـنـرىـ المـتـنبيـ نـفـسـهـ اـذـ ذـكـرـتـ لـهـ النـبـوـةـ وـالـقـرـآنـ~~
يـنـكـرـهـاـ مـرـأـةـ وـيـغـالـطـ مـرـأـةـ أـخـرـىـ ~~وـيـقـولـ~~ : انـ هـذـاـ شـيـءـ كـانـ فـيـ الحـدـاثـةـ فـالـإـنـسـانـ
كـاـ قـلـتـ لـكـ يـحـارـ فيـ هـذـهـ الـأـمـرـ كـلـهـ وـعـلـىـ الـخـصـوـصـ فـاـنـ المـتـنبيـ لـمـ يـصـرـحـ فـيـ
شـعـرـهـ بـالـسـبـبـ الـذـيـ مـنـ أـجـلـهـ حـبـ وـاـنـمـاـ طـلـبـ إـلـىـ الـوـالـيـ اـنـ لـاـ يـقـبـلـ زـورـ الـكـلـامـ
وـاـنـ لـاـ يـسـمـعـ مـنـ الـكـاـشـحـينـ وـاـنـ يـفـرـقـ بـيـنـ دـعـوـيـ الـأـرـادـةـ وـدـعـوـيـ الـفـعـلـ :

فالـكـلـمـ تـقـبـلـ زـورـ الـكـلـامـ وـقـدـرـ الشـهـادـةـ قـدـرـ الشـهـودـ

فـلـاـ تـسـمـعـ مـنـ الـكـاـشـحـينـ وـلـاـ تـعـبـأـنـ بـعـجـلـ الـيـهـودـ

وـكـنـ فـارـقاـ بـيـزـ دـعـوـيـ أـرـدـتـ وـدـعـوـيـ فـعـلـتـ بـشـأـوـ بـعـيدـ

فـقـدـ يـجـوزـ أـنـ أـبـاـ الطـيـبـ أـرـادـ أـمـرـاـ مـنـ الـأـمـرـ وـلـاـ هـمـ بـهـذـاـ الـأـمـرـ أـخـفـقـ ، فـاـ
هـوـ هـذـاـ الـأـمـرـ ، فـالـذـيـ يـقـعـ فـيـ خـلـدـيـ انـ الرـجـلـ قـدـ شـغـلـهـ حـبـ الـمـلـكـ ~~قـبـلـ اـعـتـقـالـهـ اـيـ~~
أـقـبـلـ أـنـ تـشـيـعـ دـعـوـيـ مـنـ الـدـعـاوـيـ الـمـذـكـورـةـ وـقـصـيـدـتـهـ الـتـيـ قـالـهـ فـيـ حـصـاءـ وـالـتـهـ اوـهـاـ :

ضيف ألم برأسِي غير محشش
قد امتلأَت من أمانيه البعيدة في الملك

أيملاك الملك والاسياf ظامنة و الطير جائعة لحم على وضم
من لو رآنـي ماه مات من ظـاـوـاـ و لو مثلت له في النوم لم يتم
مـيـعـادـ كـلـ رـقـيقـ الشـفـرـتـيـنـ غـداـ وـمـنـ عـصـىـ مـنـ مـلـوـكـ العـرـبـ وـالـعـجمـ
ـفـانـ أـجـابـواـ فـاـ قـصـدـيـ بـهاـ لـهـمـ وـانـ تـولـواـ فـاـ أـرـضـىـ لـهـ بـهـمـ
ـوـقـدـ شـغـلـتـهـ هـذـهـ الـأـمـانـيـ كـلـ عـمـرـهـ،ـفـلاـ يـيـالـيـ بـالـطـرـقـ الـيـ منـ نـحـوـهـاـ يـاـتـيـهـ
ـهـذـهـ الـمـلـكـ سـوـاءـ عـلـيـهـ أـجـاهـهـ مـنـ طـرـيقـ النـبـوـةـ،ـأـمـ مـنـ طـرـيقـ الـعـلـوـيـةـ،ـأـمـ مـنـ طـرـيقـ آخـرـ
ـفـقـدـ يـجـوزـ أـنـ نـفـسـهـ وـسـوـسـتـ لـهـ أـنـ تـجـعـلـ النـبـوـةـ سـيـلـاـ إـلـىـ الـمـلـكـ،ـوـعـلـىـ الـخـصـوـصـ
ـبـعـدـ أـنـ اـجـتـمـعـ لـهـ الشـيـءـ الـكـثـيرـ مـنـ أـسـبـابـ التـأـثـيرـ فـيـ عـقـولـ الـأـعـرـابـ مـنـ جـمـلـهـاـ
ـخـبـرـتـهـ بـالـأـرـضـ وـفـصـاحـتـهـ حـتـىـ حـكـوـاـعـنـهـ أـنـ مـاـكـانـ يـمـحـرـقـ بـهـ عـلـىـ اـهـلـ الـبـادـيـةـ
ـأـنـ كـانـ مـشـاءـ،ـقـوـيـاـ عـلـىـ السـيـرـ يـسـيرـ سـيـراـ لـاـ غـايـةـ بـعـدـهـ،ـوـكـانـ عـارـفـاـ بـالـفـلـوـاتـ
ـوـمـوـاقـعـ الـمـيـاهـ وـمـحـالـ الـعـرـبـ بـهـ وـكـانـ يـسـيرـ مـنـ حـلـةـ إـلـىـ حـلـةـ بـالـبـادـيـةـ وـيـنـهـمـ مـسـيـرـةـ
ـأـرـبـعـةـ أـيـامـ فـيـأـيـامـ فـيـ مـاـ فـيـغـسـلـ يـدـيـهـ وـرـجـلـيـهـ وـوـجـهـ شـمـ يـاـنـيـ اـهـلـ تـالـكـ الـحـلـةـ فـيـخـبـرـهـ
ـعـمـاـ حـدـثـ فـيـ تـالـكـ الـحـلـةـ الـيـ فـارـقـهـ وـيـوـمـهـ أـنـ الـأـرـضـ تـطـوـيـ لـهـ،ـأـفـلـاـ يـجـوزـ أـنـ
ـنـفـسـهـ حـدـثـتـهـ طـلـبـ الـمـلـكـ بـعـدـ أـنـ تـهـيـأـ لـهـ هـذـاـكـهـ وـتـهـيـأـ لـهـ شـيـءـ أـعـظـمـ مـنـ هـذـاـ وـهـوـ
ـحـسـنـ الـبـيـانـ،ـوـقـدـ شـهـدـواـهـ بـفـصـاحـتـهـ وـأـشـارـيـاـفـيـ شـعـرـهـ فـقـالـ:

وـكـلـةـ فـيـ طـرـيقـ خـفـتـ أـعـرـبـهـ فـيـهـتـدـيـ لـيـ فـلـمـ أـقـدـرـ عـلـىـ اللـحنـ

ـ فـالـرـجـلـ مـطـبـوـعـ عـلـىـ الـفـصـاحـةـ وـالـأـعـرـابـ ،ـكـلـ هـذـاـ مـنـ الـأـمـورـ الـيـ تـوـطـيـهـ
ـ لـهـ السـبـيلـ إـلـىـ الـأـسـتـيـلـاهـ عـلـىـ عـقـولـ الـأـعـرـابـ ،ـوـلـكـنـهـ يـنـقـصـهـ قـوـةـ الـعـقـيـدـةـ فـلـمـ يـوـثـرـ
ـعـنـهـ أـنـ كـانـ مـتـيـنـاـ فـيـ عـقـيـدـتـهـ ،ـشـدـيـداـ فـيـ دـيـنـهـ ،ـوـقـدـ أـوـضـعـ عـنـ ضـعـفـ الـعـقـيـدـةـ ،ـ
ـوـرـقـةـ الـدـيـنـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ شـعـرـهـ ،ـمـنـهـ قـوـلـهـ :

تقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذي الأفلان فيه والدنى

وقوله: لو كان علمك بالله مقسما في الناس ما بعث الله رسوله

وقوله : او كات بـ الـ بـ حـ مـ مثلـ يـ مـ نـ هـ ما اـ شـ قـ حـ تـ جـ اـ زـ فـ يـ مـ وـ مـ وـ قـ وـ لـ هـ : يـا مـ نـ نـ لـ وـ ذـ مـ زـ مـ بـ ظـ لـ هـ اـ بـ دـ اـ وـ نـ طـ رـ دـ بـ اـ سـ هـ اـ بـ لـ يـ اـ سـ هـ اـ كـ شـ يـ رـ مـ اـ شـ بـاهـ هـ دـ اـ بـ يـ اـتـ ، فـ لـ يـ اـ هـ بـ مـ اـ رـ اـ دـ لـ يـ تـ لـ هـ شـ يـ مـ منـ مـ رـ اـ دـ هـ وـ لـ عـ لـ الـ اـ عـ رـ اـ بـ اـ نـ فـ سـ هـ مـ الـ دـ يـ مـ صـ حـ بـ هـ مـ فيـ الـ بـ اـ دـ يـ هـ مـ الـ دـ يـ مـ وـ شـ وـ اـ بـ هـ وـ مـ دـ قـ عـ دـ يـ بـ سـ بـ رـ وـ تـ صـ حـ بـ هـ مـ عـ اـرـ يـ مـ حـ اـ لـ كـ اـ سـ يـ مـ منـ دـ رـ خـ رـ اـ بـ بـ اـ دـ يـ هـ غـ رـ ثـ بـ طـ وـ نـ هـ مـ كـنـ الضـ بـابـ لـ هـ مـ زـ اـ دـ بـ لـاـ ثـ مـ يـ سـ تـ خـ بـرـ وـ نـ فـ لـاـ اـ عـ طـ يـ هـ مـ خـ بـرـ يـ وـ مـ اـ يـ طـ يـ شـ لـ هـ مـ سـ هـ مـ منـ الـ ظـ اـنـ وـ كـيفـ كـانـ السـ بـبـ الذـيـ مـنـ اـ جـهـ حـ بـسـ قـ انـ المـ تـ بـيـ مـ تـ بـ مـ بـعـضـ المـ تـ بـهـ فـ قـ الـ :

كـنـ اـيـهاـ السـ جـنـ كـيـفـ شـمـتـ فـقـدـ وـطـنـتـ لـلـمـوـتـ كـهـنـ مـعـتـرـفـ
 لـوـ كـانـ سـكـنـاـيـ فـيـكـ مـنـقـصـةـ لـمـ يـكـنـ الدـرـ سـاـكـنـ الصـدـفـ
 وـلـكـنـهـ بـعـدـ اـنـ قـالـ هـذـيـنـ الـبـيـتـيـنـ وـهـماـ هـمـاـ فيـ مـتـانـةـ الـاخـلـاقـ وـالـصـبـرـ عـلـىـ الـمـكـارـهـ
 اـفـيـ سـيـبـيلـ مـذـهـبـ مـذـهـبـ اوـ مـعـتـقـدـ مـنـ الـمـعـتـقـدـاتـ خـمـانـهـ الصـبـرـ فـضـعـفـ عـزـمـهـ
 فـقـالـ لـلـوـالـيـ :

أـمـالـكـ رـقـيـ وـمـنـ شـائـهـ هـبـاتـ اللـجـينـ وـعـقـ العـبـيدـ
 دـعـوتـكـ عـنـدـ اـنـقـطـاعـ الرـجـاءـ وـلـمـوـتـ مـنـ كـحـلـ الـورـيدـ
 دـعـوتـكـ لـماـ بـرـانـيـ الـبـلـاءـ وـاـوهـنـ رـجـلـ ثـقـلـ الـحـدـيدـ
 فـاـيـنـ توـطـيـنـ النـفـسـ لـلـمـوـتـ مـنـ هـذـهـ الـاسـتـغـاثـةـ

٢٢ آذار سنة ١٩٣٠

حیات امتنی

٨

أرى ان افضي اليكم بعد ان تكلمت على وطن ابا الطيب وعلى نسبه و على تحصيله وعلى روایات نبوته بجملة اخباره وهو في ديار الشام وفي ظلال سيف الدولة وفي مصر وفي العراق وفي بلاد فارس ، على ان تكون اخباره هذه متسلاة ليس فيها شيء من الافتضاب ، وكنت احب ان اختصر الكلام على هذه الاخبار حتى اصل الى الكلام على اخلاقه وروحه ولغته وشعره وبعض نظراته الفلسفية قبل انقضاء سنتنا . ولكنني لا اجد لي مندوبة عن ان اروي لكم المهم من هذه الاخبار ما له تأثير في شعره ، فستجدون في الـ^اتي ان ابا الطيب قد شكا الحسد في كثیر من قصائده ، وستجدون ان الاخبار التي سأرويها لا تخلو من ارتباط بهذا الحسد الذي اکثر من الاشارة اليه في شعره . فالرجل كان محسوداً في جميع حالاته ، في فقره وفي غذائه .

* * *

فلننضر الى حالة ابا الطيب قبل اتصاله بسيف الدولة ، فقد علمت انه لما نسبوا اليه انه ادعى النبوة كان عمره سبع عشرة سنة ^{عمره} فكان في اول امره في خشونة من عيشه ورقه من حله ، يعوزه كل شيء . يعوزه الناعم من الملابس والسكريم من المطابيا / توفي ابوه فقيراً فضرب المتنبي في مناكب الشام التلسا للرزق وجال في البوادي والحواضر ومدح رجالاً من منبج وطرابلس الشام وطرسوس وأنطاكية وطبريا ودمشق وبعلبك ومر بحمص وبعقارب لبنان وغير ذلك من بادية الشام وحضرها :

[١] الفت نر حلي وجعلت ارضي قودي والغريري الجـ للاـ

فأحولت في أرض مقاماً ولا ازمعت عن ارض زوالاً
على قلق كأن الريح تحني أوجها جنوباً او شمالاً
جال أبو الطيب في هذه الآفاق كلها ، ومدح فيها من أمّل نداءه وكرمه فقد
كان فقيراً شكا فقره وتنوعت شكاياته . فرة كانت اعصابه تهيج في شكوى
الفرق :

إلى أي حين انت في زي محرم وحتى متى في شقة والكم

ومرة كانت هذه الأعصاب تهدأ بعض المدوء :

للله حال أرجيهم وتخلقي واقتضي كونها دهري ويمطاني

لم يكن للمنى في أول أمره شيء من المطايا فلا مطية له إلا النعل والخلف

ولا لباس له إلا القطن الخشن :

لا نافي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الراهن أجدها

شراكمها كورها ومشفرها زمامها والشروع مقودها

وقد أكثر من التنعم بقلة المطايا :

أو حبيت من خوص الركاب بالسود من دارش فعدوت امشي راكباً

حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان إلى منها تائباً

نعم كان أبو الطيب يشكوا الفقر على أنه لم يقصر في طلب الرزق :

ضاق صدرى وطال في طلب الرزق قيامي وقل عنه قعودي

ابداً أقطع البلاد ونجحي في نحوس وهمي في صعود

ولعلي مؤمل بعض ما أبلغ باللطف من عزيز حميد

لسرى لباسه خشن القطن ومروي مرو لبس القرود

ولكن شعره كان يباع في سوق الكساد :

الكم ذا التخلاف والتوازي وكم هذا التهادي في التهادي

وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

فيحكى أن علي بن منصور الحاجب الذي امله ورثاه لم يعطه على

قصيدة التي فيه واولها :

بابي الشموس الجانحات غواربا

الا دينارا واحدا فسميت الدينارية

لم يقصر ابو الطيب في السعي ولكن آماله خابت عند من كان يمدحهم .
مدحت قوما و ان عشنا نظمت لهم قصائدا من أناث الخيل والمحصن
فكم سعى الى حاجة ولم ينل منها شيئاً .

فقل في حاجة لم اقض منها على شغفي بها شروى نقير

وكم طلب الرزق لجده فقاته هذا الرزق :

طلب لها حظا ففاتت وفاني (٦) وقد رضيت بي لورضيت بها قسا
فلا ذنب له في هذا كله ، وانما الذنب يرجع الى الذين يذكرون له الجود
فلا يحصل من جودهم الا على الكلام :
أرى أنساً ومحصولي على غنم وذكر جود ومحصولي على الكلم
على انه اذا ذم بعض مدوحية فقد حمد طائفه منهم لم يخلوا عليه ، في جلتهم
ابو العشار ،

هذه حالة وهو في ديار الشام ، شكا فيها كل شيء ، شكا فقره و اخفاقه في السعي ،
وكسراد شعره في اسواق بعض الممدوحين ، ومع هذا كله ما كان يخلو من حمد
الحساد و شماتة الشامتين و كيد الكائدين (٧) / نعم لم يخل من حسد الحсад :

قولو اني حُسْدَتْ عَلَى نَفِيس (٨)
لجدت به لذى الجد العثور
ولكنى حسدت على حياني وما خير الحياة بلا سرور
ولم يخل من شماتة الشامتين ، حتى في المواطن التي لا تكون فيها الشماتة
الا الام اللؤم ، فقد شتموا بموت جدته .

لئن لذّ يوم الشامتين بيمهها (٩)
لقد ولدت مي لا تفهم رغما
ولا خلا من كيد الكائدين :

ان الكذاب الذي أكاد به أهون عندي من الذي نقله

* * *

فليبحث عن اخبار المتنبي وهو في ظلال سيف الدولة، فهل استمر

~~أبو الطيب في شکوی الفقر، هل استمر في شکوی الحسد~~

~~ألا كان المتنبي قبل اتصاله بسيف الدولة يمدح القريب والغريب ويصطاد ما بين الگرگي والعنديب ، هكذا قال فيه التعالی وقد تحقق عندنا ذلك وبيت هذه حالتہ الى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وهي السنة التي مدح فيها سيف الدولة وكان عمره حينئذ اربعاء وثلاثين سنة .~~

~~كيف انصل بسيف الدولة) وكيف كانت منزلته عنده وكيف كان رأي بعض الشعراء ورجال الادب فيه وكم مكت في أبياء سيف الدولة وما هي الاسباب التي من أجلها فارق أبو الطيب سيف الدولة .~~

قال أبو عبد الله ياقوت الرومي :

~~ولم يزل المتنبي بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال حتى اتصل
بأبا العشائر ومدحه بعدة قصائد ، فـ كرمـه أبو العشائر وعرف منزلته وكان أبو
العشائر والـيـ اـنـطـاـكـيـةـ منـ قـبـلـ سـيـفـ الدـوـلـةـ ولـماـ قـدـمـ سـيـفـ الدـوـلـةـ اـنـطـاـكـيـةـ قـدـمـ
المتنبيـ إـلـيـهـ ، وـاثـنـيـ عـنـدـهـ عـلـيـهـ وـعـرـفـهـ مـنـزـلـتـهـ مـنـ الشـعـرـ وـالـادـبـ . وـاشـتـرـطـ المـتـنـبـيـ
عـلـىـ سـيـفـ الدـوـلـةـ أـمـلـ اـتـصـالـهـ بـهـ إـذـ أـشـدـهـ مـدـيـجـهـ لـاـ يـنـشـدـهـ إـلـاـ وـهـ قـاعـدـ ،
وـاـنـهـ لـاـ يـكـلـفـ تـقـيـلـ الـأـرـضـ بـيـنـ يـدـيـهـ ، فـنـسـبـ إـلـىـ الجـنـونـ وـدـخـلـ سـيـفـ
الـدـوـلـةـ تـحـتـ هـذـهـ الشـرـوـطـ ، وـتـظـلـعـ إـلـىـ مـاـ يـرـدـ مـنـهـ وـذـلـكـ فـيـ سـبـعـ وـثـلـاثـينـ
وـثـلـاثـمـائـةـ ، وـحـسـنـ مـوـقـعـهـ عـنـدـهـ فـقـرـبـهـ وـاجـازـهـ الـجـوـائزـ السـيـنـيةـ وـمـاـلتـ نـفـسـهـ إـلـيـهـ
وـأـحـبـهـ فـسـلـمـهـ إـلـىـ الرـوـاـخـ ، فـعـلـمـهـ الـفـرـوـسـيـةـ وـالـطـرـادـ وـالـمـاـقـفـةـ . وـحـكـيـ انهـ صـحـبـ
سيـفـ الدـوـلـةـ فـيـ عـدـةـ غـزـوـاتـ إـلـىـ بـلـادـ الرـوـمـ ، مـنـهـاـ غـزوـةـ العـشـاءـ الـتـيـ لـمـ يـنـجـ مـنـهـاـ
إـلـيـ سـيـفـ الدـوـلـةـ بـنـفـسـهـ وـسـتـةـ آنـفـارـ أـحـدـهـمـ المـتـنـبـيـ ، وـأـخـذـتـ الـطـرـقـ عـلـيـهـ الرـوـمـ
بـفـرـدـ سـيـفـ الدـوـلـةـ سـيـفـهـ وـحـمـلـ عـلـىـ عـسـكـرـ وـفـرـقـ الصـفـوفـ وـبـدـدـ الـأـلـوـفـ .~~

هذا هو اول اتصاله بسيف الدولة ، فبعد ان كان يشكو شقوته وقلة مطاعاته
واخفاقه في السعي وكساد شعره ، انقلب حاله خار في كثرة خبله وخوله .
بالشرق والغرب أقوام نجدهم فطالعاهم وكونا أبلغ الرسل
وعرفاهم باني في مكارمه افلب الطرف بين الخيل والخول
لقد غرق ابو الطيب في مكارم سيف الدولة الباهرات حتى ترك السرى لمن
لامال له وانعل خبله ذهبا .

تركت السرى خلفي لمن قل ماله وانعلت أفرامي بنعماك عسجدا
فكان سيف الدولة يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار ما عدا الخيل والجواري
والحاج والجواز والاقطاعات .

أسير الى إقطاعه في ثيابه على طرفه من داره بحسامه
من هذه الأقطاعات سبعين وهي قرية بباب حلب؛ وصف وهي قرية بالمعرة
وكان له وكيل يتوكل له في داره بحلب اسمه ابو سعيد ، فain حاله هذه من
شقوته التي كان فيها ولا مطية له الا قدماء ، ولا لباس له الا القطن الخشن ، ولأن
تكلم ابو الطيب وهو عند سيف الدولة بلسان الميسير الاغنياء ، فستجدون انه
سيتكلم بعد تركه سيف الدولة بلسان الملوك أصحاب العبيد .

المقدم

* * *

ولكن نعمة مثل هذه النعمة لا تنجي صاحبها من حسد الحساد وكيد الكاذبين
وعلى الخصوص اذا كان صاحب هذه النعمة قد زاحم غيره من الشعراء عليها ، وما
أكثر الشعراء الواقفين بباب سيف الدولة ، وما أعظم الفرق بين منزلتهم ومنزلة
ابي الطيب ، فكان من المنظر ان يكشر حсад اي الطيب . وان يموت بعضهم
حسدا ، لما خلا عصر من العصور من حسد الحساد وكيد الكاذبين .
فلتنقص أنباء الذين آلمهم ان يكون أبو الطيب في ظلال سيف الدولة .

منهم السري الرفاء فقد ذكروا انه لما سمع بيت المتبني .

وخرص ثبت الابصار فيه كائن عليه من حلقة نطاقا

قال : هذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون ، ثم انه حم في الحال حسداً وتحامل الى منزله ومات بعد ثلاثة ايام ^(٤)

ومنهم ابو العباس النامي ، فقد ذكروا ان سيف الدولة كان يميل اليه ميلاً شديداً الى ان جاءه المتنبي فما قال عنه اليه فغاظ ذلك أبا العباس ، فلما كان ذات يوم خلا بسيف الدولة وعاتبه وقال : الامير لم يفضل علي ابن عيدان السقاء ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه ، فلرج وألح عليه وطالبه بالجواب ، فقال : لانتك لا تحسن ان تقول كقوله :

يُعَودُ مِنْ كُلِّ فَتْحٍ غَيْرَ مُفْتَحٍ
فَنَهَضَ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ مَغْبِيًّا
أَوْ اَعْتَقَدَ اَنْ لَا يَمْدُحَهُ اَبَدًا ، وَابُو العَبَّاسِ هَذَا هُو
الْقَائِلُ كَانَ قَدْ يَقِيَ فِي الشِّعْرِ زَاوِيَةَ دَخْلِهِ الْمَتَنِيُّ .

ومنهم أبو فراس الحمداني فقد ذكروا انه قال لسيف الدولة : ان هذا المتشدق يعني المتنبي ، كثير الأدلal عليك وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلات قصائد ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره فاثر هذا الكلام في سيف الدولة وعمل فيه وكان المتنبي غائباً فبلغته القصة ولما حضر دخل على سيف الدولة وانشده هذه الآيات :

لكما الاما لسيف الدولة اليوم عابياً فذاه الورى أمضى السيو فمضار با
ومالي اذلا اشتقت ابصرت دونه تناط لا اشتاقها وسباسبا

(٤) هذه رواية الصبح المنبي والذى ذكره الثعالبي في يديمه في كلامه على السري الرفاء ان السري لما توفي سيف الدولة ورد بغداد ومدح الملبسي الوزير وغيره من الصدور ، فالمعلوم ان سيف الدولة كانت وفاته سنة ٣٥٦ اي بعد مقتل المتنبي بستين فهل كان حسد السري للمتنبي بعد وفاة المتنبي ، ما أظن شيئاً من ذلك والبيت الذي حكوا عنه انه قتل السري قد أخذنه السري نفسه وتصرف فيه فقال :

أحاطت عيون العاشقين بخصره فهنئ له دون النطاق نطاق
فروایة الصبح المنبي غير قاطعة .

أحاديث فيها بدرها والكواكب
وحسبي موهوياً وحسبك وأهباً
أهذا جزاء الكذب أن كنت كاذباً
محا الذنب كل المحو من جاء تابباً
فاطرق سيف الدولة ولم ينظر اليه كعادته فخرج المتني متغيراً أو حضر ابو فراس
وجماعة من الشعراء بالغوا في الواقعة في حق المتني وانقطع ابو الطيب بعد ذلك
ونظم القصيدة التي اولها :

واحر قلباً من قلبه شيم

ثم جاء وانشدتها وجعل يتظلم فيها من التقصير في حقه بقوله :

ما لي اكتم حباً قد برى جسدي
وتدعي حب سيف الدولة الام
ان كان يجمعنا حب لغره
فليت انا بقدر الحب نقسم
قد زرته وسيوف المهد مغمدة
وقد نظرت اليه والسيوف دم

فهم جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة لشدة ادلاله واعراض سيف الدولة عنه
فلما وصل في انشاده الى قوله :

يا اعدل الناس الا في معاملتي
قال ابو فراس قد مسخت قول دعبل :
ولست ارجو انتصافاً منك ماذرفت
عني دموعاً وانت الخصم والحكم
قال ابو الطيب :

اعيدها نظارات منك صادقة
ان تخسب الشجم في من شحمه ورم
فعلم ابو فراس انه يعنيه فقال : ومن انت يا دعي كندة حتى لا تأخذ اعراض
الامير فاستمر في انشاده ولم يرد عليه الى ان قال :

سيعلم الجميع عن ضم مجلسنا
باتني خير من تسعي به قدم
انا الذي نظر الاعمى الى الادي
واسمعت كلما تي من به ضم
فزاد ذلك ابا فراس غيظاً وقال : قد سرت هذا من عمرو بن عروة بن

العبد حيث يقول :

أو صحت من طرق الاداب ما اشتكت دهراً واظهرت اغراياً وابداعاً
حتى فتحت باعجاز خصصت به للعمي والصم ابصاراً واسمعاً
ولما انتهى ابو الطيب الى قوله :

الخيل والليل والليل تعرفي والسيف والرمح والقرطاس والقلم
قال ابو فراس : وماذا ابقيت للامير اذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة
والرياسة والسماحة ، تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوانز الامير
اما سرقت هذا من الهيثم بن الاسود النخعي الكوفي المعروف بابن العريان العثماني .
انا ابن الفلا والطعن والضرب والسرى وجرد المذاكي والقنا والقواضب

فقال ابو الطيب :

✓ وما اتفاع اخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الانوار والظلم
وقال ابو فراس :

وهذا سرقته من قول معقل العجمي :

اذا لم أميز بين نور وظلمة يعني فالعينان زور وباطل
ومنه قول محمد بن احمد بن أبي مرة المككي :

اذا المرء لم يدرك بعيته ما يرى فما الفرق بين العمى والبصراء

← حتى غضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في قصيده هذه ودعاويه فيها
فضربه بالدواة التي بين يديه فقال ابو الطيب :

✓ ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا أرضاك لم
قال ابو فراس : هذا أخذته من قول بشار :

✓ اذا رضيتم بان نجفى وسركم قول الوشاة فلاشكوى ولا ضجر
ومثله قول ابن الرومي :

✓ اذا ما الفجائع اكسبني رضاك فما الدهر بالفاجع

← فلم يلتقط سيف الدولة الى مقاله ابو فراس واعجبه بيت المتني ورضي عنه في

الحال وأدناه وقبل رأسه وأجازه بالف دينار ثم اردها بالف أخرى ..

لم يقتصر أيام أبي الطيب على الشعراء أنفسهم وإنما تعدى الشعراء إلى بعض رجال اللغة من كان يصطف أقوالهم في حضرة سيف الدولة .

من هو لام اللغويين أبو عبد الله بن خالويه النحوي فقد حكوا أنه جرت مسألة في اللغة في حضرة سيف الدولة تكلم فيها ابن خالويه النحوي مع أبي الطيب اللغوي وكان المتنبي حاضراً فضعف المتنبي قول ابن خالويه فاخذ ابن خالويه من كمه مفتاحاً حديداً لي لكم به المتنبي ، فقال له المتنبي اسكت ويحيك فانك اعجمي وأصلك خوزي فالراك وللعربيه بضرب المتنبي بذلك المفتاح فأَسْأَلَ دِمَهُ عَلَى وَجْهِهِ وَثَيَابَهُ فَغَضِبَ المتنبي من ذلك اذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولاً ولا فعلًا .

فتصوروا مقدار أيام المتنبي . هؤلاء الرجال حتى ان واحداً منهم لم يستطع ان يملك نفسه ، ويضبط حركته في ساعة الغضب فيعمد الى اللطم والضرب وهذا متنه الغيظ .

وقد كان لهذه الامور كلها أثر في شعر أبي الطيب ولن شكا الحسد وهو في خشونته من العيش ، فاخلق به ان يضجر من حسد الحساد وهو يتقلب في ظلال النعيم فاغفل الحساد عن المتنبي . وهو في حضرة سيف الدولة ، ولا غفل المتنبي . عن شكوى الحسد فمن قوله لسيف الدولة :

أزل حسد الحساد عن بكيتهم فانت الذي صيرتهم لي حسدا
ومن قوله له :

فابلغ حاسدي عليك اني كبا برق يحاول بي لحاقة
ومن قوله :

أعادى على ما يوجب الحبلقى وأهداً والافكار في " تحول " [١]
إذا حل في قلب الحساد داو . فانه سوى وجع الحساد داو .
ولا تطمئن من حاسدي مودة وان كنت تبديها له وتنيل
من هذا يتبين لكم ان أبا الطيب قد استمر في شكوى الحسد ، ولقد اشتدى حسد

الناس ايه وهو في ظلال سيف الدولة واشتدت الواقعة فيه وأخذ سيف الدولة يعيث به بعد ذلك الاكرام من ذلك ماحكا ابو الفرج البيضا قال :
أذك ليلة وقد استدعى سيف الدولة بدرة فشقها بسکين الدواة ، فد أبو عبد الله بن خالو يه طيسانه فحى فيه سيف الدولة صالحًا ومددت ذيل دراعي فحى لي جانباً والمتني حاضر وسيف الدولة يتنتظر منه ان يفعل مثل فعلنا فما فعل فعاذه ذلك فشرها كلها على الغلبه فلما رأى المتني أنه قد فاتته زاحم الغلبه يلقط معهم فغمزهم عليه سيف الدولة فذاسوه وركبواه وصارت عمامة في رقبته فاستحي ومضت به ليلة عظيمة فخاطب عبد الله بن خالو يه سيف الدولة في ذلك فقال :
يعاظم تلك العظمة ويزل تلك المنزلة لولا حماقه .

صعب على أبي الطيب بعد هذه الامور كلها أن يستمر في حاشية سيف الدولة الشعراء يحسدونه و يوقعون فيه ، ويضر بونه ، وسيف الدولة هرزاً له و يعيث ، وكان المتني يشكو سيف الدولة وكان سيف الدولة يغتاظ من تهاظم المتني و يجفو عليه اذا كله و المتني يجيئه في اكثر الاوقات و يتغاضى في بعضها .

نعم كان يصعب على أبي الطيب ان يوازن على محاسن سيف الدولة بعد ان وقع بينه وبين الشعراء ما وقع فما وسع أبا الطيب الا مقارقة سيف الدولة وذلك في سنة ست وأربعين وثلاثمائة ف تكون مدة ملازمته له تسع سنين .

و لما عتب المتني في ترك سيف الدولة ومدح كافور قال :
{ حذرناه وأنذرناه فما نفع فيه الحذر ، ألاست القائل فيه :
أبا الجود أعط الناس مانت مالك ولا تعطين الناس ما أنا قائل
فهو الذي أعطاني إلى كافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه }

حياته المتتبلي



لو سأنا أبو الطيب عن الأسباب التي من أجلها ترك سيف الدولة وقصد
كافوراً لبعضها لنا دون شيء من بجمحة الكلام، فإنه لما أقام بمصر بعد الرحيل من
حلب وستعلمون كيف كان ذلك؛ اتصل به أن قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة
وبهذا تستدلون على أنه لم ينج من حسد الحساد في قربه منهم وفي بعده عنهم حتى كانوا
يتمنون موته فقال قصيدة التي اولها:

بِم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن
وَفِي هَذِهِ الْقُصِيدَةِ عَرَضَ سَيفُ الدُّولَةِ فَقَالَ :

رأيكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكם اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب منكم ضغف
وتغضبون على من نال ر福德كم حتى يعاقبه التغليس والمن

هذا ما حمله على الانزعاج عن سيف الدولة وفي هذا الشعر من القوارص
ما فيه فلم يصن سيف الدولة عرض المتتبلي ولم تسلم نعمته عليه من الملة والإذى

ولكن هذه النعمة قد سلمت في بعض الاوقات من الكدر والمن فليت أبا
الطيب تذكر قوله لسيف الدولة وهو في أبياته:

أنت الجoward بلا من ولا كدر ولا مطال ولا وعد ولا مذر

غير أن هذا القول قاله المتتبلي سنة احدى وأربعين وثلاثمائة اي قبل ان
يفارق سيف الدولة بخمس سنين فأكانت نعم سيف الدولة في ذاك التاريخ سالمه من
التغليس والمن ام لم تسلم من شيء من ذلك و كان ابو الطيب يضمها في قلبه ؟

وهو يعلم في باطنها ان سيف الدولة احفى الناس به :
ولله سيري ما أقل تئية عشية شرق الحدالى وغرب
عشية احفى الناس بي من جفوته واهدى الطريقين التي أتجنب
ومع هذا جفاه . وفارقه لما شقام من أمره ما شكا .

الى أين صار المتني بعد ان ترك سيف الدولة وكيف اتصل بكافور ، وفي اي
شيء كان يطبع وهو في مصر ، وهل خشي كافور جانبه فاضمر له الشر ، هل
سلم المتني من عداوة بعض الناس في مصر ، هل استمر في شكوى الحسد ، كيف
هرب ابو الطيب من مصر ، هل استمله سيف الدولة اليه بعد رجوعه الى الكوفة ،
ماذا في المتني في بغداد من عداوة الادباء والوزراء ، كيف هرب من بغداد ، اين
قصد بعد تركه دار السلام ، هل استطاع المتني اقامته بظل عضد الدولة في بلاد
العجم ، كيف قتل ابو الطيب ، كيف هدمت هذه الروح المضطربة التي ما ذاقت
لذة المدح في يوم من الايام ، ولا عرفت نعمة السكون في ساعة من الساعات ؟
الى أين صار المتني بعد مفارقته سيف الدولة وكيف وصل الى كافور ؟ جاء

في الصبح المنبي ما يلي :

و لما عزم ابو الطيب على الرحيل من حلب و ذلك في سنة ست واربعين
وثلاثمائة لم يجد بلداً أقرب اليه من دمشق لأن حمص كانت من بلاد سيف الدولة
فسار الى دمشق ، والقى بها عصا التسيار وكان بدمشق يهودي يعرف بابن ملك من
قبل كافور ملك مصر فالتمس من المتني ان يمدحه فنقل عليه ، فغضبت ابن ملك و جعل
كافور الاخشيدى يكتب في طلب المتني من ابن ملك فكتب اليه ابن ملك ان ابا الطيب
قال : لا أقصد العبد ، وان دخات مصر فاقصدى الا ابن سيده ثم نبت . دمشق
بابى الطيب ، فسار الى الرملة فحمل اليه اميرها الحسن بن طفج هدايا فقيسه وخلع
عليه وحمله على فرس بموكب ثقيل في قلده سيفاً محلى . وكان كافور الاخشيدى يقول
لاصحابه أترونه يصلح الرملة ولا يائينا وأخبر المتني انه واجد عليه ، ثم كتب
كافور في طلبه من امير الرملة فسار اليه .

قبل ان يتصل المتني بكافور اتصل باهين الرملة الحسن بن طبع قدوه، وفي هذه القصيدة يقول :

وفارقت شر الارض اهلا وتربة بها علوى جده غير هاشم
فن هو هذا العلوى الذي غصب عليه المتني ، والظاهر ان جماعة هدوه ، وهم
علويون فأشار اليهم في قصيدة ثانية يقولها في أبي القاسم طه العلوى :
أتأنى وعید الادعیاء وانهم أعدوا لي السودان في كفر عاقب
ولو صدقوا في جدهم لذرتهم فهل في وحدي قولهم غير كاذب
الي لعمري قصد كل عجيبة كأنى عجيب في عيون العجائب
فاكاد يسلم المتني من حاشية سيف الدولة ، حتى أتاه وعید آخر ، فكان
بينه وبين المصائب صلة رحم ، فلتنظر اليه وهو في حضرة كافور فهل نجح من هذه
المصائب ؟

لما قدم ابو الطيب على كافور الاخشيدى أمر له بمنزل ، ووكل به جماعة واظهر
التجمة له وطالبه بمدحه فلم يمدحه فنطع عليه فقال يمدحه بقصيدة التي او لها :
كفى بذلك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن أمانا
وأنشده ايها في جنادى الآخرة سنه ست واربعين وثلاثمائة ولئن كان
المتني لا ينفرد مدحه في سيف الدولة الا وهو قاعد ، فإنه كان يقف بين يدي
كافور وفي رجله خفاف و في وسطه سيف ومنطقه ويركب بحاجبين من ماليك
وها بالسيوف والمناطق وكان لا يجلس في مجلس كافور .
ـ هكذا اتصل المتني بكافور الاخشيدى ، ولكن في هذه المرة سمت به نفسه
الى أفق أبعد من أفق المال ، فلم يقتصر على الرغبة في عسجد يستفيده وأنما امتدت
هذه الرغبة الى المفاخر .

وما رغبي في عسجد استفيده ولكنها في مضر استجده
واعرب عن طمعه هذا في اول قصيدة قالها في كافور :
وغير كثير ان يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين والبا

نعم لم يكن لقلبه في هذه المرة مدى ينتهي به في مراد من المرادات :

وفي الناس هرمن يرضي بميسور عشه ومركتبه رجله والثوب جلده ولكن قلباً بين جنبي ماله مدى ينتهي بي في مراد احده وقد أكثر من المصارحة بما في نفسه :

فإن نلت مأملت منك فربما شربت بما يعجز الطير ورده

} ووعدك فعل قبل وعد لانه نظير فعال الصادق الوعيد فعله

وألح على كافور في قضاء هذه الحاجة التي شغلت بالله :

اذا لم تنتط بي ضيعة او ولایة فجودك يكسوني وشغلك يسلب

واستنجزه وعده :

ارى لي بقربي منك عيناً قريرة وان كان قرباً بالبعاد يشأب

وهل نافعي ان نرفع الحجب بيننا دون الذي املت منك حجاب

وفي النفس حاجات وفيك فطانية سكوتى بيان عندها وخطاب

طعم المتنبي في الولاية فسأل كافوراً أن يوليه صيادة من بلاد الشام او غيرها

هن بلاد الصعيد ولان دافور قد وعده بان يبلغه جميع ما في نفسه ولكنه خاف

جانبه وتهيب امره فقال له : انت في حالة الفقر وسوء الحال ، وعدم المعن ، سميت

بك نفسك الى النبوة فان اصبت الولاية وصار لك اتباع فمن يطبقك ؟ ثم وقعت

الوحشة بينهما ووضع عليه العيون والارصاد خوفاً من ان هرب واحسن

المتنبي بالشر .

ولم يخل ابو الطيب وهو في ظلال كافور من جماعة كانوا يبغضونه ويوجرون

صدر كافور ، وفي جملتهم ابن حرابة وذير كافور والمقرب منه ، وقد كان المتنبي

ترك مدحه ؛ فكان ابن حرابة يشيع استهزاء المتنبي بكلافور في مدائجه ، والحقيقة ان

ابا الطيب قد سخر من كافور في كثير من باطن مدحه وظاهره . فن قوله :

وما طرفي لما رأيتكم بدعة لقد كنت ارجوان اراك فأطرب

فجعل كافوراً بدعة من البدع حتى قال ابن جني : لما قرأت على ابي الطيب

هذا البيت قلت له ما زدت على أن جعلت الرجل أبا زنة وهي كنية القرد فضحك .
ومن قوله :

ويغريك عما ينسب الناس انه اليك تناهى المكرمات وتنسب
وهذا البيت ظاهره أبلغ المديح ولكن باطنه لا يخلو من غمرة اليمة .

وقد أشار المتنبي الى سواد كافور في كثير من شعره وهو يعلم ان ذكر لون
السواد على مسامع كافور امر من الموت فمن قوله :

 ان في ثوبك الذي المجد فيه لضياء يزري بكل ضياء
انما الجلد ملبس وايضاض النفس خير من ايضاض القباء

وهذان البيتان فيما تعرى بسواد كافور واصرخ منها :

من ليض الملوك ان تبدل اللون بلون الاستاذ والسخناء

فلا يبعد ان ابن حرابة كان يذيع مهزأة المتنبي بكافور حتى يكيد له ، فما اشبه
ما كان يقع لابي الطيب وهو عند كافور بما كان يقع له وهو عند سيف الدولة
من ابتلاء الغواص به وكان ابو الطيب وهو في مجالس كافور يتعرض للادباء
والشعراء فيجلب عداوتهم لنفسه ، في جملة هؤلاء الشعراء ابو القاسم بن ابي العفیر
الانصاري فقد عارضه المتنبي بحضرته الميمية التي او لها :

نظر الحب الى الحبيب غرام

فقال له : العرب لا تقول اليه غرام وإنما تقول : له ، فقال له الانصاري العرب
تقول اليه ولديه وله وحروف الخفظ ينوب بعضها عن بعض ؛ والوزير ابو بكر
بن صالح الروز بادي حاضر والوزير ابو الفضل جعفر بن الفرات حاضر ، فقال
الانصاري قصيدة منها هذان البيتان يعرض فيها بالمتنبي :

لما تعرض لي بمقت حاسد ابدى الملام وكيف يرضي الحاسد
ما زال ينشد قائماً حتى اذا انشدت عارضني لاني قاعد

* * *

 لم يستطع المتنبي بعد هذا كله ان يطيل الاقامة بمصر ، ولعل مدحه لابي شجاع

فائز المعروف بالجنون قد زاد في حق كافور وان كان كافور قد أذن له في مده،
فان في القصيدة التي مدحه بها ينتأ بحمل كافوراً على الشك في امر المتنبي :
وان تكن محكمات الشكل تمنعني ظهور جري فلي فيهن تصحال
وقد قال الواحدى في تفسير هذا البيت : ان لم اقدر على المكاشفة بنصرتك
على كافور فاني امدحك الى اوان ذلك كما ان الجواب اذا شكل عن الحركة صهل
شوقاً اليها :

من اجل هذا كله فكر المتنبي في الخروج من مصر وقد حثه احد معارفه على
الهرب فآخر قصيدة قالها في كافور :

مني كن لي ان البياض خضاب فيخفي بنيبيض القرون شباب
وانقطع ابو الطيب بعد انشاده هذه القصيدة لا يلقى الاسود الا ان يركب
في سير معه في الطريق ثم بجعل الرحيل وقد اعد كل ما يحتاج اليه على عمر الايام
بلطف ورفق ولا يعلم به احد من غلمانه وهو يظهر الرغبة في المقام وطال عليه
التحفظ فرجو دفن الرماح في الرمال وحمل الماء على الابل لعشر ليال وتزود لعشرين
فكان خروجه من مصر سنة خمسين وثلاثمائة فاقام بمصر اربع سنين بوجه التقرب

وفي يوم عرفة اي قبل مسيره بيوم واحد قال قصيده :

عيد باية حال عدت يا عيد بما مضى ام لامر فيك تجدد
وفي هذه القصيدة يدل على استمرار الناس في حسده وعلى اسلام هذا
الحسد ايات :

ماذا اقيت من الدنيا واعجبه اني بما انا شاك منه محسود
هرب ابو الطيب من مصر في يوم العيد من سنة خمسين وثلاثمائة، وانهى
طريقه فلم يظهر له اثر وبذل كافور في طلبه ذخائر الرغائب وكتب الى عماله
وسائر اعماله فأخفق .

ضرب المتنبي في البوادي في طريقه الى السكوفة لمرة باماكن ومياه كثيرة
ذكرها في قصيده التي او لها :

الا كل ماشية الخيزلى فدى كل ماشية الميدبى

ولكن عبيده تنكروا له في الطريق وفسدت نياتهم واخذوا يسرقون له الشيء بعد
الشيء من رحله وذلك ان ابا الطيب لما نزل في طريقه الى الكوفة في حسمى برجل
يقال له وردان الطائى استغوى وردان عبيد ابى الطيب فلما شعر المتنبى بذلك
ضرب احد عبيده بالسيف فأصاب وجهه وامر العلمان فأجهزوا عليه ، والى ذلك
أشار في هجاء وردان :

} أشد بعرسه عن عبيدي فاتلفهم ومالي أتفوه
} فإن شقيقت بايد لهم جيادى لقد شقيقت بمنصلي الوجه

ـ تنكر عبيده له وربما أضمروا تسليمه فتركهم في ذات ليلة نيااماً وشد على
الجمال وسار القوم لا يعلمون برحيله حتى توسيط بسيطة وهي أرض تقرب
من الكوفة فرأى بعض عبيده نوراً يلوح فقال : هذه منارة . ونظر آخر الى
نعامة فقال : هذه نخلة فضحك ابو الطيب وقال :

بسقطة مهلا سقيت القطاراً تركت عيون عبيدي حيارى
فظنوا النعام عليك التخيل وظنوا الصوار عليك المنارا

ـ ومن هذا يتبين لكم ما كنت قلت من ان ابا الطيب أخذ يتكلم بكلام الملوك ،
فقد صار له عبيد وغرق في المكارم .

ـ ومازال يضرب في البوادي حتى وصل الى الكوفة فانما وركز رماحه بين
المكارم والعلى :

فلما أنخنا ركزنا الرما - ح بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبل أسيافنا ونمسحها من دماء العدى

ـ هل طمع سيف الدولة في عودة المتنبىء ائمه بعد رجوعه الى الكوفة ؟
لما عاد ابو الطيب الى الكوفة وأقام فيها تحركت نفس سيف الدولة فشاقتها
قلائد المتنبىء فانقضى سيف الدولة ابنه من حلب الى الكوفة ومعه هدية الى المتنبىء
ووهذا ما بدلنا على تعلق سيف الدولة بابي الطيب فكان أمير حلب ندم على مآفاته

فأَحَبَّ أَنْ يَصْلِحَ مَا أَفْسَدَهُ، فَدَحَّهُ أَبُو الطَّيْبِ وَكَتَبَ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوْلَاهَا:
مَا نَاهَا كُلَّنَا جَوَ يَارْسُولَ أَنَا هُوَ وَقَلْبُكَ الْمُتَبَولُ

الَّتِي مِنَ الْكُوفَةِ سَنَةِ ثَنَتِينَ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَةَ أَيَّامَ بَعْدِ ارْتِفَاعِهِ انقطعت مدائنه
فِيهِ مَدَةُ سَتِينَ سَنَةً، وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ مَا يَدِلُ عَلَى أَنَّ فِي قَلْبِ أَبِي الطَّيْبِ بَقِيَةَ
مُحِبَّةِ لِسَيفِ الدُّولَةِ وَإِنْ وَقَعَ بَيْنَهُمَا مَا وَقَعَ بَيْنَ

مِنْ عِبَديِي أَنْ عَشَّتْ لِي الْفَ كَافُورُ وَلِي مِنْ نَدَاكَ رِيفُ وَنَيلُ
وَلَمَّا تَوَفَّتِ اخْتَ سَيفِ الدُّولَةِ بِمِيَافِارِقَيْنَ وَوَرَدَ خَبَرُهَا إِلَى الْكُوفَةِ عَزَّاهُ بَهَا
الْمُتَنَبِّيُّ وَكَتَبَ بِقَصِيدَتِهِ إِلَيْهِ سَنَةِ ثَنَتِينَ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَةَ أَيَّامَ، وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَحَبَّ
الْمُتَنَبِّيُّ أَنْ يَنْفِي عَنْ نَفْسِهِ الظَّنِّ بِفَتُورِ مُحِبَّتِهِ لِسَيفِ الدُّولَةِ فَقَالَ:

يَظْنُ أَنْ فَوَادِي غَيْرَ مُلْتَهِبٍ وَإِنْ دَمَعَ جَفُونِي غَيْرَ مُذْسَكِبٍ
بَلِّي وَحْرَمَةُ مَنْ كَانَ مَرْأَيَةً لِحُرْمَةِ الْمَجْدِ وَالْقَصَادِ وَالْأَدَبِ
وَالْقَصِيدَةِ فِيَاضَةُ بِشَعُورِ أَبِي الطَّيْبِ.

وَلَكِنَّ سَيفَ الدُّولَةِ لَمْ تَكْفِهِ مَدَائِعُ الْمُتَنَبِّيِّ عَنْ بَعْدِ فَانَّهُ طَمَعَ فِي رَجُوعِهِ إِلَى
ظَلَالِهِ فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ كَتَابًا بِخَطْهِ إِلَى الْكُوفَةِ يَسَّأَلُهُ الْمَسِيرُ إِلَيْهِ فَأَجَابَهُ بِقَصِيدَةٍ أَرْسَلَهَا
إِلَيْهِ فِي مِيَافِارِقَيْنَ وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ثَلَاثَ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَةَ أَيَّامَ
وَاعْتَدَرَ الْمُتَنَبِّيُّ عَنِ الْإِلْتَحَاقِ بِسَيفِ الدُّولَةِ وَقَالَ:

وَمَا عَاقِيَ غَيْرَ خَوْفِ الْوَشَاءِ وَإِنَّ الْوَشَائِيَاتِ طَرْقَ الْكَذْبِ
وَتَحْكِيمَ قَوْمٍ وَتَقْلِيلِهِمْ وَتَقْرِيبِهِمْ بِيَنْتَنَا وَالْخَبِبِ
وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُمْ سَمْعَهُ وَيَنْصُرُنِي قَلْبُهُ وَالْحَسْبُ
وَعَاتَبَ سَيفَ الدُّولَةِ عَلَى شَدَّةِ مُحِبَّتِهِ إِيَّاهُ وَعَلَى قَلَةِ حَظِّهِ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْمُحِبَّةِ
وَالْآيَاتُ كُلُّهَا تَعْرِيضٌ بِالْمَاضِيِّ:

وَلَيْتَ شَكَانِكَ فِي جَسْمِهِ وَلَيْتَكَ تَجْزِي بِيَغْضُ وَحْبِ
فَلَوْ كُنْتَ تَجْزِي بِهِنْلَتِهِنْكَ أَضْعَفَ حَظَ باقِويِ سَبْبِ
أَقَمَ الْمُتَنَبِّيُّ بِالْكُوفَةِ بَعْدَ رَجُوعِهِ مِنْ مَصْرِ مَدَةِ سَنَتَيْنِ بِوْجَهِ التَّقْرِيبِ أَيُّ مِنْ

سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة سُمّ توجه نحو بغداد فوق بيته وبين أبي علي الحاتمي ما وقع^(١) فالظاهر أن أبا الطيب لما قدم دار السلام عظم احتقاره لغيره من الناس فقللت وطأته على أهل الأدب وكان أبو علي الحاتمي قد قصده في مجلسه فلم يبال به المتني وأعرض عنه استصغرًا لشأنه فكاد أبو علي يتميز غيظاً حتى انبرى له وبالغ في تعنيفه فأعتذر المتني عن ذنبه وأقبل كل منهما على صاحبه ثم أخذ أبو علي ينقد بعض شعر المتني واشتد جدالهما ثم تصافيا في آخر المجلس وتآكدت بينهما الصحبة، وصار أبو علي يتعدد إلى أبي الطيب أحياناً.

ولما نجا المتني من شر أبي علي وقع في شر الوزير المهلبي في بغداد وفي شر معن الدولة نفسه لأن معن الدولة ساءه أن يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه ولأن الوزير المهلبي ساءه ترفع أبي الطيب عن مدحه ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك فشق ذلك على المهلبي فأغرى به شعراء بغداد على ما قال تعالى حتى نالوا من عرضه وتباروا في هجائه واستمعوه ما يكره وتماجنو به وتناولوا عليه فلم يجدهم ولم يفكروا فيهم وقيل له في ذلك فقال أني فرغت من اجابتكم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعر :

أري المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمل الداء العضالا

ومن يك ذا فم مريض يجد مراً به الماء الزلا

وقولي :

أفي كل يوم تحت ضبني شو يعر ضعيف يقاويني قصير يطاول

لساني بنطي صامت عنه عادل وقلبي بصمت ضاحك منه هازل

وأتعب من ناداك من لا تحييه واغيظ من عاداك من لا تشاكل

وقولي :

و اذا أتنك ملنتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل

(١) تفصيل الخبر في الصبح المتني

هكذا كانت معاملة الشعراء لابي الطيب في بغداد على ما وصفها الشعالي فلم يسم المتنبي الا المقرب من بغداد .

فاتخذ الليل جلا وفارق دار السلام متوجهاً الى حضرة ابي الفضل بن العميد وزير ركن الدولة وقد كان ابن العميد راسله من ارجان فسارة اليها مراجعاً للمهلي الوزير فوراً ارجان واحد مورده وذلك في صفر سنة اربع وخمسين وثلاثمائة . وقد كان ابو الطيب في مدحه لابن العميد يتهبه لمنزلة ابن العميد في الادب

فمن قوله فيه :

[١] ما كفاني تقصير ما قلت فيه عن علاه حتى ثناه اعتقاده
انني أصيיד البذلة ولكن اجل النجوم لا اصطاده
رب ما لا يعبر اللفظ عنه والذى يضم الرؤاد اعتقاده
ما تعودت ان أرى كأبي الفضل وهذا الذي أثاره اعتقاده
وحكى ان ابا الطيب دخل مجلس ابن العميد وكان يستعرض سيفاً فنهض
ابن العميد من مجلسه وأجلسه في دسته ثم قال له اختر سيفاً من هذه السيف فاختار
منها واحداً ثقيل الحلى ، واختار ابن العميد غيره ، فقال كل واحد منها سيفي الذي
اخترته أجود ثم اصطلاحاً على تجرتها فقال ابن العميد : فهذا تجرب بما ؟ فقال ابو
الطيب في الدنانير يؤتى بها فينضد بعضها على بعض ثم تضرب به فان قدماها فهو
قاطع فطلب ابن العميد عشرين ديناراً فنضدت ثم ضربها ابو الطيب فقدماها وتفرقـت
في المجلس فقام من مجلسه المفخم يتقطط الدنانير المتبددة فقال ابن العميد ليلزم
الشيخ مجلسه فان احد الخدم يلقطها ويأتي بها اليك فقال ابو الطيب : بل
صاحب الحاجة اولى .

ثم ورد عليه كتاب عضد الدولة يستزره فودع ابو الطيب ابن العميد سنة
اربع وخمسين وثلاثمائة وقصد ابا شجاع عضد الدولة وقد كان الصاحب طمع
في زيارة المتنبي ، اياه باصبهان على ما ذكره الشعالي واجراه مجرى مقصوديه من
رؤساء الزمان وهو اذ ذاك شاب وحاله حويلة ولم يكن استوزر بعد ، وكتب

إليه يلطفه في استدعائه وضمن له مشاطرته جمیع ماله فلم یقم له المتنبی وزناً ولم یجده عن كتابه ولا الى مراده فاتخذه الصاحب غرضاً برقشه بسهام الواقعة ويتبع عليه سقطاته في شعره وھنواته وینعی عليه سیئاته وهو اعرف الناس بحسناه وأحفظهم لها وأکثرهم استعمالاً لها وتمثلاً بها في محاضراته ومکاتباته .

لم یخرج ابو الطیب على حضرة الصاحب وإنما قصد عضد الدولة بشیراز وكان ابو على الفارسي اذ ذاك بشیراز وكان من المتنبیء الى دار عضد الدولة على دار ابی علي الفارسي فكان اذا من به ابو الطیب يستقبله على قبح زیه وها يأخذ به نفسه من الكبرباء ، وكان لابن جنی هوی في ابی الطیب فهو کثیر الاعجاب بشعره لا يیالي باحد يذمه او يحط منه ، وكان یسووه اطناب ابی علي في ذمه حتى ذکر ابن جنی لیاناً من شعر ابی الطیب فاستحسنها ابو علي واستعادها وكثير اعجبها بها واستغراها لمعناها ولما علم ابو على الفارسي ان المتنبیء هو قائل هذه الایيات نھض ودخل على عضد الدولة فانقضی على ابی الطیب ولما جاز به استنزله واستنشده وکتب عنه لیاناً .

وکان ابا الطیب قد استطاب الاقامة بظل عضد الدولة فقد انجحت سفرته على ما ذکره الشاعری وربحت تجارتہ بحضورته ووصل اليه من صلانه أکثر من مائی الف درهم ثم استأنفه في المسیر عنه ليقضي حواجز نفسه ثم یعود .

لعل الله یجعله رحیلاً یعين على الاقامة في ذرا کا فاذن له وأمر بان تخليع الخلع الخاصة ويقاد اليه الملآن الخاص وتعاد صلته بالمال الكثیر فامثل ذلك وانشد ابو الطیب في اول شعبان سنة اربع وخمسين وثلاثمائة الكافية التي هي آخر شعره وفي اضعافها کلام جرى على لسانه کائنہ ینعی فيه نفسه منه قوله :

وانی شئت یاطری فکونی أذاة او نجاۃ او هلاکا

جعل قافیة الملائک فذلك انه سار من واسط يوم السبت لثلاث عشرة لیلة بقیت من شهر رمضان سنة اربع وخمسين وثلاثمائة ومعه ابنه محمد وغلامه

و معه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والفضة والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والآلات لانه كان اذا سافر لم يخلف في منزله درهماً ولا شيئاً يساويه فتعرض له فانك خال ضبة الذي هجاه المتنبي به صيغته المشهورة (١)

ما انصف القوم ضبة

وقد كان داخلته الحمية لما سمع ذكر اخته بالقبح في شعره، واتصل به انصراف المتنبي من بلاد فارس وتوجه الى بلاد العراق وعلم ان اجيازه بجبل دير العاقول فجمع عشرين رجلا منبني عمه فقتلهم بضيوعة تقرب من دير العاقول في يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان وقتل ابنه محمد وغلامه فوجه احد معارف المتنبي واسمه ابو النصر من دفنه ودفن ابنه وغلامه وذهبت دماءهم هدرأ .

وقد كان ابو النصر هذا نصح للمتنبي أن يكون معه في الطريق جماعة يمشون بين يديه الى بغداد وذكر ما عزم عليه فانك من التعرض له والعزم على قتله ووافق غلام المتنبي على رأي ابي النصر فقطب أبو الطيب وجهه واغتاظ من غلامه غيظاً شديداً وشتمه شتماً قبيحاً ، فقال له ابو النصر : انا أوجه من قبل قرماً في حاجة يسيرون بمسيرك وهم في خفارتك فابي ابو الطيب فكان من أمره ما كان .

(وقيل سبب قتله انه لما ورد على عضد الدولة ومدحه ووصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس مسرجة مخلافة دس عليه عضد الدولة من يسائله : أين هذا من عطاء سيف الدولة فقال : ان سيف الدولة كان يعطي طبعاً وعطاء عضد الدولة تطبعاً فغضب عضد الدولة فلما انصرف جهز اليه قوماً منبني ضبة فقتلوه بعد ان قاتل قاتلاً شديداً ثم انهزم فقال له غلامه : اين قولك :

الخيل والليل والبيداء تعرفي و السيف والرمح والقرطاس والقلم
قال : قتلتني قتلك الله ثم قاتل حتى قتل .

وقيل ان الخفراً جاءوه وطلبوها منه خمسين درهماً ليسروا معه فنعته الشع
فقدموه ووقع به ما وقع .

(١) تفصيل الخبر في الصبح المتنبي .

ولما قتل رئاه ابو القاسم مظفر بن المظفر بن الطبسي ، ورئاه ثابت بن هارون
الرقى النصراني ، وابو الفتح عثمان بن جني .
هكذا كانت خاتمة إحدى وخمسين سنة انقضت في قلق واضطراب ، هكذا
كانت خاتمة قلب ماله مدى ينتهي بصاحبها في مراد من المرادات لقد همدت هذه
الروح التي جالت فيما أفكار الناس مدة الف سنة ونيف (٢)

١٢ نيسان سنة ١٩٣٠

أخلاق النبي

١٠

ليس من المستسهل ان أخوض في شيء من الكلام على أخلاق النبي وعلى طبائعه وعلى المخصوص فان ابا الطيب لم يكتب ترجمته بقلمه وان اهل عصره لم يهض لهم قول وافٍ في هذا الباب فلا ذرف هيئته ولا نعرف تركيب خلقته ولو كنا نحيط بطائفة من هذا الامر لاستطعنا ان نستدل بذلك بعض الاستدلال على معرفة اخلاق النبي وطبائعه؛ فاوصل اليانا من اقوال اهل زمانه في هذا الموضوع لا ينفع غليلًا.

ان أبا عبد الله معاذ بن اسحيل اللاذقي لما قدم عليه النبي في سنة عشرين وثلاث مائة أي لما كان عمره سبع عشرة سنة وصفه فقال: قدم اللاذقية وهو لا عذر له، وله وفرة الى شحمي اذنيه، فاكرمه وعظمته لما رأيت من فصاحته (وحسن سمته) وأضاف الى هذا كله انه لم يسمم منه كلبة هزل فقط (١).

والذى أعلمنا به ابو الفرج وقد كان ابو الطيب يائس به ويائمه على غيبته ان سيف الدولة كان يغتاظ من تعاظم النبي

وقد عاتب ابو عبد الله بن خالويه سيف الدولة لما غمز غلامانه على النبي فقال له سيف الدولة: يتعاظم تلك العظمة وينزل تلك المنزلة لو لا حماقته

وحكى عن أبي حمزة البصري انه بلا من ابي الطيب خللاً محموده منها عفة المذهب والصدق وبلا منه ثلات خلال ذميمة وذلك انه ما صام ولا صلي ولا قرأ القرآن (٢)

(١) جاء في رسالة الغفران في الصفحة ١٣٥ ما يلي: وحدثت ان ابا الطيب

ووصفه ان فور جهه فقال فيه: كان داهية من اللسان شجاعاً حافظاً للآداب

عارفاً بأخلاق الملوك ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشره على المال .

والذى دلنا عليه الوحدى أن المتتبى كان سيء الرأي وسوء رأيه اخرجه من
حضره سيف الدولة وعرضه لعداؤه الناس .

— وقد ذكر أبو علي الحاتمي أن أبا الطيب المتتبى عند وروده بمدينة السلام
قد التحف برداء الكبيرة والعظمة فلا يرى أحداً إلا ويرى لنفسه هزيمة عليه حتى
ثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام وبلغ من شذوذه أنه ليس مرة سبعة
أقبية ملونة وكان الوقت أحر ما يكون من الصيف وأحق بتخفيف اللبس وشهد له
ابو علي هذا بالفضيلة وصفاء الذهن وجودة القدر

وكان أبو علي الفارسي قبل معرفته بالمتتبى يستقله على قبح زيه وعلى ما
كان يأخذ به نفسه من الكبرياء .

* * *

هذا ما تناهىلينا من وصف بعض ظواهر المتتبى وبواطنه بوجه التقريب
ولم يكن في مختلف هذا الوصف شيء من الخروج من المقدار ، فنتحقق أن
الرجل كان قليل الميل إلى الهزل فإن روحًا مثل روحه نزاعة إلى العظمة والعلو
لا شأن لها في الهزل فقد كانت حياته جداً كل الجد ليس فيها متسع للهزل وإن
رجلًا يضرب في مناكب الأرض ، بواديها وحواضرها ابتغاء لامرجلَّ أن يسمى
يقولون لي ما انت في كل بلدة وما تبتغى ، ما ابتغي جلَّ أن يسمى
ان رجلاً هذا هو مطعمه في الحياة لا بجد لغير الجد معنى ، ولئن عبث في

قوله وقد من برجلين قد قيلا جرداً وابراهيم عجبان الناس من كبره :

وأيكم كان من خلفه فان به عصبة في الذنب

- أيام كان اقطاعه بصف رؤي يصلى بموضع بمعمرة النعمان يقال له كنيسة الاعراب
وانه صلى ركعتين وذلك في وقت العصر فيجوز ان يكون رأى انه على سفر وأن
القصر لما جائز .

أو في قوله الآخر:

اذا شاء ان يلهم بلحية احق اراه غباري ثم قال له: الحق

فما كان العيب من مذهبك

ومن المحقق ان ابا الطيب كان صادقاً عنيف المذهب:

ومن هو الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعر في الرأس مكذوب
فلاسنا نجد في اضعاف شعره نزعة الى اللهو والطرب فقد كان ينظر الى الحياة
من ناحيتها السوداء وقلما نظر اليها من الناحية البيضاء اللامعة، فما تغنى في شعره
 بشيء من نضارة الحياة ولذتها وإنما اعرب في شعره عن الالم، وقلما يجتمع اللهو
 وألم النفس، وللهو نفوس لا سيل للالم اليها، أما الآيات التي تدل على الم روحه

فهي كثيرة فنها:

فؤاد ما تسليه المدام عمر مثل ما تهب اللئام

ومنها:

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصربت اذا اصابتني سهام تكسرت النصال على النصال
ولقد اكثر من الاشارة الى تضافر المصائب، فمن قوله في مصر وقد اصابته حمى
أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت انت من الزحام
وفي هذه القصيدة يقول:

وان اسلم فما أبقى ولتكن سلمت من الحمام الى الحمام

خياته في نظره موت له فما اقل سروره !

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير امته من سالف الامم
أقى الزمان بنوه في شبنته فسرّهم واتيناه على الهرم
على انه قد جاء في شعره ما يدل على ذوقه شيئاً من اللذات ففيه قوله:
در در الصباء ايام تجري بر ذيولي بدار أثلة عودي

ومنه قوله:

أيُّمْ وَلِئَنْ فَلِلَامُورْ أَوْ أَخْرَى
أَبْدَا إِذَا كَانَتْ لَهُنْ أَوْ أَنْ
مَا دَمْتَ مِنْ أَرْبَعِ الْحَسَانِ فَإِنَّمَا
رُوقُ الشَّابِ عَلَيْكَ ظَلِيلٌ
قَبْلَ يَزْوَدُهَا حَبِيبٌ رَاحِلٌ
وَلَكَ مَذْهَهٌ فِي اللَّذَاتِ الْعَفَةِ التَّامَةِ

أَنِي عَلَى شُغْفِي بِمَا فِي خَرْبَهَا لَأَعْفُ عَمَّا فِي سَرَابِلَاهَا
وَتَرِي الْمَرْوَةُ وَالْفَتْوَةُ وَالْأَبْوَةُ فِي كُلِّ مَلِيْحَةٍ ضَرَاطِهَا
هُنْ الْثَلَاثُ الْمَانَعَاتِيُّ لِذِيِّنِي فِي خَلْوَتِي لَا تَخُوفُ مِنْ تَبَعَاتِهَا
نَعَمْ هَذَا هُوَ مَذْهَهِي : الْمَرْوَةُ وَالْفَتْوَةُ وَالْأَبْوَةُ ، وَانْ يَنْتَأَ مِثْلُ هَذَا الْبَيْتِ .

أَذَا كَانَ الشَّابُ السَّكْرُ وَالشَّيْءُ بِهِمَا فَالْحَيَاةُ هِيَ الْحَمَامُ
لَا يَصْدُرُ عَنْ قَلْبِي قَضَى صَاحِبِهِ شَرُّ الشَّابِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْلَّهُ وَفِي شَيْءٍ
مِنْ تَوَابِعِ الْلَّهِ فَمَا أَصْدَقُهُ فِي هَذَا الْكَلَامِ :

وَمَا كَنْتُ مِنْ يَدْخُلُ الْعُشْقَ قَلْبِي

* * * *

٢٣

أَمَا شَجَاعَتِهِ فَلَا رَبِّ فِيهَا وَانْ رَجَالًا يَقُولُونَ لَهُ : كَنْتَ لَكَ جَمَاعَةٌ تُرِيدُ بِكَ
الْشَّرُ فَنَخَذَ مَعْلَمَهُ مِنْ يَسِيرٍ بَيْنَ يَلِيلَكَ فَيَعْتَظَ مِنْ هَذَا القَوْلِ غَيْظًا شَدِيدًا وَيَقُولُ :
وَاللهِ لَا أَرْضَى أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ بَانِي سَرَتْ فِي خَفَارَةٍ أَحَدُ غَيْرِ سَيِّفِي مَنْ رَجَالٌ
مِثْلُهُ يَحْذَرُ وَنَهُ مِنَ الْمَوْتِ فَلَا يَبَالِي بِتَحْذِيرِهِمْ ، اسْتَصْفَارًا لِشَأنَ الْمَوْتِ
وَاحْتِقارًا لِمَنْ كَنَّ لَهُ ، فَيَقُعُ فِي الْذِي حَذَرُوهُ مِنْهُ ، لَا يَدْخُلُ الْخُوفَ فِي قَلْبِهِ وَلَقَدْ
أَعْانَهُ عَلَى هَذِهِ الشَّجَاعَةِ صَحْبَتْهُ لِلْأَعْرَابِ وَالْفَنَّهُ لِغَزوَهُمْ وَسَيِّرَهُ فِي الْبَوَادِي
وَمَصَاحِبَتْهُ لِسَيِّفِ الدُّولَةِ فِي كَثِيرٍ مِنْ غَزوَاهُ (فَالرَّجُلُ كَانَ شَجَاعًا لَا شَكَ فِي
شَجَاعَتِهِ وَالَّذِي يَرِي حَيَاةَ مَوْنَأً يَسْتَوِي عَنْهُ الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ)

وَغَایَةُ الْمُفْرَطِ فِي سَلْمَهِ كَغَايَةُ الْمُفْرَطِ فِي حَرْبِهِ

فَلَا قَضَى جَاجَتَهُ طَالِبٌ فَوَادَهُ يَخْفَقُ مِنْ رَعْبِهِ

وَأَمَا شَرِهِ عَلَى الْمَالِ فَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِي نَفْدَ ذَاقَ الْمُتَنَهَّى فِي جَدَاثَةِ سَنَهِ أَلْمَ الْفَقْرِ

فازال يسعى في طلب المال حتى اجتمع له شيء منه فرصة على ثروته ولم يبذر ولا يعرف قيمة المال الا الذي يتعب في جمعه ~~والمتنبي لم يعن من غير ان يساوره كثير من~~
الالم واي ألم أعظم من ألم الحساد فهل يلام على حرصه ولا سيما ان الرجل كان محسدا الشأن حتى كان حساده يتمنون موته . فكانوا يبغضونه ويترصّون به الدوائر، هل يلام على اتخاذه المال جنة يدفع بها عن نفسه اذا اعرضت الدنيا عنه في يوم من الايام فاذا كان يلاقي منهم غير الشهادة ، على اني اعتقد ان الرجل كان مة تتصدأ و لم يكن بخليلا والفرق بين البخل وبين الاقتصاد ظاهر فـا أظن أن ابا الطيب كان من البخلاء الذين ينشأوا بخلهم عن مرض من امراض العقل فلا يجدون لأنفسهم سلطاناً عليه وانما كان مقتضاً يحسب للأمور حساناً وبعد لها عذتها حتى لا يفاجئه الزمان بمكارهه .

١٥

واما صرف عقيدته ورقة دينه فهذا أمر صحيح وكثيراً ما قرع المتنبي هذا الباب كما قال الشعاليبي وقد رویت لكم الآيات التي دلت على أخلاله بالدين واستهانته بامرها والظاهر ان الرجل كان على مذهب المشككين
لـ تختلف الناس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخاص نفس المرء سالمه وقيل تشرك جسم المرء في العطاب

* * *

ولـ كن اظهر اخلق المتنبي التعظام وقلة المداراة وقد اثبت هذه الاخلاق ما كان يقع له في مجالس سيف الدولة و كافور وفي بغداد ، فابو الطيب كان فليلا المداراة للناس وقد شهدتم كيف كان يتعرض لا كبار الادباء ، ويستأنس بتجاهيلهم وليس معنى هذا ان ابا الطيب كان يجهل بعواقب تعرضه للناس وبخواتيم قلة المداراة ولكن الرجل كان شاذ الحلق ، يصعب عليه ان يداعي ويداري ولو فعل شيئاً من ذلك ملك القلوب ونحن نشاهد في عصرنا من لا يداعي ولا يداري فتنقبض القلوب عنه و يبسطون السنتهم فيه والناس ينقادون عادة من نواحي العاطفة والهوى ، فرب انسام بنسامة يزرع ما يقر في الصدور من غل أو حقد

ورب تقطيب نقطبه بغرس لنا البخضاء في القلوب ؛ هذه هي طبيعة البشر ولكن ابا الطيب اكبر من أن يحتاج الى شيء من المداراة والمداجاة فكان يجري على طبيعته لا يعبأ بشيء من غضب الناس عليه او طعنهما فيه فان له من الثقة بخلود عهديته ما يجعله يحتقر او لئك الغاصبين الطاغعين .

للتثنائي الذي اصوغ ذري من صيغ فيه فانه خالد فالطعن على اهل العبرية يذهب جفاء وتمكث عبريتهم في الارض فلا الافراط في الشاء على اهل البلاهة يمهد لهم سبيلا الى الخلود ، ولا الافراط في تقص اهل العبرية يغلق الابواب في وجهه خلودهم ، نعم كان ابو الطيب يعرف هذا كله ولكنه ارفع من ان 'يسف' الى المداجاة والمداراة وما داجى ولا دارى الا كل من لا يشق بقوه نفسه وكل من يحتاج الى قوه غيره ويستعين بها على حياته . على ان ابا الطيب كان يحاري الناس في بعض الاحيان في الخداع وما يحواراته هذه الا هزء بالناس .

ولما صار ود الناس خباء جزيت على ابتسام بابتسام وصرت أشيك فيمن أصطف فيه لعلني انه بعض الانام فالرجل كان قليل المداراة وقلة مداراته اوغررت الصدور وهاجت الضغائن ولكن ابا الطيب كان يسخر من حسد الحساد واغتياظ المغناظين فلم يفكر فيهم ولا شغل ذهنه بهم فقد سلّح الادب بآيات سلاحا يهزأ بثرثرة الترثار ، وهدر المدار ، فأجاد حاجة الى ان أعيد هذه الآيات وقد سمعتموها في المجلس الماضي ويكتفي أن أشير منها الى بيت واحد :

ومن يك ذا فم مريض يجد مرأ به الماء الزلالا او الى بيت آخر :

وأتعب من ناداك من لا تجيئه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل بهذه الآيات وأشباهها كان المتبني يسحق المطاولين للحقيقة فيه فما أصدق الذي وصفه بمرارة اللسان واي مرارة امر من هذه المرارة ولو جمعوا كل ما

قالوه فيه من طعن لما وازن حرقاً من هذه الآيات :

بذى الغباوة من انشادهاضرر كلام تضر رياح الورد بالجعل .

نعم كان ابو الطيب هر اللسان فاذا غضب على احد اذاته مراة هذا اللسان
فانه لما فارق سيف الدولة لم ينج سيف الدولة من قوارصه وفي اول قصيدة قالها
في كافور اثر من هذه القوارص :

حبتيك قلبي قبل حبك من نائى وقد كان غدرآ فكن انت وافيا
 واعلم ان البين يشكيك بعده فلست فؤادي ان رايتك شاكى
 فان دموع العين غدر برها اذا اصكـنـ امير الغاردين جواريا
 اذا الجود لم يرزق خلاصا من الاذى فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا
 وللنفس اخلاق تدل على الفتى اكان سخاء ما اتى ام تساخيا

فهذا الشعر كله ثوريض بملك حلب والظاهر أن سيف الدولة كان يقول
المتنبي في عطایاه فكان ينعم عليه ولكنـه كان يبطـل نعمـتهـ بالـمنـ والـاذـىـ فـاـذاـ تـأـخـرـ
 مدح ابي الطيب عنه تنكر له في الحال ^(١)

ارى ذلك القرب صار ازورا را وصار طويل السلام اختصارا
 تركتني اليوم في خجلة اموت مراراً واحيا مرارا
 اسارتك اللحظ مستحيياً واجر في الخيل مهري سرارا
 فكان المتنبي يضطر إلى الاعتذار

كفرت مكارمك الباهرات ان كان ذلك مني اختيارا
 ولكن حـىـ الشـعـرـ الـقـلـيلـ هـمـ حـىـ النـوـمـ الـغـرـارـاـ
 ولا يخفى ما في الاعتذار من اعنة النفس والتشديد عليها ، و اذا علمـناـ أنـ
 الشاعـرـ قدـ تـعـرـضـ لـهـ فيـ بـعـضـ الـحـالـاتـ عـوـارـضـ يـعـافـ فـيـهاـ حـيـانـهـ فـيـسـتعـصـيـ عـلـيـهـ
 (١) كان سيف الدولة اذا تأخر عنه مدح المتنبي شق علىـهـ وـأـكـثـرـ أـذـاهـ
 وأـحـضـرـ مـنـ لـاـ خـيرـ فـيـهـ وـتـقـدـمـ إـلـيـهـ بـالـتـعـرـضـ لـهـ فـيـ مجلـسـهـ بـمـاـ لـاـ يـحـبـ فـلـاـ يـحـبـ
 ابو الطيب أحداً عن شيء .

الكلام ادركتنا الالم الذي كان يساور ابا الطيب في اذوار سيف الدولة عنه اذا
أبطأ عليه مدحه . فكان سيف الدولة يقول له انا اشتريت شعرك بالمال وقد
اخذت مالي فاعطني شعرك ، وكل هذا لا يخلو من منتهى وادى وكل هذا لا يخلو
من ايام وابياع ، وعلى الخصوص اذا كانت الروح الاليمه مثل روح أبي الطيب
يحرکها أقل شيء ومن الذي يحق له ان يلجا الى الملة أسيف الدولة ام المتنبي ؟
افكان سيف الدولة لو لا المتنبي الا ملكاً من اولئك الملوك الذين ذهبوا بين نعم
الارض وبصرها ولم يبق لهم الا القليل من الذكر ، افكان سيف الدولة لو لا ابو
الطيب يخلد هذا الخلود على شبيبة الزمان وعلى هرمه ، فالمتنبي لم يسيء الى سيف
الدولة وانما سيف الدولة هو الذي بدأ بالاساءة ومع هذا كله فقد كان في قلب
ابي الطيب بقية محبة لسيف الدولة بعد الانصراف عنه

رمى واتقى رمي و من دون ماتقى هو كسر كفي وقوسي واسهمي
نعم ترك المتنبي مجالاً للصحبة فلم يغضب على سيف الدولة كل الغضب :

فارق ومن فارقت غير مذموم وام ومن يمم خير ميم

ولما خرج ابو الطيب من مصر الى العراق كتب اليه سيف الدولة بالعوده
اليه وألح عليه فلم يرض بذلك ابو الطيب وهذا يدل على ان اثر الجرح في نفسه بلغه .
نعم غادر المتنبي سيف الدولة ولم ينفع كل ما في قلبه من محبة سيف الدولة
وانما اقتصر على الاشارة الى التنجيص والمن فلم تظهر مرارة لسانه الظاهر كله
ولكنه لما ترك كافوراً عرض علينا هذه المرارة في او ضح معارضها ، فان كافوراً
اساء الى ابي الطيب من اول اتصاله به فقد اظهر له التهمة اول يوم ولم يسمح له
بان ينشده وهو قاعد ، ولم يسمح له بان يجلس في مجلسه ووعده ان يوليه فاختلف
الميعاد وفي خاتمة الامر نوى انت يقتله . أفلام ابو الطيب اذا تشفى من غيظه ،
وعلى الخصوص بعد ان اطعمه كافور في الولاية ولم يذقه حلاوتها وانت تعلمون كم
كانت الولاية تشغله ، أفلام ابو الطيب اذا آذاه كافور فرد اليه شيئاً من الاذى :
اميناً وإخلافاً وغدرأ وخشة وجيناً اشخاصاً لجتلي ام مخازيا

لم يتزبد المتنبي في هذا المحو ، رمى كافوراً بالكذب وقد كذب عليه ، ورمي بالأخلاق وقد أخلف وعده ، ورمي بالغدر وقد غدر به فاراد قتله ، ورمي بالجبن وقد كان يخافه اذا ولاه .

ليس من العجب بعد هذا كله ان تظهر مرارة لسان المتنبي في كافور
ولست انبهكم على موطن من مواطن هذه المرارة فارجعوا الى كل اهاجيه فانها آلم
ما يكون من الشعر

من علم الاسود المخصي مكرمة اقوه البيض ام آباءه الصيد
 ام اذنه في يد النخاس دامية ام قدره وهو بالفلسين مردود
 اولى اللئام كويغير بمعدنة في كل لئوم وبعشن العذر تفنيده
 وذاك ان الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود
 وما هي عطاياها كافور الى جنب ما قاله المتنبي فيه وما هو حظ كافور من
 الخلود لولا شعر ابي الطيب الذي خلده .

على ان ابا الطيب لم يكن قليل الوفاء فما عرض بسيف الدولة الا لان سيف
 الدولة كان يؤلمه في عطايته ، وما اخش في هجاء كافور الا لان كافوراً أراد
 قتله ولقد وفي بعض العهود وفاه دل على أن الرجل كان صادقاً الود فقد توفي ابو
 شيجاع فانك بمصر سنة خمسين وثلاثمائة فرثاه المتنبي بعد خروجه منها ، اي
 بعد انقطاع رغبته في كل عطية من عطاياها فانك ، وتوفيت اخت سيف الدولة
 بعدها فارقين وورد خبرها الى الكوفة فرثاها ابو الطيب وعزى اخاهها بها سنة اثنين
 وخمسين وثلاثمائة ، اي بعد مفارقته سيف الدولة وبعد عزمه على ان لا يعود الى مجالس
 سيف الدولة ، وجاء في هذه القصيدة أبيات دلت على حسن وفاته :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بما لي الى الكذب
 حتى اذا لم يدع لي صدقه املا شرقت بالدموع حتى كاد يشرق بي

شِنْ لَكَمْ أَكَبْرَا وَالْفَقْرُ
 ثَنِينْ لَكَمْ أَكَبْرَا وَالْفَقْرُ
 ثَنِينْ لَكَمْ أَكَبْرَا وَالْفَقْرُ

والكبير ياء وقد يكون تعظيمهم في بعض الاحيان خلقاً ظاهراً يظنه الناس خلقاً باطنأ
 فقد تغش الظواهر فلا تتم عن حقائق البواطن ، ولسنا ندري أكان ابو الطيب من
 أصحاب العنجوية الظاهرة ام تمكنت الكبير ياء من باطنه فكان معظم الظاهر
 والباطن فالذى دل عليه شعره انه أكثر من الفخر بنفسه في كل حال من أحواله
فلا يجب ان ننسى واحد لانه لا شيء له : اذكر المرء

(أمط عنك تشبيهي بما و كانه فما أحد فوق ولا أحد مثلي)

وقد كان يشعر بعجبه ويوضح سبب هذا العجب :

ان أكن معجباً فعجب عجيب لم يوجد فوق نفسه من مزيد
ولكن الذي يزعج في بعض الاحوال ان لفظة (انا) لا يكاد يخلو منها
شعره فلقد حار في الشيء الذي يشبه به نفسه فرة هو صخرة الوادي والجوزاء :
انا صخرة الوادي اذا ما زوحت واذا نطقت فاني الجوزاء

ومرة هو الاديب الذي لا أديب غيره :

انا الذي نظر الاعمى الى أبي واسمعت كلماتي من به صمم
وحينما هو المبدع لكل شيء :

انا الساق المادي الى ما اقوله اذا القول قبل القائلين مقول
وحينما هو السمهري :

واما أنا إلا سمهري حملته فرين معروضاً وراغ مسدداً
وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شمراً أصبح الدهر منشدنا
لقد امتلا أبو الطيب عجباً وأظن انه كان يقلق اهل عصره في بعض الاحيان
بهذا العجب ، فلو حديثنا حدث وأخذ في كل فرصة يحدثنا عن نفسه ويردد
لفظة (انا) لما فرغ من أحاديثه دون ان يغادر في قلوبنا شيئاً من الملل
لقد نتحمل المرء اذا فخر بنفسه مرة او مرتين ، ولكنه اذا جعل هجيراً هذا
الفخر فقد تقلل وطأته علينا ، ولا شك في ان ابا الطيب قد ثقلت وطأته على
أهل عصره في بعض الاحيان .

— (ان تعظمه ظاهر في شعره لا يكاد يخفيه فهو كثير التكلم على نفسه لا يبالي بما ينشيء هذا التكلم كن الآثار في النقوس ولم يقتصر على التغني بجمال عبقريته ولكنه جاوز هذا التغني الى شيء من العجب والفخر ، وقد يكون هذا المذهب مداعاة الى الاضمار؛ اننا نحب ان يذوق الناس محسانا من تلقاء انفسهم أي من دون أن نذيقهم ايها ، اننا نحب ان يشعروا بهذه المحسن من غير ان يشعرهم بها ، فإذا توخيانا اظهارها وتنبيه عليها والاشارة اليها فقد يذهب شيء من آثارها في النقوس وربما عادت هذه المحسن مساوى فابو الطيب كان يحب ان يذيق الناس محسنته بنفسه فهو لا يريد ان يدع لهم مجالا الى ذوقها بأنفسهم ولعل هذا هو السر في ثقل وطأته على الناس مقدماً يكون السبب في جوئه الى هذا المذهب ان الناس كانوا يخسونه حقه ويطمسون من آثار حسناته فكان يضطر الى التنويه بحسناته

وإذا خفيت على الغبي فعاذر ان لا تراي مقلة عياء

نعم كان ابو الطيب متعظا في الظاهر وفي الباطن وكثيرا ما كان يجعل نفسه في أماديه بمنزلة الملك الذين كان يمدحهم :

انما التهنئات للاكفاء ولمن يدّني من العداء

وانما منك لا هنيء عضو بالمرات سائر الاعضاء

وربما كان حظه من مدح نفسه في بعض شعره او في من حظ الممدوحين وقد حمله تعظمه هذا على احتقار الناس وما ذهب عنكم أمر هذا الاحتقار ولقد هزا بكافور نفسه في أماديه فيه، فاخاق به ان يهزأ بغير كافور، فكان كثيرا ما يلجم الى التصغير حتى قال فيه ابو العلاء : ان الرجل كان مولعا بالتصغير لا يقنع من ذلك بخمسة المغير؛ وال الصحيح انه اولع بالتصغير فلم يكتف بتصغير الاحمق :

مقالات للاحياء يا حليم

او بتصغير الشاعر :

افي كل يوم تحت ضبني شو يعر

ولكنه صغر اهل زمانه كلهم :

أذم الى هذا الزمان اهيله

الحسن بن المنبی

١١

عرفنا ناحية من اخلاق المتنبي فلنجدتھ في معرفه ناحية من نواحي احساسه وعواطفه والاحساس «١» انما هو القوة التي تميزنا من بين غيرنا من الناس وتطبعنا بطبعنا الخاص فهو الذي تحدد خصائصه طبيعة دخلتنا اي طبيعة شخصيتنا ودرجة هذه الشخصية ، فالمدارك العقلية لا يختلف بعضها عن بعض الا قليلاً ، واختلافها هذا لا يكون الا من حيث الدرجة فقط ، أي من حيث قوّة نفوذها وضعف هذا النفوذ ، او من حيث سرعة تغلغلها في بوطن الامور وابطاؤها في هذا التغلغل ، ولكن هذه المدارك كلها قادرة من حيث تركيب جو اهراها على فهم الحقائق ، من أجل هذا اتنا لا نجد الا علماء واحداً في الهندسة او في الطبيعيات مثلاً وكذلك ارادتنا فانها لا يختلف بعضها عن بعض الا من حيث قوتها او ضعفها ، اما حواسنا وعواطفنا فانها على خلاف مداركنا وعلى خلاف ارادتنا فهي يختلف بعضها عن بعض من حيث طبائعها فلا لذاتنا ولا آلامنا واحدة في كل رجل منا فالامور التي نلقي فيها لذتنا قد لا يلقي فيها غيرنا الا الالم ، وما أصدق ما قاله المتنبي في هذا المعنى :

سُبْحَانَ خَالِقِنَفْسِيْ كَيْفَ لَذَّهَا فِيمَا النُّفُوسُ تَرَاهُ غَيْبَةُ الْأَلْمِ

وما أصدقه في هذا البيت :

مَاذَا لَقِيْتُ مِنَ الدِّينِيَا وَأَعْجَبَهُ أَنِّي بِمَا شَاكَ مِنْهُ مَحْسُودٌ

فقد يحسدنا الناس على امور يظنونها برداً وسلاماً ونحن لانجدها الا عنة

وعباً ، فالانواع تختلف باختلاف الناس ، هذا الامر يكينا وهو نفسه يضحك

(١) رأي الاستاذ بروتير

غيرنا، وذاك ينفعنا وهو ذاته يضر سوانا وقد يكون لون من الالوان زاهياً
في نظرنا وكاماً في نظر غيرنا، وقد يستطيب الاف رائحة من الروائح ويستذكرها

ألف آخر. النازل صدر

فالذى يستنبط من هذا الكلام ان ما يميز بعضنا عن بعض انما هو الاحساس
فالاحساس في الشعر هو القوة المميزة فلا بد للشاعر من ان تهجه الموائج، ولا بد
له من ان يجد هذه الموائج صوراً مناسبة لها فالشاعر مختلف عن الشاعر من حيث
طبيعة الحس والخيال فقد تأخذ العيون مشاهد شتى فيها كثير من الالوان
والاصوات والروائح مما يهيج الحواس ويشير العواطف فيعجز أحدهنا عن تصوير
شيء من هذه المشاهد كلها لأن حواسه لا تبسط الى لون من الوانها أو الى صوت
من أصواتها أو الى رائحة من روائحها ولا ت نفسه لا يستفزها مشهد منها ، فإذا
الشاعر لم يكن له روح يعدل فيها مختلف المشاهد ويترك في باطنها آثاراً ورسوماً
ولم يكن له خيال يخلع على هذه الرسوم والآثار ما يناسبها من ضروب الخلع فعشاً
يتطاول للشعر وعشباً يجهد قريحته ولذلك قالوا : يولد المرء شاعراً ، اي يولد قوي
الحس او ضعيفه ، غليظه او رقيقة ، وعلى حسب طبيعة هذا الحس يكون تبريزه في
ميدان الشعر وتحليله في سمائه التي لا تطاولها سماء .

هل كان المتنبي قوي الاحساس ، هل كانت المشاهد تفعل فيه فعلتها ، هل كان
عصبي المزاج يحركه أقل شيء ، وما هي طبيعة إحساسه وعاطفته ؟
لنبحث عن احساس المتنبي في بعض موطنه من المواطن التي تظهر فيها آثار
الاحساس والعاطفة ، لنبحث عن شيء من هذا في مقامات النسيب والغضب والحزن
هل عشق المتنبي في حياته او هل كان صادق العشق في نسيبه ، إننا نجد في
شعره كثيراً من الغزل فلا تكاد قصيدة من قصائد تخلو من هذا الغزل ولكن
الذى أراه ان للنسيب كان مذهبآ من مذاهب الشعراء يحدرون به مطالع قصائدتهم
وصولاً الى الممدوح فلست أرى في اضعاف هذا النسيب آثار نفس
ذلكها الهوى :

لـ اذا كان مدح فالنسـيب المقدم أكل فصـيح قال شـعراً مـتمـيم
 ولـست أـرى في هـذه الـامـتعـاف هـائـجة من هـوـائـج النـفـس وـاـنـا هـذا النـسـيـب عـبـارـة عن
 تـشـبـيهـات او صـفـاتـ خـنـاع رـونـقـهاـ الكـشـرـة تـكـرـارـها فـاـذـا لم يـعـشـقـ الشـاعـرـ حـقـيقـةـ كـانـ نـسـيـبـهـ
 ضـجـرـاـ مـقـلـقاـ، وـماـ مـمـلـهـ في ذـلـكـ الاـ كـمـلـ النـوـاحـاتـ اللـوـاتـيـ يـنـجـنـ علىـ مـيـتـ شـيـءـ مـنـ
 المـالـ يـاـ خـذـنـهـ عـلـىـ نـوـاحـنـ فـاـنـ اـغـمـاءـ الـاـمـ التيـ تـقـدـ طـفـلـهـ لـاـ يـكـادـ يـواـزـنـهاـ كـلـ الدـمـوعـ
 الـكـاذـبـةـ الـتـيـ تـذـرـفـهـ الـنـوـاحـاتـ ، وـكـذـلـكـ العـشـقـ فـاـنـ صـفـرـةـ لـوـنـ العـاشـقـ أـبـلـغـ منـ
 التـشـبـيهـاتـ وـالـصـفـاتـ الرـائـعةـ الـتـيـ يـلـجـأـ إـلـيـهاـ غـيرـ العـاشـقـ فـيـ شـعـرـهـ

فـالـمـتـبـيـ عـمـدـ إـلـىـ النـسـيـبـ فـيـ شـعـرـهـ وـلـكـنـ لـاـ بـالـغـ إـذـاـ قـلـتـ انـ فـيـ هـذـاـ النـسـيـبـ
 اـثـرـ صـنـعـةـ لـاـ تـدـلـ عـلـىـ شـيـءـ مـنـ حـقـيقـةـ الـهـوـيـ وـلـكـنـ لـاـ يـعـتـرـفـ بـهـذـاـ فـهـوـ يـقـولـ :

وـمـاـ اـنـاـ الـعاـشـقـ كـلـ عـاـشـقـ اـعـقـ خـلـيلـيـهـ الصـفـيـنـ لـاـ تـهـ

ثمـ يـرـجـعـ فـيـقـولـ :

لـ وـمـاـ كـنـتـ مـنـ يـدـخـلـ الـعـشـقـ قـلـبـهـ وـلـكـنـ مـنـ يـبـصـرـ جـنـونـكـ يـعـشـقـ
 فـلـنـتـظـرـ فـيـ هـذـاـ كـلـهـ فـيـ اـحـدـيـ قـصـائـدـ فـيـ سـيفـ الدـوـلـةـ وـاوـهـاـ :

لـعـيـنيـكـ ماـ يـلـقـىـ الـفـؤـادـ وـماـ لـقـىـ وـلـلـحـبـ مـاـ لـمـ يـقـىـ مـنـيـ وـمـاـ بـقـىـ

وـصـفـ اـبـوـ الطـيـبـ بـكـاءـهـ فـقـالـ :

وـبـيـنـ الرـضـىـ وـالـسـخـطـ وـالـقـرـبـ وـالـنـوـىـ بـجـالـ لـدـمـعـ المـقـاـلةـ المـتـرـقـقـ
وـأـكـدـ هـذـاـ الـبـكـاءـ :

لـهـ عـشـيـةـ يـعـدـوـنـاـ عـنـ النـظـرـ الـبـكـاـ وـعـنـ لـذـةـ التـوـدـيـعـ خـوفـ التـفـرـقـ

ثـمـ اـنـصـرـفـ بـعـدـ الـبـكـاءـ إـلـىـ التـوـدـيـعـ فـقـالـ :

لـهـ نـوـدـعـهـ وـالـبـيـنـ فـيـنـاـ كـاـنـهـ قـدـ اـبـيـ الـهـيـجـاءـ فـيـ قـلـبـ فـيـلـقـ
 وـاـنـاـ لـنـجـدـهـ يـبـكـيـ خـوـفـ التـفـرـقـ وـاـنـاـ لـنـجـدـهـ يـوـدـعـ اـذـ يـنـصـرـفـ فـجـاـهـ اـلـىـ قـنـاـ
 اـبـ اـبـيـ الـهـيـجـاءـ ايـ اـلـىـ المـدـرـحـ نـفـسـهـ وـهـوـ سـيفـ الدـوـلـةـ فـتـيـ مـسـحـ دـمـوـعـهـ وـمـتـيـ نـسـيـ
 حـبـيـبـهـ فـلـمـ يـخـطـرـ بـيـالـهـ اـلـاـ سـيفـ الدـوـلـةـ ، وـقـدـ يـكـوـنـ فـيـ هـذـاـ كـلـهـ بـرـاءـةـ فـيـ الذـيـ
 يـسـمـونـهـ حـسـنـ التـخـلـصـ وـقـدـ يـكـوـنـ شـيـءـ مـنـ الـبـلـاغـةـ فـيـ هـذـاـ التـخـلـصـ الـحـسـنـ ،

ولكني لا أجد في هذا النسيب شيئاً من الحقيقة فاستأثرت أرى خيال روح يدللها
الهوى وإنما أرى فننا يستخدمه صاحبه في تمثيل السبيل إلى المدح، والهوى الصحيح
لا كلفة فيه فإذا ظهرت الكلفة عليه ذهب أثره .

والامثلة من هذا الشكل كثيرة في شعره و إليكم مثلاً آخر
في قصيده في سيف الدولة التي يقول في أولها :

لالي بعد الطاعنين شکول طوال وليل العاشقين طوبل
وصف احتماله للنائبات من بعد احبته وطلب الى النسيم ان يحمل اليه روائح
هؤلاء الاجنة .

اذا كان شم الروح أدنى اليكم فلا برهنتي روضة وقول
وخاطب الحبيب فقال :

لقيت بدرب القلة الفجر لقية شفت كبدى والليل فيه قتيل
ويوماً كأن الحسن فيه علامه بعثت بها الشمس منك رسول
وانه ليست رسيل الى هذا كله اذ يذكر في الحال ان سيف الدولة يتضرر مدحه
فيقتش عن البيت الذي يصل به الى سيف الدولة
وما قبل سيف الدولة إما رعاشق ولا طلبت عند الظلم ذحول
نعم ، الامثلة من هذا القبيل كثيرة فلست اعتقد ان نسيب المتنبي في مطالع
قصائده يفصح عن عشق حقيقي وما هذا الغزل الا ضرب من التقليد فقد كان هذا
هو اسلوب الشعراء في امادي لهم يتغزلون ثم يتخلصون من التغزل الى المديح والنفس
العاشرة تصرف عن كل شيء في جوانبها ولا تفكرا الا في الذي تحبه ، فلا سيف
الدولة يصر لها عنه ولا غير سيف الدولة ، فالعاطفة في هذا النسيب بعيدة عن ان
 تكون صادقة فضلاً عن انه قد يميل في تصوير بعض نحوه الى شيء من المبالغة
التي لا يحمد أثرها .

ولو قلم القيت في شق رأسه من السقم ما غيرت من خطه كأنه
هذا هو نسيب المتنبي فالتقليد ظاهرة آثاره عليه .

وقد يخرج في هنا النسيب من المدار :

كأن الجفون على مقلتي ثياب شقق على ثاكل
كل هذا لا يخلو من شيء من المبالغة ، والعاطفة لا يحسن تأثيرها الا اذا

كانت طبيعة على انه لا يخلو في بعض الاحيان من الاعتدال المقبول :
وانى لاعشق من أجلكم نحولي وكل امرئ ناحل
ولوزلت ثم لم أبكيكم بكيت على حي العائل

هذا هو شيء من طبيعة حسه وعاطفته في النسيب ولكن المواطن التي تظهر فيها
شدة هذا الحس انما هي مواطن الغضب سواء كان غضبه على الاقدار ام كان
غضبه على الذين يশتمون بموت جدهم وسواء اغضب على الذين مدحهم ولم يعطوه
ما تستحقه ام اديمه ام غضب على الذين اسأوا اليه وكذبوا عليه .

اذا غضب المتبني على احد من الناس اهتزت اعصابه كل الاهتزاز فلا يكاد
 يستطيع ان يسكنها ولا يجد اشباهها للرجال الذين يحقق عليهم الا الحيوانات .

وأنا نحن في جيل سواسية شر على الحر من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلق تخطي اذا جئت في استفهمها بمن
ولا يبالي بعد هذا التعميم بان يخصص الحيوانات التي يشبههم بها
فقر المهوول بلا قلب الى ادب فقر الممار بلا رأس الى رسم
على ان هذا المهاجر الذي هاج في هذا المقام قد لا يكون شيئاً قياساً الى الثورة
التي ثارها في هجاء كافور فقد كان مضطرباً كل الاضطراب مغتاظاً كل
الاغتياظ فتارة كان غضبه ممزوجاً بشيء من المزء :

فان كنت لاخيراً افت بلحظي مشفريك الملاهي
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة
ومرة كان مختلطآ بشيء من الشتم :

لأشتر العبد الا والعصا معه ان العبيد لانجاس منا كيد
وحيناً كان يلتجأ في غضبه الى شيء من الابلام :

جوعان يأكل من زادي ويمسكنني لكي يقال عظيم القدر مقصود
ومنه قوله :

من أية الطرق يأتي نحوك الكرم أين المحاجم يا كافور والجمل
فماهم وإذا قابلنا بين أهابجه في كافور وبين تعريضه بسيف الدولة وجدنا ان ابا الطيب
على شدة اهتزاز أعصابه في ساعات الغنط ستستطيع في بعض الاحوال ان يضبط
نفسه فلم يغضب على سيف الدولة غضبه على كافور، وإنما ملك حركته وضبط
نفسه فعل لكل مقام من الغضب مقالا؛ فهو لا يشبه هؤلاء الشتائمين الطعانيين
الذين اذ نقموا على احد من خاصة الناس نقموا عليه نقمتهم على أحد من عامة القوم :
واذاشتموا أكبير قوم شتموا هم يشتمون صغير القوم ، حتى يضيع أثر كلامهم فلا تبقى له قيمة.
فالمتنى كان في غضبه يشتم ولكنه كان يجعل لكل مقام من مقامات الغضب
مقالا فارمى سيف الدولة بمثل ما رمى به كافوراً، لقد كان في تعريضه به شيء
من الايلام ولم يكن فيه شيء من الهزء او الشتم او الفحش .

فلننظر الى طبيعة عاطفته في مرائيه فإن المرائي تظهر فيها عاطفة الشاعر أكثر
من غيرها من الشعر ، لأن الشاعر يقولها وعيشه تدمع وقلبه يحزن ، قال الاصمعي
لاعرابي : ما بال المرائي أشرف أشعاركم فقال : لأننا نقولها وقولينا محترقة ، لقد
صدق الاعرابي في كلامه فالمراي هي الشعر الذي تظهر عليه آثار حرقة القلوب
وما أبدى هذه المرائي التي يقولها أصحابها فلا نجد فيها أثراً لهذه الحرقة وإنما نرى
فيها صوراً اذا انتزعناها من أماكنها والصقناها بمرئي اخر فلا نجد فرقاً بين
الرجلين المرئيين ، فما أشبه هذه الطبقة من الشعراء بالتواحات اللواتي يسكون ولا
جرح في قلوبهن ، اتنا لا نرى في أمثال هذه المرائي الا استفهام الخطاب والنقطة
على الاقدار وما شابه هذه الاساليب المتكررة ، فالرجل المرئي ينبغي ان تكون له
صورة في المرئية تليق به ولا تليق بغيره من الموتى ، واما اذا كانت هذه الصورة
تصلح لكل واحد يموت ولكل واحد يحيى عليه فلا قيمة لها ولا قيمة لقاتلها ، فلننظر
إلى المتنى في مرائيه ، هل نجد فيها عاطفة تختلف عن عاطفته في النسب .

أقرب الدين رثاهم اليه جدته فقد كان شعره في جدته شعر
الام الحقيقى الذي يشتمل على الحزن من كل وجوهه ، لقد بكى على جدته بكل
شديداً فقد كانت من النساء الصالحات فلا نكاد نقرأ بيئتاً من هذه القصيدة الا ونجد
 فيه أثراً لعاطفة المتنبى الصادقة في محنة جدته التي كانت تجده حباً جماً .

ل لك الله من مفجوعة بجيبيها قتيلة شوق غير ملحقها وصها
 فكان من الطبيعي ان يبادلها المتنبى في هذا الحب الشريف :
أحن الى الكأس التي شربت بها وأهوى لثواها التراب وما ضها
 فليس في عاطفته هذه شيء من الصنعة والكلفة ، انه احب جدته حباً شديداً
فظهرت حرقة قلبه ولو عة كبده ومهما حاول ان يتجلد :
ال والا أرى الاحداث مدحاً ولا ذماً فما بطشها جهلاً ولا كفها حلماً
 ومهما حاول ان يتعزى بشيء من الفلسفة :

الى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى يعود كما ابدي ويكرى كما ارمى
 فقد أبى قلبه الا ان يفيض حزناً بعد هذا التجلد وهذا العزاء
 حرام على قلبي السرور فاني اعد الذي ماتت به بعدها سما
 وان جدة تموت سروراً بكتاب اتها من حفيدها :

أتهاها كتباً بعد يائس وترحة فماتت سروراً بيفت بها غما
 لا يكثرون على المتنبى ان يكون بعد موتها كالاعمى لانه لا يراها :
 وما انسدت الدنيا على لضيقها ولكن طرفاً لا اراك به اعمى
 ولا يكثر عليه ان يأسف على غيته عند وفاتها :

فوا اسفاً الا أكب مقبلاً لرأسك والصدر اللذى ملثا حزما
 ولا يكثر عليه ان يغضب على الذين شمتوا بيومها :

لأن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لانفهم رغمما
 نعم كل هذا غير كثير فالعاطفة في هذا الشعر صادقة شربفة كريمة ولا
 يعب اذا غضب المتنبى على الذين شمتوا بيوم جدته او اذا ابرق وارعد في هذا

الغضب :

كأن بنיהם عالمون باتني جلوب اليهم من معادنها
ولو قابلنا بين عاطفته في هذه المرثية وبين عاطفته في غيرها من المراثي
كمثرية التي قالها في محمد بن اسحق التخخي :

خرجو ابه ولكل باك خلفه صعقات موسي يوم دك الطور
والشمس في كبد السما مريضة والارض واجفة تكاد تمور
لتبين لنا الصدق من الكذب في العواطف فلا الشمس تمرض من موت
رجل من الرجال ولا الارض تمور في كاد ابو الطيب في هذه المرثية يكون في زمرة
هذه الطبقة من الشعراء التي تشبه النواحات في البكاء .
على اتنا نجد في مرائيه في ام سيف الدولة :

مشى الامراء حوليها حفاة كأن المرو من ذيف الرئال
وابرزة الخدور محببات يضعن النفس امكنة الغولي
اتهن المصيبة غافلات فدم الحزن في دمع الدلال
وفي اخته :

يظن ان فوادي غير ملتهب وان دمع جفوني غير منسكب
بل؛ وحرمة من كانت مراعية لحرمة الجد والقصد والادب
وفي عبده يماك :

لابقى يماك في حشاي صباة الى كل تركي النجار جليب
وفي مرائيه في ابي شجاع فاتك :

برد حشاي ان استطعت بلفظة فقد تضر اذا تشاء وتتفع
 شيئاً من العواطف الصادقة ولكنها لا تشبه عاطفته في بكائه على جدته فان
قلبه في مرثيته في جدته هو الذي ي ملي عليه فيكتب

هذا هو اليسير من الكلام على طبائع احساس المتنبي وعاطفته فالمتنبي صاحب
احساس شديد ولا يخلو هذا الاحساس في بعض المواطن من شيء من القسوة

وأي قلب أقسى من القلب الذي يائس بالدم ومشاهده، فلقد ذكر أبو الطيب الدم في كثير من شعره ولا يبعد ان يكون الرجل ميلاً الى الفتى، ماذا اذكر من أبياته التي فاضت دماً أذكروه :

فَقَدْ بَرَدَتْ فَوْقَ الْلَّقَانِ دَمَّاً وَنَحْنُ أَنَّاسٌ نَّبَعَ الْبَارِدُ السَّخْنَا
ام اذكر قوله :

مَا زَالَ طَرْفَكَ يَجْرِيُ فِي دَمَّاهُمْ حَتَّىٰ مَشَىٰ بِكَ مُشِي الشَّارِبِ الْمَلِلِ
ام اذكر هذا البيت :

فَلَقْتُ إِلَيْكَ دَمَاءَ الرَّوْمِ طَاعِنَةً فَلَوْ دَعَوْتُ بِلَا ضَرْبٍ إِجَابَ دَمِ
والآيات من هذا النوع مستفيضة في ديوانه .

ان حواسه لتبسط الى رؤية الدم فلا يختلف عن صناديد القواد الذين ألفوا الدم في حروبهم فلا يستفطعونه ، فما اصدق ما قاله فيه الشريف الرضي : واما ابو الطيب المتنبي فقائد عسكر ٢٦ نيسان ١٩٣٠

دُوَّرٌ حَكَمَ الْمُتَّبِعِينَ

١٣

لكل شاعر روح تفيس على جنبات شعره ، ومهما حاول ان يخفي هذه الروح فلا بد لها من الظهور ، لكل شاعر روح ، هذا تعبس الدنيا في نظره ، فترى في أضعاف شعره ظلمة الدنيا وعبوسها ، وهذا بتسم الأيام في وجهه ، فتجد في أثناء شعره ضياء الأيام وابتسامها ، هذا يسترسل الى جد الحياة فلا نفع في شعره على شيء من هزتها ؛ وهذا ينبع الى هزل العيش فلا نشعر في فيض قريحته بشيء من جده ، شاعر ضياء الامل مستفيض في شعره ، وشاعر ظلمة اليائس شاهدة في قريضه ، للك شاعر روح ، ما هي روح المتنبي ، ما هي هذه الوثبات التي وثبها في كل مذهب من مذاهب شعره ، في نسيبه ورثائه ، وفي أماديه واهاجيه ؛ ما هي هذه النزعات التي نزعها في فقره وغناه وفي صبوته القلقه واكتئبه المضطرب ۔

شعر ونحن نقرأ شعراً في الطيب بـان الحياة مظلمة الجوانب في عينيه ، كامدة الالوان

في نظره ؛ فلساننا نجد في هذا الشعر أثراً من آثار بشاشة الدنيا وابتسام الزمان

ان في روح المتنبي شيئاً من الانقباض ، ليس معنى هذا ان ابا الطيب لم يعرف قيمة

الحياة ولم يقدرها حق قدرها فان الذي يقول :

نعم ولذ فلامور او اخر أبداً اذا كانت لهن أوائل
 مادمت من أرب الحسان فاما روق الشباب عليك ظل زائل
 للهـ آونـهـ تمـرـ كـاـنـهـاـ قبلـ يـزـودـهاـ حـبـبـ رـاحـلـ
 لـعـارـفـ بـموـارـدـ الـحـيـاـهـ وـمـصـادـرـهـ وـبـمـدـاخـلـهـ وـمـخـارـجـهـ
 وـانـ الذـيـ يـقـولـ :
 ولـذـيـذـ الـحـيـاـهـ أـنـفـسـ فيـ الـفـسـ وـأـشـهـيـ منـ انـ يـمـلـ وـأـحـلـ

وإذا الشیخ قال أَفْ فَإِنَّ حیاتاً وانما الضعف ملا
آلة العیش صحة وشباب فإذا ولیتا عن المرء ولئن
لا یغفل عن اسرار انبساط النفس وانشراح الصدر وربما أحاط من هذه
الاسرار بما لم یحظ به اعرف الناس بمقدار الحياة، وما هذه الاسرار الا الصحة
والا الشباب وإذا المرء لم یرفل من الصحة في برد قشیب ولم یتفیاً من الشباب
وارف الظلال ، لم یجد للحياة لذة نعم لم یجهل ابو الطیب قيمة الحياة وهو
حریص عليها لأنها شهیة
المرء يامل والحياة شهیة و الشیب اوفر والشیبة انزق
ولقد بكى على شبابه :

ولقد بكیت على الشباب و لم تی مسودة ولما وجھی رونق
بحدراً عليه قبل يوم فراقه حتى لکدت بما جفني اشرق
وفي هذه الدموع دليل على حبه الحياة وحرصه عليها وربما اشتد هذا الحرص
حتى أخرجه في صباحه من شيء من الشجاعة واقحمه في شيء من ذل الجن في بعض
الحالات فن قوله في مدح الحسين بن اسحق التنوخي و كان قوم قد هجوه ونخلوا
المجاہ الى أبي الطیب :

وما أرببت على العشرين سني فكيف مللت من طول البقاء
ومنه قوله للوالی وهو في الاعتقال :

دعوتک عند انقطاع الرجاء والموت مني تحبل الوريد
دعوتک لما براني البلاء وأوهن رجلٍ ثقل الحديد

كل هذا حجة على رغبة المتنبی في الحياة وتمسکه بها ، ومع هذا فانا لا نجد
في شعره أثر آليضیاء الحياة وبشاشة ، فكان الرجل قد حرم حظه من لذتها
او كأنه لم يكن له من نضاره شبابه وكمال صحته آلة يستعين بها على ذوق هذه
اللذة فكان المتنبی یشتکي صحته ، فكثيراً ما أشار في شعره الى نحوه ومن هذه
الاشارات .

روح تردد في مثل الخيال اذا اطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمي نحو لا اني زجل لو لا مخاطبتي ايها لم ترني
ومنها :

جمعت بين جسم احمد والستة م وبين الجفون والتسهيد
ومنها :

ولا وقفت بجسم ممئي ثالثة ذي أرسم دروس في الارسم الدرس
أفكان مصابا بشيء من الماليخوليا التي نجد آثارها في شعره فقد اسودت الدنيا
في عينيه وقل سروره منها وضاع عمره :

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير امتنا من سالف الامم
أنى الزمان بنوه في شبتيه فسرهم واتيناه على الهرم
واستخف بامر الحياة فلم يبال أطوال العمر أم قصر
كثير حياة المرء مثل قليلها يزول وباقى عيشه مثل ذاذهب
وافضى به الاستخفاف الى شيء من القسوة في مواطن البكاء :

ابكي لموتا على غير رغبة تفوت من الدنيا ولا موهب جزل
وما الدهر اهل ان تؤمل عنده حياة وان يشتق فيه الى النسل
نعم لم ينظر الى الدنيا من وجهها الجذل وانما نظر اليها من أفقها الكثيب
ففاض شعره كآبة فهو يتصور الموت في كل حالة من حالاته ، في صحته واعتلاله :

وان أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام الى الحمام
ومن كان هذا ناظره في الدنيا فلا عجب اذا هاجت به الماليخوليا في بعض
الاحيان فطلب الموت لأن الموت هو الذي يشفيه بما يكتابه من الم النفس واي
الم اشد من رؤية الحساد ، ولا سيما اذا كان المحسود مثل اي الطيب يعادونه على
فضله الذي يستوجب محنته ، وينام عنهم ولا ينامون عنه :

اعادى على ما يوجب الحب للفتى واهداً والافكار في تحول
لا عجب اذا طلب المتنبي الموت ولقد طلبه لانه فتش عن صديق مخلص له فلم

يجده وعن عدو مداعج فاعياء ، فالحياة التي ليس فيها صديق مخلص ولا عدو مداعج
لا يكتر على رجل مثل المتنبي ان يطلب فيها الموت ، وهو من هو في شدة احساسه
واهتزاز اعصابه وسرعة حركة نفسه :

كفى بك داء ان ترى الموت شافياً وحسب المنايا ان يكن امانياً
 تميّتها لما تميّت ان ترى صديقاً فاعياً او عدوآ مداعجاً
 لا عجب اذا كانت المنايا من امني المتنبي لانه بين ظهراني رجال ودهم خداع
 ودينهم نفاق :

فلم أرَ ودهم الاخداعاً ولم أرَ دينهم الا نفاقاً

ان رجلاً هذا هو نظره في الحياة ؛ ان رجلاً يستوي عنده قصر الحياة وطولها
 لانه يرى ان الحياة مصيرها الى الزوال بعيد عن التفرغ لمغالبة الايام والسعى في
 الحصول على شيء من عظمة الدنيا سواه أكانت هذه العظمة في المال أم في الجاه
 نعم أن رجلاً هذا هو مذهبه من عادته ان يقضي في ظلال المدود وراحة البال
 هذه الايام القليلة التي يعيشها مستهزئاً بكل عظمة ساخراً من كل جا ، لأن الحياة
 في نظره أحقر من ان يزاحم عليهما رجلان من أمانيه المنايا لانه لم يرَ صديقاً
 مخالساً له ولا شبه صديق ليغلب اليأس عادة على قلبه فلا يضرب في
 مناكب الارض ابتغا لشيء من عظمة الدنيا ، ولكن المتنبي بعيد عن هذا كله
 وهذا موطن من مواطن تناقضه في اخلاقه ، فقد كانت حياته تجمع بين الفائل
 والشوم وتؤلف بين اليأس والرجاء ، وانه ليرى ظلمة الدنيا الى جانبه اذ يسعى الى
 ضيائهما من جانب آخر ، وانه ليهزاً بطول الحياة وقصرها اذ يستنفد وسعه في
 الوصول الى شيء من ظواهر العظمة في هذه الحياة ، ما افق ابا الطيب ، ما
 أشد احذراه .

كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق
 فكان يغضب على الحياة ويرضى عنها بحسب حالات نفسه ، وعلى قدر هياج
 اعصابه وهدوئها ، لقد غضب على الحياة من الناحية التي رأها مسودة ولكنه سعي

في الوصول الى الذي خالج قلبه في هذه الحياة سعياً تقصر دونه سوابق الاقدام؛ وربما
كان ينحط في بعض سعيه الى طبقات المستعطفين، فرة كان استعطاطة تصريراً :
~~صـكـهـ~~ أمطر علي سحاب جودك ثرثـةـ وانظر اليـ بـرـحـمـهـ لاـ أغـرقـهـ
ومرة كان تعريضاً

فـاـ بـقـيـرـ شـامـ بـرـقـ كـافـةـ وـلـاـ فيـ بـلـادـ اـنـتـ صـيـّـبـهاـ مـحـلـ
وـحـيـناـ كـانـ الـاسـتـعـطـاطـ مشـتـمـلاـ عـلـىـ شـيـءـ مـنـ التـفـنـ :
فـاـ نـقـلـ :ـ هـاـ ،ـ فـعـادـاتـ عـرـفـ بـهـ اوـ لـاـ ،ـ فـانـكـ لـاـ يـسـخـوـ بـلـاـ فـوـ كـاـ
نعم سعي في هذا كله، ما كلت عزائمك، ولا فترت همته، ولا وجد اليأس الى
قلبه سيلماً، فقد عمل لدنياه كأنه يعيش أبداً و كان مذهبك في عمله : الدنيا لمن غالب،
حاول أن يغلب فـاـ قـصـرـ ،ـ سـخـرـ منـ كـلـ نـائـبـةـ نـابـتـهـ ،ـ وـذـلـلـ كـلـ عـقـبةـ اـعـتـرـضـتـهـ ،ـ فـلـوـ
تجسم العزم لـكـانـ اـبـوـ الطـيـبـ جـسـمـهـ ،ـ وـلـوـ تـصـورـ الـعـمـلـ لـكـانـ صـورـتـهـ النـاطـقةـ ،ـ
انـ شـعـرـهـ لـيـفـيـضـ رـجـولـيـةـ ،ـ انـ شـعـرـهـ اـنـمـاـ هوـ شـعـرـ الرـجـلـ القـويـ عـلـىـ مـتـاعـبـ
الـحـيـاةـ ،ـ يـتـطاـولـ لـهـ عـدـرـهـ الـمـبـيـنـ فـلـاـ يـخـضـدـ مـنـ شـوـكـتـهـ ،ـ وـلـاـ يـضـعـفـ مـنـ عـزـمـهـ
وـاـذـاـ نـبـاـ بـهـ مـكـانـ اـنـتـجـعـ مـكـانـاـ غـيـرـهـ سـوـاءـ أـكـانـ مـنـتـجـعـهـ بـعـيـداـ اـمـ كـانـ قـرـيـباـ ،ـ مـاـ أـعـظـمـ
المـتـنبـيـ فيـ هـذـاـ الجـهـدـ عـلـىـ التـمـرسـ بـالـآـفـاتـ وـالـمـطـاعـنـ لـلـاـيـامـ !ـ فـيـكـادـ يـكـونـ المـشـلـ
الـأـعـلـىـ فـيـ النـزـاعـ وـالـمـغـالـةـ ،ـ اوـتـيـ مـنـ العـزـمـ مـاـ صـغـرـ رـأـيـهـ كـلـ عـظـيمـ مـنـ عـظـاـمـ
الـدـنـيـاـ حـتـىـ نـشـأـتـ لـهـ مـنـ .ـ هـذـاـ كـلـ قـوـةـ مـنـيـعـةـ اـسـتعـانـ بـهـ اـكـلـ حـيـاتـهـ ،ـ يـحـبسـ الرـجـلـ
فـيـ سـيـلـ اـمـرـ مـنـ الـأـمـوـرـ فـيـخـرـجـ مـنـ حـبـسـهـ وـيـضـرـبـ فـيـ الـأـرـضـ لـأـمـطـيـةـ لـهـ الـأـ
نـعـلـ وـالـحـفـ فـيـمـدـحـ مـنـ يـمـدـحـ وـمـنـ مـدـوـحـهـ مـنـ لـاـ يـعـطـيـهـ عـلـىـ قـصـائـدـهـ الـأـ
دـيـنـارـاـ فـيـصـبـرـ وـلـاـ يـقـطـعـ اـمـلـهـ مـنـ الـحـيـاةـ ،ـ وـيـتـصلـ بـسـيـفـ الدـوـلـةـ فـيـغـرـقـ فـيـ نـعـمـهـ
فـيـكـيدـ لـهـ مـنـ يـكـيدـ وـيـحـسـدـوـهـ فـيـتـرـ كـسـيفـ الدـوـلـةـ وـيـرـجـعـ اـلـىـ دـيـدـنـهـ فـيـ السـعـيـ
وـالـجـهـدـ ،ـ فـيـأـتـيـهـ وـعـيـدـ السـوـدـانـ فـيـنـجـوـ مـنـ شـرـهـ وـيـقـصـدـ حـضـرـةـ كـافـرـ الـاخـشـيـدـيـ
فـلـاـ يـكـرـمـهـ اـكـرـامـ سـيـفـ الدـوـلـةـ وـلـاـ يـسـمـحـ لـهـ بـالـجـلوـسـ فـيـ مـجـاـسـهـ ،ـ وـيـبـثـ عـلـيـهـ
الـعـيـونـ وـالـارـصادـ وـيـضـمـرـ قـتـلـهـ فـيـنـفـلـتـ مـنـهـ وـيـعـودـ اـلـىـ سـعـيـهـ فـيـأـمـرـ عـلـيـهـ عـيـدـهـ

فيجهز على أحدهم ويغاب على امرهم ويعود إلى العراق فيثور عليه شعاء العراق
فيهرب من بغداد ويصل إلى بلاد فارس ثم يستأذن عضد الدولة في العودة إلى
وطنه فيحذّر ونه من الموت فلا يعبأ بالموت ويهاجم عليه فيموت، اظن ان في
هذه الامر كلها سلسلة حياة تكاد تكون منقطعة النظير في الصبر على الشدائـد
والاستعداد لمطاعنة الدهر، واظن ان الرجال الذين يصبرون بعد الصدمة الاولى
من صدمات الحياة قليل عددهم، ان كثيراً من الناس تضعف عزائمهم في اول
ضربة من ضربات الزمان، فالمتنبي من هؤلاء الرجال الذين مارسوا الايام
ومارستهم وصار عوها وصار عتهم فما استسلموا ولا انقادوا، يبالغهم الدهر من ناحية
فيستعدون له من ناحية ثانية، حتى تمل الايام طوال نزالهم فتلقى اليهم سلاحها
وتنتهي دون عزائمهم، فلو صور العراق والغلاب والراس لكان المتنبي صورة
هذا الامر كلها، فكانه جعل مذهبـه في سيرته ما جرى على لسانه في بعض شعره:
فالموت اعذري والصبر اجمل بي والبر اوسع والدنيا لمن غالبا
هنا تظهر رجولـية المتنبي، هنا يكون ابو الطيب القدوة لمن يريد ان يقتدي
به من الاعاظم الذين لا يكاد يظهر فضلـهم حتى تتفاضـل عليهم المكـايد وتتوـاطـا
عليـهم الغـواـئـل فـاـذا جـبـنـوا وـاسـتـسـلـمـوا اـطـفـاـءـاـ الحـسـادـ من نـورـهـمـ واـذا شـجـعـوا وـمضـوا
في سـيلـهمـ مـلـهـؤـلـاهـ الحـسـادـ حـسـنـ ثـبـاتـهـمـ، وـمـاتـواـ من سـخـرـيـةـ الـذـينـ يـحـسـدـونـهـمـ
فـلاـ يـجـدـونـ الى اـطـفـاءـ النـورـ سـيـلاـ .

في شـعـرـ اـبـيـ الطـيـبـ رـجـوـلـيـةـ تـفـيـضـ فـيـ كـلـ جـنـبـهـ مـنـ جـنـبـاتـ هـذـاـ الشـعـرـ المنـيـعـ
وـمـاـهـذـهـ الرـجـوـلـيـةـ الـاـصـوـرـةـ روـحـهـ وـلـقـدـ اـبـتـ هـذـهـ روـحـ الـاـظـهـوـرـ فـيـ كـلـ
مـذـهـبـ مـنـ مـذـاهـبـ شـعـرـهـ: فـسـوـاءـ عـلـيـهـ أـمـ مدـحـ أـمـ هـجـاـ وـسـوـاءـ عـلـيـهـ اـتـغـزـلـ اـمـ بـكـيـ،
ان روـحـهـ لـتـغـلـبـ عـلـيـهـ فـيـ اـمـادـيـحـهـ وـاـهـاجـيـهـ وـفـيـ غـزـلـهـ وـبـكـائـهـ. ان هـذـهـ روـحـ اـبـتـ
الـاـوضـوحـ فـيـ كـلـ حـالـهـ وـفـيـ كـلـ طـورـهـ مـنـ اـطـوارـهـ ، سـوـاءـ اـكـانـ
فـقـيـراـ اـمـ كـانـ غـنـيـاـ . اـنـكـمـ لـتـجـدـونـهـ يـبـكـيـ شـقـوـتـهـ وـيـضـجـرـ مـنـ رـقـةـ حـالـهـ وـخـشـونـةـ عـيشـهـ
وـمـعـ هـذـاـ فـانـ روـحـهـ لـاـ تـغـلـبـ عـنـ التـغـنـيـ بـالـتـكـرـمـ وـعـنـ اـلـتـنـدـيدـ بـالـذـلـ . بـعـدـ

أن يقول :

الى أي حين أنت في زي محرم حتى متى في شفوة والى كم
لا يلبث أن يقول :

والا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتقاس الذل غير مكرم
شب واثقاً بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجاجي النحل في الفم
وما كان المتنبي الا صادقاً في قوله ، ولقد امتلاً شعره من هذه النزعات
السامية والوثبات الكريمة فما خلت قصيدة من قصائده من هذه الروح العالية
ويبنا نجده يقول

ضاق صدر يوطّل في طلب الرزق قيامي وقلّ عنه قعودي
اذ نجده يقول :

عش عزيزاً او مت وانت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فاطلب العز في لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود
فالعز والمجد والعلاء وكرم النفس ألفاظ جرت على لسان ابي الطيب المتنبي في
كل شعره فكانت تفصح عن حقائق روحه وبواطن نفسه ، ولقد أدى به تغنيه
بهذا العز وبهذا المجد وبهذه العلائم الى مواطن الموت ، مثلوا له الموت وحضره
منه فما حذره ولا خافه هجم على الموت خوفاً من ان يقال فيه انه جبان ، فما أبعد
ابا الطيب عن احتمال الاذى ورؤيه جانيه :

واحتمال الاذى ورؤيه جانيه غذاء تضوى به الاجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت اسلام
ما أبعد ابا الطيب عن احتمال الاذى ! لقد غرق في نعيم سيف الدولة وفي
مكارمه ومع هذا كله لما عبث به سيف الدولة وأحس المتنبي بشيء من الانقباض
عنه ما لبث ان عاف هذا النعيم وهذه المكارم :

وما منزل المذات عندي بمنزل اذا لم أجمل عنده وأكرم

سجية نفس ما تزال مليحة من الضيم مرميأ بها كل محزم
نعم ياً في ابو الطيب الا ان يبجل والا ان يكرم ، واذا سكت وهو في حضرة
كافور عن شيء من هذا التبجيل والتكرير فما معنى هذا ان الرجل هانت عليه
نفسه وانما طمع وهو في حضرة كافور في شيء من الملك شغل بالله طول
حياته فصانع كافوراً اراده الوصول الى هذه الولاية التي أملها ، ولما أحس
بالشر وبالاذى ولـٰ عن كافور .

أبـٰت هذه الروح العالية الا ان تظهر على شعره في كل مذهب من مذاهب
هـٰذا الشـٰعـٰر ، لـٰقد ظـٰهرـٰت في اـٰمـٰدـٰيـٰحـٰه ، فـٰاـٰذـٰ مـٰدـٰحـٰ عـٰرـٰبـٰ عـٰنـٰ رـٰوـٰحـٰهـٰ قـٰبـٰلـٰ انـٰ يـٰصـٰورـٰ
المـٰدـٰوـٰحـٰ ، وـٰرـٰبـٰما جـٰعـٰلـٰ لـٰلـٰفـٰصـٰاحـٰ عـٰنـٰ رـٰوـٰحـٰهـٰ فـٰيـٰ اـٰمـٰدـٰيـٰحـٰهـٰ النـٰصـٰبـٰ الـٰوـٰفـٰ :

وـٰلـٰ تـٰحـٰسـٰبـٰ الـٰجـٰدـٰ زـٰقـٰ وـٰقـٰيـٰنـٰ فـٰاـٰ الـٰجـٰدـٰ لـٰاـٰسـٰيـٰفـٰ وـٰالـٰفـٰتـٰكـٰ الـٰبـٰكـٰ
وـٰتـٰضـٰرـٰبـٰ اـٰعـٰنـٰقـٰ الـٰمـٰلـٰوـٰكـٰ وـٰاـٰنـٰ تـٰرـٰيـٰ لـٰكـٰ الـٰمـٰبـٰوـٰاتـٰ السـٰوـٰدـٰ وـٰالـٰعـٰسـٰكـٰ الـٰجـٰرـٰ
وـٰتـٰرـٰكـٰ فـٰيـٰ الدـٰنـٰيـٰ دـٰوـٰيـٰ كـٰأـٰنـٰا تـٰدـٰوـٰلـٰ سـٰعـٰمـٰ الرـٰءـٰ اـٰنـٰمـٰلـٰ الـٰعـٰشـٰرـٰ

نعم لم يغفل عن اظهار روحه في اـٰمـٰدـٰيـٰحـٰهـٰ حتى في سيف الدولة :

وـٰاـٰنـٰلـٰقـٰنـٰ الـٰخـٰدـٰثـٰ بـٰنـٰفـٰسـٰ كـٰثـٰيـٰرـٰ الرـٰزـٰيـٰا عـٰنـٰدـٰهـٰ قـٰلـٰلـٰ

يـٰهـٰوـٰنـٰ عـٰلـٰيـٰنـٰا اـٰنـٰ تـٰصـٰبـٰ جـٰسـٰسـٰمـٰنا وـٰتـٰسـٰلـٰ اـٰعـٰرـٰاضـٰ لـٰنـٰا وـٰعـٰقـٰوـٰلـٰ

ولـٰقـٰدـٰ ظـٰهـٰرـٰتـٰ رـٰوـٰحـٰهـٰ فـٰيـٰ مـٰرـٰاثـٰيـٰ ايـٰ فـٰيـٰ الـٰمـٰوـٰاطـٰنـٰ الـٰتـٰيـٰ يـٰنـٰدـٰهـٰ فـٰيـٰ الـٰاـٰنـٰسـٰنـٰ عـٰنـٰ
كـٰلـٰ عـٰظـٰمـٰهـٰ وـٰعـٰنـٰ كـٰلـٰ عـٰزـٰزـٰهـٰ فـٰيـٰ رـٰثـٰيـٰهـٰ لـٰجـٰدـٰهـٰ ، وـٰقـٰلـٰهـٰ مـٰلـٰهـٰبـٰ وـٰدـٰمـٰعـٰهـٰ مـٰنـٰسـٰكـٰبـٰ ، لـٰمـٰ يـٰغـٰفـٰلـٰ
عـٰنـٰ رـٰوـٰحـٰهـٰ :

فـٰلـٰ عـٰبـٰرـٰتـٰ بـٰيـٰ سـٰاعـٰهـٰ لـٰاـٰ تـٰعـٰزـٰنـٰيـٰ وـٰلـٰ صـٰحبـٰتـٰيـٰ مـٰهـٰجـٰةـٰ تـٰقـٰبـٰ الـٰظـٰلـٰمـٰ
رـٰوـٰحـٰهـٰ غـٰلـٰبـٰهـٰ عـٰلـٰيـٰهـٰ ، فـٰاـٰتـٰمـٰ تـٰعـٰلـٰمـٰنـٰ مـٰقـٰدـٰرـٰ مـٰجـٰبـٰتـٰهـٰ لـٰجـٰدـٰهـٰ وـٰمـٰقـٰدـٰرـٰ اـٰسـٰفـٰهـٰ عـٰلـٰيـٰهـٰ وـٰفـٰاتـٰهـٰ
وـٰمـٰعـٰهـٰ فـٰلـٰمـٰ تـٰنـٰسـٰهـٰ وـٰفـٰاتـٰهـٰ رـٰوـٰحـٰهـٰ ، فـٰكـٰأـٰنـٰ فـٰيـٰ باـٰطـٰنـٰهـٰ شـٰيـٰئـٰ يـٰنـٰخـٰزـٰهـٰ حـٰتـٰيـٰ يـٰظـٰهـٰرـٰ وـٰمـٰا هـٰذـٰ
الـٰشـٰيـٰهـٰ الـٰذـٰيـٰ يـٰحـٰرـٰكـٰهـٰ الاـٰ رـٰوـٰحـٰهـٰ ، وـٰكـٰذـٰلـٰكـٰ حـٰالـٰهـٰ حـٰتـٰيـٰ غـٰزـٰلـٰ :

وـٰقـٰدـٰ طـٰرـٰقـٰتـٰ فـٰتـٰهـٰ الـٰحـٰيـٰ مـٰرـٰتـٰدـٰيـٰ بـٰصـٰحـٰبـٰ غـٰيـٰرـٰ عـٰزـٰهـٰهـٰ وـٰلـٰ غـٰزـٰلـٰ
لـٰاـٰكـٰسـٰبـٰ الـٰذـٰكـٰرـٰ الاـٰ مـٰضـٰرـٰبـٰهـٰ اوـٰ مـٰنـٰ سـٰنـٰنـٰ اـٰصـٰمـٰ الـٰكـٰعـٰبـٰ مـٰعـٰتـٰدـٰلـٰ

وكذلك شأنه في اهagiه :

ويلمّها خطة ويلمّ قالها لشلها خلق المهرّية القود
وعندها نذ طعم الموتشاربه ان المنية عند النذ قديد
ما أعظم روح أبي الطيب ! ما أظهرها على شعره !

٣ مايس سنة ١٩٣٠

فاسفة المتنبي

١٣

علمنا بطاقة من اخبار المتنبي واحطنا بشيء من جملة اخلاقه وروحه وطبيعة حسه وعاطفته ، بقي ان نعرف درجة عبريته وخصائص هذه العبرية ، هل يخلد شعر المتنبي ، ما هو السر في خلو ده وقبل ان اتفرغ لهذا كله ارى ان الواجب علي ان انظر في فلسفة المتنبي .

اشار القاضي الجرجاني والتعالي الي ان ابا الطيب خرج عن رسم الشعر الى طريق الفلسفة واضاف التعالي الي هذا الكلام ان المتنبي امتنل الفاظ المتصوفة واستعمل كلماتهم المقدمة ومعانיהם المغلقة فنـه قوله :

نـحن من ضائقـ الزمان له فـيك وختـنه قربـك الايـام
حتـى قال الصـاحب « ولو وقـع هـذا القـول في عـبارات الجنـيد والـشـبـلي لـتـازـعـه
المـتصـوـفة دـهـرا طـويـلا »
ومنـه قوله :

يـا ايـها الملـك المـصـفى جـوهـرا
من ذاتـ ذـي المـلـكـوت اـسـمى من سـما
فتـكـاد تـعلم عـلم ما لـن يـعـلـمـا
نـور تـظـاهـر فـيك لاـهوـتـه
ـ وـمـنـه قوله :

ولـقـد رـمـت بالـسـعادـة بـعـضـاً من نـفـوس العـدـى فـأـدـركـت كـلـا
فـالـجـوـهـرـ المـصـفـىـ وـالـلاـهـوتـ وـالـبـعـضـ وـالـكـلـ من أـفـاظـ رـجـالـ الـفـلـسـفـةـ وـالـمـنـطـقـ
وـلـمـتـ الـطـافـةـ مـنـ اـسـماءـ أـطـباءـ الـيـونـانـيـنـ وـحـكـائـمـ اـمـثالـ جـالـينـوسـ وـبـقـاطـ
وـرـسـطـالـيـسـ وـبـطـيلـيـمـوسـ .
وـجـرـىـ فيـ شـعـرـهـ ذـكـرـ بـعـضـ المـذـاـهـبـ الـفـلـسـفـيـةـ .

من هذه المذاهب :

وكم لظلام الليل عندك من يد
تخبر ان المانوية تكذب
ومنها :

ألا قى يورد المهندي هامته
كيا تزول شكوك الناس والتهم
فانه حجة يؤذى القلوب بها
من دينه الدهر والتعطيل والقدم
ومنها :

الا على شجب والخالق في الشجب
وقيق تشرك جسم المرء في العطب
أقامه الفكر بين العجز والتعب
واطن ان شيوخ ابن خلدون لم يعيروا اشعار المتنبي بمخالفته الاساليب العربية
الا بسبب جلوئه الى هذه المصطلحات الفلسفية وابشاهها لأن السحر كما قلت في
« سحر العبرية » غرضه ان يعرض الفكر في معرض ظاهر فهو يتحami التجريدات
وعبارات العلم واستدللات الفلسفة التي هي من خصائص النثر فهي تجعل الشعر في عالم
يختلف عن عالم الخيال وعالم الصيغة المحسوسة ولكنكم ستجدون في فصل الكلام على
شعر المتنبي ان ابا الطيب اذا خلد فان خلوده سيكون من الناحية التي عاب بها شيوخ
ابن خلدون ، فاذاخله المتنبي فان الذي يخلده ابنا هي تلك الحكم الرائعة التي استفاضت
في شعره فاستشهد الناس بها بحسب ما يقتضيه مقام الاستشهاد فكان ابا الطيب
لسان حال البشر باجمعهم . فقد يقذف المتنبي في بيت او في بيتين مذهبآ فلسفياً او
علمياً يشتعل به المفكر ون كل حياتهم من هذه المذاهب قوله :

فقل ما يلؤم في ثوبه الا الذي يلؤم في غرسه
من وجد المذهب عن قدره لم يجد المذهب عن قفسه
ومنها :

راعتك رائعة البياض بمفرقى ولو انها الاولى لراع الاسحم
ومعنى هذا البيت : راعتك الشعرة البيضاء التي ظهرت في رأسى ولو ان

الشعر يكون أبيض في أول امره ثم يسود لرائعه الشعر الاسود ، فكأنما ابو الطيب أراد ان يمثل للناس على نحو (بيرون) في القديم ان آراء الخلق سريعة التبدل والتغير بما يدل على شرك الناس في حقائق الامور ، اعتقاد البشر ان يروا الحسن في الشعر الاسود والقبح في الشعر الابيض ولو تعودوا أن يروا المحسن في الشعرا البيضاء والمساوية في الشعرة السوداء لما كان لاشتعال الرأس شيئاً اثر شنيع في العيون فكانما لاحقائق مطلقة في العالم وانما الحقائق نسبية ، للامر الواحد كما قال «انتول فرانس » مشاهد متفاوتة ومظاهر متباعدة ، انظر الى هرم منفيس في طلوع الشمس ثم انظر اليه في غروبها فانك تتجده في الصباح مخروط الشكل ينبعض عليه ضياء وردي ، وتجده في المساء مثلاً أسود اللون ومن الذي ينفذ فكره الى مادة هذا الهرم فالعادة والمصطلح هما سبب كل عمل في هذه الدنيا .

قد تكثر هذه النظارات الفلسفية في شعر المتنبي ولكنني أسر بها كما مرّ بها ابو الطيب نفسه لأنها لا تؤلف الفلسفه التي أريد الكلام عليها ، أي لا تؤلف فلسفة المتنبي ؛ وإنما هي خطرات قد يجوز ان يكون اقتبسها من الكتب المترجمة او دلالة عليه اعقله الكبير فلم يتسع فيها وإنما الذي توسع فيه النظر في الحياة والأخلاق أصحاب هذه الحياة فلننظر في صورة الحياة التي يريدها ابو الطيب

صوت ابو الطيب المتنبي الحياة في شعره في أشرف صورها وعرضها في أكرم معارضها ويريد هاسمة من كل ضيم ب بعيدة عن كل ذلة فلاتتجدون في شعره الا ألفاظ العز والمجد والكرامة وما تقضيه هذه الالفاظ من تعجب الاجسام وسفك الدماء ، فالمعلى لا تكون رخيصة فلا بد من ابر النحل دون الشهد ، ولا بد من مرارة الزمان دون حلواته ، ليس الفقر ان تغاث المآكل انما الفقر ان تغاث الكرامة ، فلا تكاد عيشة العز تفارق صورها شعره ، وان كان هذا العز في جهنم وان كان الذل في جنات الخلود ، على ما تخاف الموت فقد يقتل العاجز وهو آمن في سربه ، وقد يوقي الشجاع وهو غارق في الدماء ، على ما تخاف الموت والموت لا بد منه وسواء أفرط الرجل في سلمه ام أفرط في حربه ، ان غايتها الموت فاذا كان الموت غاية

كل واحد فلم تخفق الاقدة من الرعب فالمتحف في العز محبوب والذل في طول العمر بغرض .

صور الحياة في أكمل صورها ، ينبغي للناس ان يهون عليهم رزء جسمهم اذا سلمت في هذا الرزء عقوبهم واعراضهم ، لا تحتمل الاذى ، لا تغبط الذليل ، لاتهن . هذه هي الوصايا التي لم يخل منها شعره ، دع نفسك تأخذ ما يمكنها اخذه من هذه الدنيا ، ولكن لا تحسين هذا الاخذ في زق او قينة ، فما المجد الا السيف والفتكة البكر ، ما المجد الا ضرب أعناق الملوك وترك دوي في الدنيا ، اسح الى المجد ما استطعت اليه سبيلا ، اطلب المال في المجد ، اطلب المجد في المال ؛ خلف ذكرأ طيبا فالذكر عمر ثان ، اكسب هذا المجد من مضارب السيف ومن سنان الرمح ، قاتل في سبيل العلي ؛ قاتل في سبيل السلم ، السعادة في سفك الدماء ؛ ابن الملك على الاسل ، سلم شرفك من الاذى براقة الدم على جوانبه ، اطلب حنك بالطعن بالضرب ؛ الدنيا نراع ، والدنيا لمن غالب ومن استطاع ان يتلمس الاشياء اغتصابا لم يتلمسها مؤلا ، اذا غارت في شرف فلا تقنع بما دون النجوم فالموت واحد في عظام الامور وفي صغارها . لا تتعجل بالامال ؛ لا تقنع بالافلال ، لا تسکر فعاظة الصفات و العواي الذ من المدام ، الموت في الوعي عيش ، لا تداعج ، لا تقص في امرك ، لا تعجز ، لا تتكل على احد ، ايها والتقص اذا كنت قادرآ على التهام ، جالس كتبك فان الكتاب خير جليس ، اكرم الكرييم فتملكه ، لا تكرم اللثيم فيتمر ، احرص على الحياة فان الحياة شهية واحرص على اللذات ، لتكن في حرصك على هذه الحياة وعلى هذه اللذات مبجلا مكرما ، ايها والغواي فانهن ضياء في بواطنه ظلام ، لا عهد لهن ، يمحقون فلا يبقى في قلبهن رضى ويرضين فلا يبق في قلبهن حقد . هذه هي الحياة التي يريد لها المتبني ، انها حياة سامية ولكنها ممزوجة بالدم ، بعيدة عن المهدوء والسكنية . ملومة بالقلق والاضطراب ، كلها نراع ، وكلها غلاب ، وهل الدنيا الاغلاب ، ان الحياة التي يريد لها ابو الطيب انما هي حياة القوة ، هل يكون عزيز الحاذب غير القوي ؛ قاتل ، غالب ، هذا هو المدف الاعلى الذي

يرمي اليه المتنبي ، وقد قاتل و غالب كل حياته ، فما كانت فلسنته الا بنت خلقه و طبعه ، جمعت هذه الفلسفة بين سلطان المادة و كرامة الادب ، فلا خير في المال اذا لم يزيشه المجد ، ولا خير في المجد اذا لم يؤيده المال ، وهل نكسب هذا المجد الا بعد ازعاج البدن و اهلاق الروح ، وهل نصل الى هذا المال الا بعد ذوق مرارة الموت ولكن حلاوة هذا المجد وهذا الموت تنسينا مرارة الايام التيقضت في كسب المجد والمال .

هذه هي الحياة التي يريد لها ابو الطيب ومن كان نظره في الحياة مثل نظر أبي الطيب فاختلق به ان يكون متشائما لان المجد والمال والكرامة ، كل هذا يتضمن مكارم الاخلاق ، وain مكارم الاخلاق في زمان لا صديق فيه مخلص ولا عدو مداج اين مكارم الاخلاق في زمان ود الناس فيه خداع ، ودينهم خفاق ، عالمهم فدم ، وحازهم وغد ، وبصيرهم اعمى ، وشجاعهم قرد ، بلي المتنبي بهم بلاه الورد باوف لا يصلح لها الخشاش ، ليس من العجب ان يكون المتنبي متشائما لذا كان في زمان وقته فيه ضائع ، ليس من العجب ان يخدر الناس ، انهم لا يرحمون فلا ترحمهم ، روح رمحك من دعائهم ، اقتلهم ولا اثم عليك ، ليس من العجب ان يرى ابو الطيب الدهر غير اهل ان تؤمل عنده حياة ولن يستيق فيه الى النسل .

من مزاجه السويداوي ومن شبابه المضطرب واكتبه القلق ، ومن فرط حسه وعصبيته ، ومن الذي لا يلقه في زمانه من الحسد تولد شيء من التشاويم في خاق المتنبي ، والتباوم كما قال فيه الاستاذ «فاكه» مرض خلقي لا يرحم صاحبه العبرية على شرط ان يكون المصاب به حاصلا على النصف الآخر من هذه العبرية وهو الخيال المديد .

ما هو التشاوم ؟ ان هو الا ادراك الحياة من أوسع جوانبها ، ومن أشد نواحيها ظلمة ، واذا لم يكن هذا التشاوم صادقاً كان ضربا من السخرية ، ولماذا كان صادقاً ولم يكن لصاحب عقل كبير كان نوعاً من المهزء ، لأن قد يفضي بالمبتدئ به الى الشكوى من آلام حقيقة يقاسمها كل الناس ، ولكن تشاوم رجل مثل أبي الطيب صاحب

عقل كبير وخيال مديد ليس فيه شيء من المهزلة .
ومن هذا التشاوم وعن هذا الالم الذي قاساه المتنبي كل حياته صدرت أفكار
سامية ، من جملة هذه الأفكار : العبرية تجعل صاحبها في شقاوة .
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وآخر الجحالة في الشقاوة ينعم
ما أصدق هذه الحكمة ! لنبحث عنها قليلا :

ملك السيارات في هذا العصر (فورد) ذهب اسم سيارته في آفاق العالم
كله؛ يكاد فورد يستصفي ثروة الدنيا فهو يلعب بالذهب لعباً، انه ليستطيع أن
يدرك أمانية كلها بالمال، فلا يشك أحد في عظم سلطانه ، فقد أذعن له الذين
بحذايرها ، وملك العلم في هذا العصر (اديسون) لقد أدهش العالم كله
بمخترعاته ، فقد ضبط أصوات البشر وقرب بين متباعد المسافات بعد أن قاوم
الطبيعة فهو يجد في معمله أكبر لذة يجدها عالم في اكتشاف شيء ، يعترف بسلطانه
العلماء بمجامعهم لا ريب في أن (فورد) و (اديسون) من ذوي العقول الذين
أشار إليهم المتنبي في شعره ، فهل شيئاً في نعيمهما كما قال المتنبي ، أم هما نعيم على
خلاف رأي أبي الطيب ، لنتنظر إلى رأي كل منهما في سعادة الآخر
يقول (اديسون) في سعادة (فورد) :

رأيت حدثاً كيف ركبَت آلات آخر سيارة من سيارات (فورد)
لقد رمى بسيارته هذه إلى أنحاء العالم ، وقد وفق في مخترعه توفيقاً عظيماً ، فكان
يحب على فورد أن يكون سعيداً كل أيامه بسبب توفيقه هذا ، ومن موجب
الأسف ليس له شيء من هذه السعادة ، إن (فورد) سيكون سعيداً زماناً قليلاً لانه
من هؤلاء الرجال الذين لا يدوم سرورهم طويلاً ، ان عقله ليغذبه في كل حين
لان هذا العقل تشغله أمور حديثة لا حد لها ، فإذا تم له أمر منها فرح به ، ثم
فكري في امر آخر وعلى هذا فإنه يجري من أرب إلى أرب من غير أن يكون راضياً.
فإذا لم يستطيع الرجال أن يحدّدوا مطامعهم فائهم لا يستطيعون أن يكونوا
سعداً ، فالذى يجدر بنا ان نحسدهم في هذه الحياة انما هم الرجال الذين أبعد همهم

ان يقبحوا على فراشة ، اسعد الناس انما هو العبد الذي يعيش وليس في قلبه
مطعم من المطامع .

يظن بعضهم ان المستر (كولديج) كان سعيداً وهذا خطأ فقد قضيت عنده
بضعة ايام فكان كل همه ان يتولى رئاسة الجمهورية فلما القيت اليه مقاليد هذه
الرئاسة كان كل همه ان يخرج منها وان يغادر القصر الايض خوفاً من تبعاته .
اما انا فقد كان اعذب ايامي تلك الايام التي كان عمري فيها اثنتي عشر عاماً
فلم يكن لي فيها مطعم او هم ولكن لما كبرت اضفت السعادة فاذا رميت بنظري
الى الاثنين والاثنين عاماً التي عشتها وجدت فيها اياماً كنت أستطيع ان اكون في
خلالها سعيداً كل السعيد غير اني كنت فيها أشقى الاشقياء .

و يقول (فورد) في سعادة (اديسون) :

أرى (اديسون) بعد تدة السعادة الكاملة لانه غارق في مشاغله فليس به
حاجة الى ان يجعل الشغل واسطة العيش وهنا السعادة كاها على خلاف ما كان
يذكره العالم الكبير من انه لا سعادة في هذه الدنيا ، كان سعيداً في طفولته وشبيته
فقد كان عاملاً في البرق والصحافة وصار عالماً في شبابه ، صاحب مكتشفات
عظيمة ، حصلت له أسباب العمل في كل حين ؛ فقد اراد أن يجعل الليل نهاراً فكتب
له التوفيق ، وشاء ان يردد اصوات الصوت البشري فتمت مشيئته ، لقد وجد لذته
كلها في هذا الجهد العظيم ، لأن الرجل الذي يعمل من أجل غaiات شريفة ، ان
الرجل الذي يعمل من أجل العمل نفسه ، انما هو سعيد كل السعيد
فاذا كان (فورد) يغبط اديسون بطراز حياته ، وهو من هو في الثروة ،
واذا لم يكن (اديسون) سعيداً في ايامه وهو من هو في العلم ، فما اصدق ما قاله
المتنبي من أن صاحب العقل يشقى بسبب عقله في النعيم ، وان أخا الجحالة ينعم
في شقاوته .

وانكم لتجدون في شعر المتنبي كثيراً من أشباه هذه الحكمة الرائعة استنبطها
من الحياة نفسها ، فكان الحياة قد عرضت عليه صورها المختلفة واشكالها المتباينة

فاستبسط من خيرها وشرها ومن حلوتها ومرارتها ومن كرمها ولؤمها امثالا
نذفها في أبيات وانصاف أبيات ، فالرجل قد جرب كثيراً حتى احكته التجاريب
و تغلغل في بواطن القلوب فاعطه مقاليد أسرارها ، فلا يكاد يحدث حادث في
هذه الحياة ألا و نجد في شعر أبي الطيب ما يمثل هذا الحادث ، فما أقرب الحكمة
من طرف لسانه ، وما أجرأها على شق قلمه ، والحكمة اذا كانت بنت التجاريب
كانت أعلق بالازهان ، وأسير في الأيام ، والمتنبي ابن التجاريب .

اذا ما الناس جربهم لي Bip فاني قد أكلتهم وذاقا

١٧ ايار سنة ١٩٣٠

عَبْرَةٌ مُمْتَنِي^(١)

١٤

أحفظ من تسع عشرة سنة يبتأ من الشعر قاله الشاعر الفرنسي « بوالو Boileau » في الشاعر « مالرب Malherbe » وهذا هو صدر البيت : حتى جاء مالرب ... واذكر انا كنا ندوس في مدرستنا تاريخ الادب الفرنسي الذي وضعه الاستاذ دوميك Doumic ، صاحب سر الاكاديمية، وقد أفضى بنا الدرس الى الفصل الذي عقده دوميك ، في الكلام على « مالرب » فالاستاذ دوميك يقول في تاريخه : ان حتى « هذه تنقص من مقدار من تقدم مالرب من الشعراء ... —

ولما وقفت على كلمة ابن رشيق الشائعة : (٢) ثم جاء المتنبي ، فلأ الدنيا وشغل الناس ، خطرت بيالي في الحال كلمة « بوالو » : حتى جاء مالرب ... فقلت في نفسي أفيجوز لي ان اقول في « ثم » هذه ما قاله دوميك في « حتى » تلك . أفيجوز لي ان اقول ان كلمة ابن رشيق تنقص من مقدار من تقدم المتنبي من الشعراء ، أفيزيد ابن رشيق ان يقول ان المتنبي عفّ على آثار من سببه .

الصحيح ان ابا الطيب المتنبي كان مشغلا للناس ، متعبا لهم ، ولكن هل كانت عبرته وحدها السبب في شغل الناس ، افلم يكن لحوادثه تأثير في هذا الشغل ، افلم يكن لاتصاله بسيف الدولة وبكافور الاخشيشي وبا بن العميد وبع ضد الدولة اثر في هذه الشهرة الشائعة ، افلم يكن في تراحم الملوك والامراء والوزراء عليه وتنافسهم فيه عامل من عوامل هذه الشهرة ، وعلى المخصوص فان في جلة هؤلاء المتراحفين رجالا علت منازلهم في الادب كابن العميد مثلا ، او كالصاحب بن

(١) هذا الفصل والذي يتلوه لم احضر بهما في كلية الاداب وانما كتبتهما في اثناء طبع المحاضرات اي بعد عطلة الكلية تحيينا الكلام على المتنبي

عِبَادُ الْذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ امْدَابِ الْمُتَنَبِّيِّ، أَفَلَمْ يَكُنْ فِي تضافُرِ أَكَابِرِ رِجَالِ
اللُّغَةِ عَلَى شَرْحِ دِيوَانِ الْمُتَنَبِّيِّ، وَفِي مَقْدِمَتِهِمْ إِبْنُ جَنِي عَامِلٌ مِنْ عوَامِلِ شَهْرَةِ ابْيِ
الطَّيْبِ، اَنْ شَاعِرًا يَقُولُ فِي هِئَايَاتِهِ^(١): فَلِيُسْ الْيَوْمُ بِمَحَالِ السُّدُنِ اعْمَرْ شَهْرَةِ ابْيِ
الطَّيْبِ مِنْ مَحَالِ السَّانِسِ وَلَا اَقْلَامُ كِتَابِ الرَّسَائِلِ اجْرَى بِهِ مِنْ السَّنِ الْخَطِيبَاءِ
فِي الْمَحَافِلِ وَلَا حُونَ الْمَغَنِينِ وَالْقَوَّالِينِ اشْغَلَ بِهِ مِنْ كِتَابِ الْمُؤْلِفِينِ وَالْمَصْنَفِينِ، وَقَدْ
أَفْتَتِ الْكِتَابُ فِي تَفْسِيرِهِ وَحَلَّ مَشَكَاهُ وَعُوَيْصَهُ وَكَثُرَتِ الدَّفَّاتِرُ عَلَى ذِكْرِ جَيْدِهِ
وَرَدِيهِ وَتَكَلَّمَ الْاَفَاضِلُ فِي الْوَسَاطَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَصْوَمِهِ وَالْاَفْسَاحِ عَنْ ابْكَارِ كَلَامِهِ
وَعَوْنَهِ، وَتَفَرَّقُوا فَرَقًا فِي مَدْحَهِ وَالْقَدْحِ فِيهِ وَالنَّضْحِ عَنْهُ وَالتَّعَصُّبِ لَهُ وَعَلَيْهِ
وَانْ شَاعِرًا يَقُولُ فِي الْقِبْرِ وَانِي^(٢): قَدْ شَغَلَتِ بِالسَّانِسِ وَسَهَرَتِ فِي اشْعَارِهِ الْاعْيَنِ
وَكَثُرَ النَّاسِخُ لِشِعْرِهِ وَالْآخِذُ لِذِكْرِهِ، وَالْغَائِصُ فِي بَحْرِهِ وَالْمَفْتَشُ عَنْ جَمَانِهِ وَدَرَهِ،
وَقَدْ طَالَ فِيهِ الْخَلْفُ وَكَثُرَ عَنْهُ الْكَشْفُ وَلَهُ شِيَعَةٌ تَغْلُو فِي مَدْحَهِ وَعَلَيْهِ خَوَارِجٌ
تَتَغَايِيَا فِي جَرْحِهِ . . . ، اَنْ شَاعِرًا هَذَا هُوَ شَانُهُ فِي الْاِدَبِ وَهَذَا هُوَ شَانُ الْاِدَبِ
فِيهِ لَا بَدَّ لَهُ مِنْ اَنْ يَمْلأَ الدُّنْيَا وَيَشْغُلَ النَّاسَ . —

وَلَكِنْ هَلْ يَنْبَغِي لَنَا وَنَحْنُ نَدْرَسُ شِعْرَ ابْيِ الطَّيْبِ الْمُتَنَبِّيِّ أَنْ نَتَقْبِدَ بِمَا تَقْبِدُ
بِهِ الْمُتَقْدِمُونَ، أَفَلَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ نَنْسَلِخَ عَنِ عوَامِلِ الشِّيَعَةِ الَّتِي غَلَتْ فِي مَدْحَهِ
وَالْخَوَارِجِ الَّتِي أَفْرَطَتْ فِي جَرْحِهِ حَتَّى يَكُونَ نَظَرُنَا فِي شِعْرِهِ صَحِيحًا، أَفَلَا يَلِيقُ
بِنَا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى هَذَا الشِّعْرَ مِنْ وَجْهِ الشَّفَّافِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَنَا مَا وَرَاءَهُ وَسُوَاءَ عَلَيْهِ
أَكْنَتْ مِنَ الْمُعْجِبِينَ بِابْيِ الطَّيْبِ؛ الْعَابِدِينَ لَهُ، أَمْ كَنَتْ مِنَ الَّذِينَ يَسْتَوِيُونَ عَنْهُمْ
ابْوَ الطَّيْبِ وَكَثِيرٌ مِنَ الشَّعْرَاءِ، لَا أَسْتَطِعُ إِنْ أَمْرَّ بِفَلَنَاتِ عَبْرِيَّتِهِ دُونَ الْاِشْارةِ
إِلَيْهَا أَوْ إِنْ أَمْرَّ بِسُحْرِ هَذِهِ الْعَبْرِيَّةِ دُونَ النَّتِيَّةِ عَلَيْهِ .

فَلَا بَدَّ لَنَا إِذَا نَظَرَنَا فِي طَائِعِ عَيْقُورِيَّةِ الْمُتَنَبِّيِّ وَفِي خَصَائِصِهِ، وَنَقْبَنَا عَنِ
مَحَاسِنِهِ وَمَسَاوِيهِ مِنَ النَّظَرِ فِي آفَاقِهِ وَالسَّمَاءِ الَّتِي حَلَقَتْ فِي عَلَيْهَا حَتَّى يَتَكَشَّفَ

(١) يَتِيمَةُ الْدَّهْرِ - الْجَزْءُ الْأَوَّلُ - الصَّفَحَةُ ٧٨

(٢) اَعْلَامُ الْكَلَامِ - الصَّفَحَةُ ٢٥

لنا كل أفق على حدة فترى ألوان هذا الأفق سواه وكانت هذه الألوان كامدة ألم كانت زاهية ناضرة، لا بد لنا من النظر في مذاهب أبي الطيب كلها : في غزله وفي بكله وفي اهاجيه وفي اماديحه وفي وصفه على اختلاف اشكاله وفي حكمه ومن جملة هذه المذاهب تستعين لنا طبائع شعر المتنبي .

أول ما أ تعرض له من مذاهب المتنبي أنهما الغزل ، هذا الغزل الذي صدر به معظم قصائده اتباعاً لاصول بنى عليها الشعراء من قبله فلم يخرم القياس ولا خرج عن الأساس على أنه لم يؤثر عنه أنه عشق ، وقد عرضنا حوداته كلها من ميلاده إلى مقتله فما وجدنا فيه ميلاً إلى شيءٍ من العشق ، فعلى ما هذا النسيب في صدور قصائده ، يقول الاستاذ « فاكه » في معرض كلامه على « هوغو » : إذا لم تكون آيات الغزل أيات شاعر عاشق كانت مقلقة مضجرة ، وقد تكون هذه الآيات حسنة ، فلم يعرض المتنبي غزله للاضجاع والافلاق وإن كان في بعض غزله شيءٍ من الحسن .

لم أجده في كثير من نسيب المتنبي إلا ما اجده عادة في الشعراء المتغزلين الذين جاؤا قبله ما خلا الشعراء العشاق الذين قال فيهم القيرواني (١) : قد استحوذت الصباة على أفكارهم واستغرقت دواعي الحب معاني اشعارهم فكلهم مشغول بهواه ، لا يتعداه إلى سواه ، لم أجده للمتنبي في غزله إلا الصور التي صورها كثير من الشعراء قبله كمناجاة الديار و كاستيقاف الصحاب على إياها أو كالاضجر من نيران القلب ومن الشيب وما شاكل ذلك ، فهذه صور مألوفة ومذاهب معروفة لم يكن للمتنبي فيها ابداع ولا اختراع وإنما مشي فيها على آثار غيره .

ففي قوآد الحب نار جوى آخر نار الجحيم أبردها

شاب من المجر فرق مته فصار مثل الدمقس اسودها

قرأت مرة رواية واظنها : رغائب يو حناس فيان ، وهي من روايات « انانول فرانس » اذكر ان يو حنا هذا ، وهو بطل الرواية ، احب فتاة رومانية مثلثة وقد

ملك عليه حبه عقله فكانت الدنيا في نظره صورة والخنا اي كانت الدنيا في نظره صورة المثلة التي شهد تمثيلها والخانة التي سمعها فكان يهيم على وجهه في جناب الليل اليهيم فلامزال هائما حتى يصل الى دار حبيته فتامل في اطرافها المظلمة ويقتل بابها وربما اغى عليه فلا يفيق الا على صوت هذه المثلة فالعاشق كل العاشر من نظر الى حبيه نظرة « يو حنا » هذا الى فتاته، افتشتمل غزل المتنبي على صور مثل هذه الصورة، افكلن المتنبي في غزله مثل اولئك العشاق الذين تعرض عليهم الطبيعة مشاهد كثيرة فلا يخلون الا بالمشهد الذي استولى على فكرهم وتسعمهم اصوات متابعته فلا يطربهم الا صوت حبيهم، اظن انه يصعب على الباحث ان يجد في غزل المتنبي شيئاً من هذا كله.

نعم لم اجد في كثير من غزل ابي الطيب الا ما اجد في غزل كثير من الشعراء فإذا شبه القوام شبه بالغضن وإذا شبه الوجه شبه بالشمس او بالقمر وإذا شبه الشعر شبه بظلام الليل، فمن هذا الشكل قوله :

غضن على نقوي فلابة نابت شمس النهار تقل ليل مظلما

فاللون في غزل المتنبي مرددة والاصوات مكررة فالصور التي صورها إنما هي صور عتيقة بالنسبة الى عصرين هذا ، وبالنسبة الى عصر المتنبي نفسه فاي ابداع في تشبيه الخد بالورد وتشبيه العين بعيون المهر او بالسيوف :

كم قتيل كما قلت شيد لياض الطلي وورد الخبود

وعيون المهر ولا كعيون فتكبت بالتميم العمود

ومن هذا القبيل قوله :

من طاعني ثغر الرجال جاذر ومن السلاح دملاج وخلال خل

ولذا اسم اغطية العيون جفونها من انيا عمل السيوف عوامل

فلم يتجام ابو الطيب المورد العام الذي ازدجم عليه كثير من الشعراء المتغيرلين

ولا يدفع عن السهام التي حلق فيها هؤلاء الشعراء فلم يخل معظم غزله من الاشجار

والافلاق لأن هذا الشعر لم يصدر عن قلب تيمه الحب فالصور التي صورها انما

هي صور بالية علائم أنيقية فما مثلها الا كثيل الرماد الذي يبقى من النار الحامدة،
وعلى الرغم من قوله في بعض شعره :

مجهد الصباة ان تكون كا ارى غين من هده وقلب يخفق مده
لم اجد في شعره اثرا لسهد عينه وخفقان قلبه .

لولا ظباء عدي ما شغفت بهم ولا برب لهم ولا جاجا ذره
من كل أحور في اياته شتب حمر يخامرها مسك تخامرها
تعج سحاجره دفع نواطره حمر غفاره سود غداره
فهذه نغمات كثيرة ما رددتها الشعرا قبل المتنبي وربما كان لهم في الاجادة
فيها نصيب اقوى من نصيبي اي الطيب ، فقد سأله المتنبي في غزله طریقاً كثرا من
سلكه حتى شاركه فيه غيره من الشعراء فلم يتجلوز مذهبهم .

وقد تعرزه رقة العاطفة في بعض غزله فهو لا يشبه اولئك العشاق المثيرين
الذين يفون في عبادة من يعشقوه ولتكنه من هؤلاء العشاق اصحاب القلوب
القاسية الذين اذا رقد اخبارهم وسهروا هم في التفكير فيهم اسفوا على ليالهم الى
تقضت في هذا التفكير :

بشمن اللباب سهنت من طرب شوفا الى من يبيت يزقدها
فإن الله الذي يضناه في الهوى انما هو مثل السم في الشهد والله الذي
يجدها في هذا الضنى انما هي لذة جهل :
ضنى في الهوى كالسم في الشهد كما نمتا لذلت به جهلا وفي اللذة الحتف
فها العقل بعلى عليه ولا اثر في هذه الامالي للعاطفة الرقيقة على ان له من
الایات ما يدل على فتاذه في حتبته :

ويدي اذى مهجنى اودك هوى فاجهل الناس عاشق حاقت
ينظر المتنبي في بعض غزله الى الحب نظر الفيلسوف المحيط بدقائق هذا الحب
فلا يكاد يخفى عليه امر من أمره ، ينظر اليه نظر الفيلسوف الذي يعلم ان
المرء يعشق غير صناع من دون ان يدرك لماذا يعشق ولكنه اذا عشق رحل عقله :

وما هي الا لحظة بعد لحظة اذا نزلت في قلبه رحل العقل
ومنه قوله :

إلى م طماعيـة العاذل ولا رأي في الحب للعاقل
ومنه قوله :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضاً نظرت وخلت اني اسلم
— فعقله في غزله اكثـر من عاطفـه والحب لا عمل فيه للعقل وانـها هو ابن العاطفة ، على
انه يعلم ان الحب هو الذي يغلـب على اللسان حتى لا يقدر على وصف ما في قلب
صاحبـه :

الحب ما منع الكلام الالـسـنا والذـشكـوى عـاشـقـ ما اـعـلـنا

نعم هذه هي حقيقة الحب، فإنه يغلـب على صاحـبه فلا يدرـي ما يقول ولكن
المتبـي لم يـغلـب عليه هـذا الحـب وـانـما مـثلـه كـثـلـ الفـيلـيـسـوفـ الذي يـريـدـ ان يـظـهـرـ
أـخـلـقـ المـرأـةـ فيـ الشـعـرـ لاـ كـشـلـ العـاشـقـ الذـي يـحـبـ ان يـظـهـرـ دـقـاتـنـ العـاطـفـةـ فيـ شـعـرـهـ :

فـنـ عـهـدـهاـ انـ لاـ يـدـوـمـ لهاـ عـهـدـاـ
وـانـ فـرـكـتـ كـانـتـ اـشـدـ صـبـابـةـ
وـانـ رـضـيـتـ لـمـ يـقـ فيـ قـلـبـهاـ رـضـىـ
كـذـلـكـ اـخـلـاقـ النـسـاءـ وـرـبـماـ
فـالـمـتـبـيـ لـمـ يـضـلـ بـاخـلـاقـ النـسـاءـ .ـ

على انه قد وردت في طائفة من غزله ايات نكادنليس فيها اثر العاطفة ولست
اعني بهذه الابيات قصيدة المشهورة :

من الجـاذـرـ فيـ زـيـ الـاعـارـيبـ حرـ الـحـلـيـ وـالـمـطـاـيـاـ وـالـجـلـاـيـبـ
الـيـ قـالـ فـبـهاـ الثـعـالـبـ :ـ وـنـاهـيـكـ بـهـذـهـ الـاـبـيـاتـ جـزـالـةـ وـحـلـاوـةـ وـحـسـنـ معـانـ ،ـ
كـلاـ وـلـاستـ اـعـنـيـ بـهـاـ الـبـيـتـيـنـ المشـهـورـيـنـ :

لـبـسـنـ الـوـشـيـ لـامـتـجـمـلـاتـ وـلـكـنـ كـيـ يـصـنـ بـهـ الجـالـاـ
وـضـفـرـنـ الـغـدـائـرـ لـالـلـحـسـنـ وـلـكـنـ خـفـنـ فيـ الشـعـرـ الضـلـالـاـ

اللذين قال فيهما الشاعري : وهذا من احسانه المشهور الذي لا يشق غباره فيه او البيتين التاليين :

حسان الثنبي ينقش الوشي مثله اذا مسن في اجسادهن النواعم
ويسمى عن در تقلد نمثله كأن التراقي وشحت بالمباس
أو غير هذه الآيات كلها من آيات الثنبي الحسنة في الغزل ، كلا اني لا
أشير الى هذا كله لأن هذا الشعر كله لا يخلو من أثر الصنعة فهو حسن ولا شك
ولكنه قليل النصيب من العاطفة وانما أريد بالآيات التي تشتمل على
العاطفة قوله :

أحبه والهوى وأدواره وكل حب صيابة ووله
هذه هي روح العشاق ، وهو لاءهم الشعراء الذين يعرفون مقدار الحب
فالعاشق يحب كل شيء من أجل حبيبه ، فهو يحب حبيبه ويحب الهوى
ويحب دار الحبيب ويقسم بالهوى وبدار الحبيب لأن الحب إن هو إلا ذهاب
العقل ومن هذا الشكل قوله :

واني لا عشق من أجلكم نحو لي وكل امرئ ناحل
ومنه قوله :

وكيف التذاذى بالاسائل والضحك اذا لم يعد ذلك النسيم الذي هبّا
ومنه :

اذا كان شم الروح أدنى اليكم فلا برحتني روضة وقبول
ومنه :

فليتها لا تزال آوية وليتها لا يزال ما واهما
نعم هذه هي روح العشاق وهذا هو رمز العاطفة ولكن أمثال هذه الآيات
قليلة في شعر الثنبي ، فلم يكن ابو الطيب من اصحاب النسيب الحاله .
فاذا لم يخلد نسيب الثنبي ، افخلد مرائيه . أفكان ابو الطيب في هذه المرائي
شجرة الاختراع وثمرة الإبداع ؛ فانتظر في هذا كله .

ما اظن المرانى الا هذا الضرب من الشعر الذى يقرأه القارىء فيتبين له فى تضاعيفه اثر اللوعة والحرقة، او كرامة الميت وبلغ تأثير موته فى اهله وقومه الى غير ذلك من الكلام على اخلاقه وخصائصه، فما يقبح المرانى هذه القصائد التي لا نرى فيها الا صوراً عاملاً تصلح لكل رجل يسىء عاليه، ومن هذا الشكل كثير من مرايى المتقدمين التي تشتمل على الغلو في كل شيء حتى اصبحت مدعاة الى الضحك بدلاب عن ان تكون محبلة للذموم ، فما هي خصائص مرأى المتبني؟

رثى ابو الطيب محمد بن اسحق التنوخي ورثى جدته التي كان يحبها خجلاً جداً ورثى والدة سيف الدولة وابنه ابا الهيجاء عبد الله وعبدہ يماك واخته الصغرى واخته الكبرى وابا وائل تغلب بن داود حمدان وابا شجاع فاتكا وعمة عضد الدولة ،

تحتفل المرانى في عظمة شأنها وحقارته على اختلاف موضوعاتها فاذا كان المرانى جليلًا استطاع الشاعر ان يجعل رثاءه جليلًا وتحتفل العواطف فيها على قدر اتصال الشاعر بالمرانى ، ولقد رثى ابو الطيب جماعة من أصحاب الشأن الجليل في عصرهم ورثى من يحصل بها حكم الاتصال وهي جدته فلننظر الى دموعه في هذه المرانى . -

هو ألومني ابو الطيب في طائفته من مراييه زمام الخيال ينبع به هذا الخيال حتى بلغ به أفقاً مشتركاً يسرح فيه كثير من الشعراء وكان هذا الامر في مقتبل عمره أي في الوقت الذي لم يشقف فيه خياله كل التشقيقات وهذه حالة كثير من الشعراء فانهم ينزعون في فاتحة الامر الى التقليد ولكنهم اذا كانوا من أصحاب العبرية لا يلبشون ان يخرجوا من هذا التقليد الى الابداع وهكذا كان المتبني في اول رثائه كرثائه للتنوخي :

ما كنت احسب قبلك دفنك في الثرى	ان <u>الشكوا</u> كتب في التراب تغور
ما كنت آمل قبل نعشك ان أرى	رضوى على ايدي الرجال تشير
خرجوا به ولكل باك خلفه	صعقات وهي يوم ذلك الطوار

والشمس في كبد السماء مربضة والارض واجفة تكاد تمور
وحفيف أجنيحة الملائكة حوله وعيون اهل اللاذقية صور
لجلـاـ الى الغلو في وصف الخطب وهذا مذهب كثـر من جـلـاـ اليـه من الشـعـراـءـ
فـلـيـكـنـ لـابـيـ الطـيـبـ فـيـ اـجـادـةـ اوـ اـحـسـانـ فـيـ اـسـتـطـاعـةـ الشـاعـرـ انـ يـقـولـ هـذـهـ الـاـبـيـاتـ
فيـ كـلـ رـجـلـ يـمـوتـ فـلـيـسـ لهاـ طـابـعـ خـاصـ وـدـوـاـيـنـ العـرـبـ مشـتـملـةـ عـلـىـ كـثـيرـ
منـ اـشـبـاهـ هـذـهـ المـعـانـيـ العـامـةـ .

— ولـئـنـ لمـ يـكـنـ لـمـوـثـيـةـ اـبـيـ الطـيـبـ فـيـ التـوـخـيـ طـابـعـ خـاصـ فـانـ فـيـ مـرـثـيـتـهـ فـيـ جـرـدـتـهـ
طـابـعـاـ ظـاهـرـاـ وـقـدـ اـشـرـتـ اـلـىـ هـذـهـ المـرـثـيـةـ فـيـ كـلـامـيـ عـلـىـ اـحـسـاسـ المـتـنـبـيـ فـلـسـتـ
أـجـدـ حـاجـةـ إـلـىـ الدـلـالـةـ عـلـىـ موـطـنـ مـوـاطـنـ العـاطـفـةـ فـيـهاـ فـالـقـصـيـدةـ طـهـاـ مـبـلـوـلـةـ
بـدـمـوـعـ اـبـيـ الطـيـبـ فـلـمـ يـنـزـعـ المـتـنـبـيـ فـيـهاـ إـلـىـ هـذـهـ الرـسـوـمـ العـامـةـ الـيـ تـكـوـنـ مـشـتـرـكـةـ .
ولـكـنـ جـلـلـةـ الشـعـرـ تـجـلـلـتـ فـيـ قـصـيـدـتـهـ فـيـ أـمـ سـيـفـ الدـوـلـةـ فـقـدـ وـجـدـ المـتـنـبـيـ
بـحـالـ القـوـلـ ذـاـ سـعـةـ ؛ وـوـجـدـ لـسـانـاـ قـائـلاـ فـقـالـ :

أـطـابـ النـفـسـ اـنـكـ متـ مـوـتاـ تـمـيـتـهـ الـبـوـاقـ وـالـخـوـالـيـ
روـاقـ العـزـ فـوقـكـ مـسـبـطـرـ وـمـلـكـ عـلـيـ اـبـنـكـ فـيـ كـمـاـلـ
اـيـ نـعـشـ اـكـرمـ مـنـ نـعـشـ يـمـشـيـ الـاـمـرـاءـ فـيـ حـفـاةـ :

مشـيـ الـاـمـرـاءـ حـوـلـيـهاـ حـفـاةـ كـانـ المـرـوـاـ مـنـ زـفـ الرـثـالـ
وـأـبـرـزـتـ الـخـدـورـ خـيـآـتـ يـضـيـعـنـ النـفـسـ اـمـكـنـةـ الغـوـالـيـ
اـتـهـرـ المـصـيـبةـ غـافـلـاتـ فـيـ دـمـعـ الـحـزـنـ فـيـ دـمـعـ الدـلـالـ
لـقـدـ اـسـتـرـزـ اـبـوـ الطـيـبـ جـلـلـةـ وـحـيـهـ مـنـ جـلـلـةـ الـمـبـيـتـ فـظـهـرـتـ آـثـارـ العـظـمةـ

عـلـىـ شـعـرهـ ،

وـكـذـلـكـ فـقـدـ اـسـتـطـاعـ انـ يـطـبـ بـكـامـ عـلـيـ اـبـنـ سـيـفـ الدـوـلـةـ بـطـابـعـ خـاصـ :
بـنـاـ مـنـكـ فـوـقـ الرـمـلـ مـاـبـكـ فـيـ الرـمـلـ وـهـذـاـ الذـيـ يـضـنـيـ كـذـاكـ الذـيـ يـلـيـ
كـانـكـ أـبـصـرـتـ الذـيـ بـيـ وـخـفـتهـ اـذـاـ عـشـتـ فـاخـتـرـتـ الـحـلـمـ عـلـىـ الثـكـلـ
تـرـكـتـ خـلـودـ الـغـانـيـاتـ وـفـوـقـهاـ دـمـعـ تـذـيـبـ الـحـسـنـ فـيـ الـاعـيـنـ النـجـلـ

تبَلُّ الثرى سوداً من المسك وحده وقد قطَرَت حمراً على الشعر الجليل
فان تك في قبر فانك في الحشا وان تك طفلاً فالأسى ليس بالطفل
ومثلك لا يبكي على قدر سنِه ولكن على قدر المخيلة والاصل
ولما بكي المتنبي على اخت سيف الدولة الصغرى كان عقله قد اختمر فنظر
إلى الحياة نظراً صحيحاً ومزج الفلسفة بالشعر بغاية نظراته صادقة فيها تجربة
الفيلسوف، قال الشاعر :

ولذيد الحياة أنفس في النفس وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أَفْ فـا مل حـيـا وـانـمـا الـضـعـفـ مـلاـ
آلـهـ العـيـشـ صـحـةـ وـشـيـابـ فـاـ دـلـيـاـ عـنـ المـرـهـ وـلـتـيـ
أـبـدـأـ تـسـتـرـدـ ماـ تـهـبـ الدـنـيـاـ فـيـاـ لـيـتـ جـوـدـهاـ كـاـنـ بـخـلـاـ
فـكـفـتـ كـوـنـ فـرـحةـ تـورـثـ الغـمـ وـخـلـ يـغـادـرـ الـوـجـدـ خـلـاـ
وـهـيـ مـعـشـوـقـةـ عـلـىـ الغـدـرـ لـاـ تـحـفـظـ عـهـداـ وـلـاـ تـتـمـمـ وـصـلـاـ
كـلـ دـمـ يـسـيلـ مـنـهـ عـلـيـهـ وـبـفـكـ الـيـدـيـنـ عـنـهـ تـخـلـىـ
شـيمـ الـغـانـيـاتـ فـيـهـ فـاـ أـدـرـيـ لـذـاـ أـدـثـ اـسـهـاـ النـاسـ أـمـ لـاـ
وـلـمـ يـكـنـ بـكـاؤـهـ عـلـىـ أـخـتـ سـيفـ الدـوـلـةـ الـكـبـرـىـ بـأـقـلـ مـنـ بـكـائـهـ عـلـىـ أـخـتـهـ
الـصـغـرـىـ فـيـ هـذـهـ الـمـرـيـةـ أـجـرـىـ قـلـهـ فـيـ وـصـفـ الـمـصـيـةـ فـكـاـدـتـ الـمـصـيـةـ تـكـلـمـ :
طـوـيـ الـجـزـيـرـةـ حـتـىـ جـاءـنـيـ خـبـرـ فـزـعـتـ فـيـهـ بـآمـالـيـ إـلـىـ الـكـذـبـ
حـتـىـ إـذـاـ لـيـ بـدـعـ لـيـ صـدـقـهـ أـمـلاـ شـرـقـتـ بـالـدـمـعـ حـتـىـ كـادـ يـشـرـقـ بـيـ
تـعـرـثـ بـهـ فـيـ الـأـفـوـاهـ أـلـسـنـهـ وـالـبـرـدـ فـيـ الـطـرـقـ وـالـأـقـلـامـ فـيـ الـكـتـبـ
ثـمـ أـفـاضـ فـيـ الـكـلـامـ عـلـىـ أـخـلـاقـ أـخـتـ سـيفـ الدـوـلـةـ وـأـلـفـ بـيـنـ هـذـاـ الـكـلـامـ
وـبـيـنـ صـدـقـ عـاطـفـتـهـ وـحـسـنـ وـفـائـهـ وـكـرـمـ موـدـتـهـ وـقـدـ انـقـطـعـ عـنـ سـيفـ الدـوـلـةـ وـلـمـ
يـقـ لهـ طـمـعـ فـيـ الـعـودـةـ إـلـيـهـ :

أـرـىـ الـعـرـاقـ طـوـيـلـ اللـيـلـ مـذـ نـعـيـتـ فـكـيـفـ لـيـلـ فـتـيـانـ فـيـ حـلـبـ
يـظـنـ أـنـ فـؤـادـيـ غـيـرـ مـلـتـبـ وـانـ دـمـعـ جـفـونـيـ غـيـرـ مـنـسـكـ

بلى وحرمة من كانت مراعية لحرمة المجد والقصد والأدب
ومن مضت غير موروث خلاة ثقها وان مضت يدها موروثة النشب
وهمها في العلي والمجد ناشئة لهم اترابها في اللهو واللعلب
يعلمون حين تحيّما حسن مدسمها وليس يعلم الا الله بالشنب
هذا هو الرثاء لا تلك الصور الجامدة التي صورها في رثاء التنوخي فان مراييه
من بعد مرثية التنوخي طبعت بفرط الحس وكرم العاطفة وطيب القول وصدق النظر
في الحياة وقد جاء الى النظارات الفلسفية في رثائه فرة كان يختصرها :

تصفوا الحياة لجاهل او غافل
ولمن بغالط في الحقائق نفسه
أين الذي المهرمان من بنيانه
تختلف الاثار عن اصحابها
عَمَّا ماضى فيها وما يتوقع
ويسموها طلب الحال فتطمع
ما قومه ما يومه ما المشرع
حينما ويدركها الفناء فتبعد
ومرة كان يتسع فيها :

لا بد للانسان من ضجمة
ينسى بها ما كان من عجبه
نحن بنو الموت فما بالنا
تبخل ايدينا بارواحتنا
فهذه الارواح من جوه
— لو فكر العاشق في متهى
حسن الذي يسميه لم يسبه
لم يبر قرن الشمس في شرقه
يموت راعي الضأن في جهله
وربما زاد على عمره
وغاية المفرط في سلمه
فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من ربعة

هذه جملة القول في مراييه فإذا كان لها طابع خاص فما هذا الطابع الا جلاء

الشأن ولئن قلّد أبو الطيب في نسبيه ومشى فيه على آثار غيره فقد ابدع في مراءيه
اما أهاجيه فتارة كان يهجر فيها ويفحش ، فمن هذا الشكل قوله :
وقد أرى الخنزير أني مدحته ولو علموا قد كان يهجن بما يطري
ومنه قوله :

ابا النتن قد قيدني بمواعد مخافة نظم للفؤاد مرووع
وقدّرت من فرط الجهة لاني اقيم على كذب رصيف مصنوع
اقيم على عبد خمي منافق لثيم رديء الفعل للجود مدّع
او كفه صيده في ضبة ، فلا تخزعج هذه الاهاجي عما يتشارى به عامة القوم
فقد كان ابو الطيب يباده بها مبادهه دون ان يغطيها باغطية رقيقة تستر شيئاً من
سوء القول ولم ينج من هذه الشتائم حي ولا ميت واذا كان الطعن في الميت
لا يعد من مكارم الاخلاق فالمتنبي لم يتعفف عن هذا الطعن :

ان مات مات بلا فقد ولا أسف او عاش عاش بلا خلق ولا خلق
منه تعلم عبد شق هامته خون الصديق ودس الغدر في الملق
وحلف ألف يمين غير صادقة مطرودة ككعوب الرمح في نسق
— وتارة كان يتهكم في أهاجيه تهكماً أمر من القذع والفحش والتهكم في الهجاء
أشد ايلاماً من السب والشتم وقتل للخصم ، ف منه قوله في كافور :
من علام الأسود المخسي مكرمة أقومه البيض أم آباءه الصيد
ومنه قوله :

من اية الطرق يأتي مثلك الكرم اين المحاجم يا كافور والجليل
ومن هذا الشكل :

ومصر لعمري اهل كل مجيبة ولا مثل ذا المخسي اعجوبة بكرا
يعد اذا عد العجائب او لا كما يبتدأ في العدد بالاصبع الصغرى
فلا شك في ان هذا الضرب من الهجاء اعف من كلمات الخنزير والمنافق

واللئيم وما شاهرها من كلام العامة فهو أشد إيجاعاً وأرفع شامتاً .

وإذا لم ير انتنبي حرمة كافور في مجاهاته ايامه فقد راعى هذه الحرمة في تعریضه بسیف الدولة فكان هذا التعریض أثراً نفس ثائرة على من تحبه يتنازعها عاملان: عامل الاغصاء على الاذى وعامل التشفي من الغيظ ولكن التشفي غالب في خاتمة الامر على الاغصاء فعرض المتنبي بتغییص سیف الدولة وبمنته دون ان يشتمل هذا التعریض على شيء من شتائم السوقه .

٢٠ . . اذا انتقلنا من هذه النواحي كاها : نواحي الغزل والبكاء والهجاء الى آفاق المدح والوصف والحكمة تبين لنا ان عبقرية المتنبي ارتفعت في هذه الآفاق الى سماء أعلى وصيغت بصياغ خاص . -

أول هذه المذاهب مذهب المدح على أن هذا المذهب لا يخلو من بعض المساويء؛ من جملتها تكرار المعاني في طائفة من مدائع النبي، والغلو في بعض مدحه واللجوء إلى صفات تكاد تكون عامة ليس عليها شيء من رونق الجدة والطرافة.

اما تكرار المعاني فمثل مدائح اي الطيب في هذا التكرار كمثل رواسم يطبع
بها الشاعر اي مدوخ شاء حتى لا نكاد نجد فرقاً كبيراً بين مدوخيه .
فنـ هذا النوع وصفـه لطبيعة كرم بعض مدوخيه وهو المشطب الذي
قال فيه :

فلم تكن هذه الصفة خاصة بالمشطب فقد طبع بها المتنبي، سيف الدولة فقال له
يعطي فلا مطلة يكدرها بها ولا منة ينكدها

انت الجواب بلا من ولا كدر ولا مطال ولا وعد ولا مذل
ومن هذا التكرار وصفه للشجاعة فقد قال في الكلابي المنبجي :
لما رأوه وخيل النصر مقبلة وال Herb غير عوان أسلموا الحلا
وهذا القول أو ما يقرب منه قاله في سيف الدولة :

فلما رأوه وحده قبل جيشه دروا ان كل العالمين فضول

و من هذا الشكل قوله في المنبيجي :
وضاقت الأرض حتى كان هاربهم اذا رأى غير شيء ظنه رجل
وهذا القول او ما يشاكله قاله في سيف الدولة :
فكلما حلمت عنراء عندهم فانما حلمت بالسي و الجبل
والشاهد على وحدة المعاني في بعض مدائع اي الطيب كثيرة ، فنها قوله في
اي المتصر الا زدي :
أميري مثل محمد في عصرنا لاتبلي بطلاب مالا يلحق
لم يخلق الرحمن مثل محمد أحداً وظني انه لا يخلق
ولكن الرحمن خلق مثل محمد وهو سيف الدولة الذي قال فيه المتنبي :
ومن علي بن عبد الله معرفي بحمله من كعب الله او كعالي
نعم الشاهد على وحدة المعاني كثيرة و آخر ما ذكره منها هذا البيت الذي
قاله المتنبي في جعفر بن كيغلغ :
يا من نلوذ به فيها أو مله ومن اعود به مما أحذره
و هذا الشيء ذاته قاله في الطرسوسي :

يا من نلوذ من الزمان بظله أبداً ونظره باسمه ابليس
ولست أحاول الاستقصاء في هذا الباب وانما رغبت في ذكر انماط من
اماديع المتنبي استدلاها بها على وحدة المعاني في طائفة من هذه الاماديع ، فلم يكن
لالمتنبي في مدح بعض مدوحه صور خاصة اي لم يصل ابو الطيب الى أعماق المدوح
حتى يستخرج منها صورة خاصة بهذا المدوح تناسبه ولا تنساب غيره من المدوحين
فلنجاور هذا العيب الى غيره من عيوب مدائع المتنبي ، من هذه العيوب
العلو في وصف المدوح :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لبع البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى

أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فكان العالمون مجوسا
فهذا ضرب من المدح خارج عن الاعتدال حتى ليكاد يكون مبذلا .
ومن هذه العيوب ورود المتنبي في بعض مدائنه موارد مشتركة يردها
ويصدر عنها كثير من الشعراء ، منها قوله :
يفني الكلام ولا يحيط بفضلكم
ومنها :

ولكنْ بایام اشبن التواصیا
وانت تراها فی السماه مراقیا
تری غير صاف ان تری الجوصافیا
بؤدیک غضبانا وینئیک راضیا
عداک تراها فی البلاد مساعیا
لبست لها کدر العجاج کأنما
وقدت اليها كل اجرد ساجع
ومنه مدحه لانی شجاع :

ابو شجاع ابو الشجعان قاطبة هول نمته من الهيجاء اهواه
تملّك الحمد حنى ما لمفترخ في الحمد حام ولا ميم ولا دال
عليه منه سرایيل مضاعفة وقد كفاه من الماذي سربال

⊗ ⊗ ⊗

نـ لـ رـ مـ شـ

غير ان الخلية التي جلـى فيها ابو الطيب انما هي حلبة الوصف ولست اطلق هذا
الوصف اطلاقا وانما اريد به ناحية من نواحـيـه وهي ناحية المعارك، حتى قال ابن
الاثير في المثل السائر :

« واما ابو الطيب المتنبي فانه اراد ان يسلك مسلك اي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما اعطاه ، لكنـهـ حظـيـ فيـ شـعـرهـ بالـحـكـمـ وـالـأـمـالـ واختص بالابداع في مواضع القتال ، وانا اقول فيه قوله است فيه متأثرا ولا منه متباينا بذلك انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من فصاحتها واشجع من ابطالها وقامت اقواله للمساهم مقام افعالها حتى يظن ان الفريقيـنـ قد تقابلـاـ والـسـلاـحـينـ قد توافقـاـ فـطـرـيـقـهـ فيـ ذـلـكـ يـضـلـ بـسـالـكـهـ وـيـقـومـ بـعـذـرـ تـارـكـهـ وـلـاشـكـ انهـ كانـ يـشـهـدـ الـحـرـوبـ مـعـ سـيفـ الدـوـلـةـ فـيـصـفـ لـسـانـهـ مـاـ اـدـاهـ عـيـانـهـ »

نعم ، هذه هي الناحية الى برز فيها المتنبي فتكاد تمثل معظم عبقريته او ربما كان لروحه ولطبياعه الاثر الابلغ في تبريزه في وصف الحروب وأدواتها فقد كان هذا النوع من الشعر لاصقاً بطبعه ممزوجاً بروحه فكان شعره فيه صورته الناطقة وأريد بهذه الصورة شغفه بالحروب وانبساطه الى روية الدم والشاعر يبدع في المذهب الذي تأنس به نفسه . —

ولقد مثل ابو الطيب في وصف المعارك جهة من جهات عصر سيف الدولة فكان شعره في هذا الوصف مرآة مصقولـةـ تعـكـسـ تلكـ الجـهـةـ فقد حفظ لنا المتنبي لوحـاـ ناطقاً يفصـحـ عـمـاـ رـمـ عليهـ منـ غـزوـاتـ سـيفـ الدـوـلـةـ وـغـارـاتـهـ فـلـ يـغـادرـ اـمـرـاـ منـ اـمـورـ تلكـ الحـرـوبـ الاـوـضـحـهـ حتـىـ تـجـلـتـ لـنـاـ مـهـابـةـ سـيفـ الدـوـلـةـ فيـ العـيـونـ وـمـقـادـيرـ هـضـلـهـ فيـ دـفـعـ الرـوـمـ عنـ دـبـارـ اـشـامـ وـهـمـاـ وـصـفـ رـجـالـ الـنـارـ يـخـ هـذـهـ الغـزوـاتـ .

والفارات فلا يستطيع وصفهم ان ينطق بما نطق به شعر المتنبي المشتمل على صور
شئ ، فاننا لانشاء ان نعرف شيئاً عن جيش سيف الدولة وعن سفنه وعن مخاوفه
الروم منه وعن شدة غزوته وعن صباغها القومي وصباغها الديني وعن تحرير
منازل الروم وتخريب ديارهم الا عرفناه . —

ـ فإذا تكلم على عرض الجيش ذكر تجافيف الخييل ومفاضات الفرسان وتراثكم
وذكر الرايات والشعار والسلاح المسمى ووصف دربة الخييل فلا يغادر لونا
او شكل من الوان الوصف واشكاله ، فكأننا بمحضر جيش متكامل العدة مستثنى
التعبية :

علي الفارس المرخي النؤابة منهم
يسير به طود من الخييل ايه
يجمع اشتات البلاد وينظم
من الضرب سطر بالاسنة معجم
وعينيه من تحت الترية كه ارق
وما لبسته والسلاح المسمى
يشير اليها من بعيد ففهم
ويسمعها لفظا وما يتكلـم
فكل حسان دارع متلشم
ولـكن صدم الشر بالشر اجزم
ـ فـ اذا كان هذا الوصف طبيعة فطبيعته الدقة لـ ان ابا الطيب لم يغفل عن ذكر
ما يأخذ بمجامع القلوب في عرض الجيوش ، فالذى يستهوي الطرف في هذا
العرض انما هي ملابس الخييل وملابس الفرسان وحركات الخييل والفرسان والمتنبي
تـكلـم على هذا كله فـا سـهـا عن صـغـيرة او عن كـبـيرـة وهذا النوع من الوصف الدقيق
ـ

يفتقـر اليـه الشـعـرـ العـربـيـ ↑

ـ ولكن كلامه على سفن سيف الدولة لا يـعـدـ في طبـقـةـ كـلامـهـ علىـ الجـيـشـ فـانـادـواتـ

الوصف تتفصّل في هذا المذهب حتى اضطر إلى استعارة أدوات الخيال فلم يبيّن لنا إلا لوناً من الألوان في وصف السفن :

فاصمتاً تل بطريق فكان لها
ابطالها ولكل الأطفال والهرم
تلقي بهم زيد التيار مقربة
على جحافلها من نضجه رشم
دهم فوارسها ركاب ابطئها
مكدودة وبقوم لا بها الالم
من الجياد التي كدت العدو بها
وما لها خلق منها ولا شيء

واذا تكلم على هرب الروم هو لامر حتى نكاد نظن ان الروم ينهزمون برأي
منا زرافات ووحداً :

سرابيك تترى والدمستق هارب
واسصحابه قتلى وامواله نهي
أى مرعشما يستقرب بعد مقبلنا
وادرأذ اقبلت يستبعد القربا
كذا يترك الاعداء من يكره القنا
ويقفل من كانت غنيمةه رباعا
وهل رد عنه باللقان وقوفه
صدور العوالى والمطهمة القبا
مضى بعدهما التيف الرماحان ساعة
حاليا يتلقى المدب في الرقدة الهدباء
ولكنه ولى وللطعن سورة
وخلن العذاري والبطاريق والقرى
وشعث النصارى والقرىين والصلبا

ولقد اكثير من الاشارة الى هرب الروم فكان في كل مرة يشير فيها الى
خوفهم يصور الخائفين في صور ناطقة ، فرة يحملون بالخوف :

جاز الدروب الى ماحلف خرشنة
وزال عنها وذاك الروع لم يزل
فكلا حلمت عذراء عندهم
فأنما حلمت بالسيبي والجمل
ان كنت ترضي بان يعطوا الجزى بذلوا
منها رضاك ومن للعور بالحوال

مرة يتخبطهم المس من هذا الخوف :

واما نجا من شفار البيض منفلت نجا
يباشر الامن دهراً وهو مختبل ويشرب الخمر حولاً وهو متقطع
هذا هو الوصف الذي انفرد به ابو الطيب فلا تجاري له فيه اقلام النظراه

فَيَ بَيْتَيْنِ مِنَ الشِّعْرِ يُعَرِّضُ عَلَيْنَا صُورَةً لِلْجَيْشِ :
✓ وَجَيْشٌ يَنْتَهِي كُلَّ طُوْدٍ كَائِنٌ خَرِيقٌ رَبَاحٌ وَاجْهَتْ غَصَّنَا رَطْبَا
كَائِنٌ نَحْوُمُ الْلَّالِلِ خَافِتٌ مَغَارَهُ فَمَدَّتْ عَلَيْهَا مِنْ عِجَاجِهِ حَجَبَا
وَفِي بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ يَصِفُ لَنَا تَحْرِيقَ مَنَازِلِ الرُّومِ وَتَخْرِيبَ دِيَارِهِمْ :
تَسَايِرَهَا النَّيْرَانُ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ بِهِ الْقَوْمُ صَرْعَى وَالْدِيَارُ طَلَولٌ
وَفِي بَيْتَيْنِ مِنَ الشِّعْرِ يَصِفُ لَنَا اضْطِرَابَ الْقَسَاطِلِ وَالْمُنَاهَلِ
بِدَمَاءِ الرُّومِ :
✓ وَإِنِّي أَهَدَى هَذَا الرَّسُولَ بِأَرْضِهِ وَمَا سَكَنْتُ مِنْ سَرْتِ فِيهِ الْقَسَاطِلِ
وَمِنْ أَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِي جِيَادَهُ وَلَمْ يَصُفْ مِنْ مَرْجِ الدَّمَاءِ الْمَنَاهِلِ
وَمِثْلُ هَذَا السُّحْرُ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ الْمَتَبَّيِّ فِي غَزوَاتِ سِيفِ الدُّولَةِ وَغَارَاتِهِ
وَلَسْتُ أَظْنَنُ أَنَّ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ شَاعِرًا يَعْلُو إِلَيْهِ الطَّيْبُ فِي هَذَا الْمَذْهَبِ .
وَمَا هَذِهِ الرَّوَايَةُ كَلْمَهَا إِلَى جَنْبِ قَصِيدَتِهِ فِي بَنَاءِ الْحَدِيثِ :

هُلْ الْحَدِيثُ الْحَمَراءُ تَعْرُفُ لَوْنَهَا وَتَعْلَمُ أَيِّ السَّاقِينَ الْعَافَّاُمِ
سَقَتْهَا الْغَامُ الْغَرُّ قَبْلَ نَزُولِهِ فَلِمَا دَنَا مِنْهَا سَقَتْهَا الْجَاجِمُ
بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا يَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَابِيَا حَوْلَهَا مَتَلَاطِمٌ
وَكَانَ بِهَا مَثُلُ الْجَنُونِ فَأَصْبَحَتْهَا طَرِيدَةً دَهْرٌ سَاقِهَا فَرَدَدَهَا
وَكَيْفَ تَرْجِي الرُّومُ وَالْرُّوسُ هَدْمَهَا وَذَا الطَّعْنِ أَسَاسُهَا وَدَعَائِمُ
وَقَدْ حَاكُمُوهَا وَالْمَنَابِيَا حَوْلَهُمْ فَمَا مَاتَ مَظْلُومٌ وَلَا عَاشَ ظَالِمٌ
أَتُوكَ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَائِنًا مَا سَرَوا بِجِيَادِ الْمَهْرَنِ قَوَاعِمَ
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تَعْرُفُ الْبَيْضَ مِنْهُمْ ثَيَابَهُمْ مِنْ مَثَلِهَا وَالْعَافَّاُمِ
خَمِيسُ شَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفَهُ وَفِي أَذْنِ الْجَوَزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ
تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لَسْنٍ وَأَمْمَةٍ فَمَا يَفْهَمُ الْحَدِيثَ إِلَّا التَّرَاجِمُ
فَلَلَّهِ وَقْتُ ذُرَّبِ الْغَشْ نَارَهُ فَلَمْ يَقِنِ الْأَصَارِمُ أَوْ ضَبَارِمُ

تقطّع مالا يقطع الدرع والقنا
 وفري من الفرسان من لا يصادم
 كأنك في جهن الردى وهو نائم
 تمر بك الابطال كلبي هزيمة
 ضممت بجناحيهم على القلب ضمة
 تموت الخوافي تحتها والقوادم
 بضرب أني الهمات والنصر غائب
 وصار الى اللبات والنصر قادم
 حقرت الردينيات حتى طرحتها
 وحى كائن السيف للرمح شاتم
 مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
 ومن طلب الفتح الجليل فانما
 نثرتهم فوق الاحيدين نثرة كما نثرت فوق العروش الدهرام
 تدوس بك الحيل الوكور على الذرى وقد كثرت حول الوكور المطاعم
 تظن فراغ الفتيخ أنك زرناها بأماتها وهي العناق الصـلـادـم
 اذا زلت مشيتها ببطونها كما تتمشى في الصعيد الاراقم
 ← فابو الطيب شاعر العوالى والسوابق اذا وصف معركة أفضى في الكلام على
 الدقائق كالكلام على سير الخيل وسير الجيش وكالكلام على حسن الثبات وقبح المهزيمة
 وكالكلام على هيآت المازم والممزوم الى غير ذلك من الصفات التي تحتاج الى
 حواس قوية تعمل فيها مشاهد القتال والى خيال مدید يحيي هذه المشاهد . وقد
 اجتمع للمتنبي شيء من هذا كله و اذا أضفنا الى ما اجتمع له من قوة
 الحواس وامتداد الخيال سيله الى الحروب وشهوده أكثر الغزوـات والغارـات
 والفتـه للبدو في فاتحة أمره لم نتعجب من تبريزه في هذا الميدان الذي لا يلحقـه به
 لاحـق فـاذا خـلد أبو الطـيب فـان مـعـظـم خـلـودـه يـكونـ منـ نـاحـيـةـ هـذـاـ الـوـصـفـ فـهـوـ
 وـسيـفـ الدـولـةـ متـلاـزـمانـ فـيـ هـذـاـ الـخـلـودـ فـلـاـ يـذـكـرـ سـيفـ الدـولـةـ الاـ ذـكـرـ معـهـ المـتنـبيـ
 وـلـاـ يـذـكـرـ أبوـ الطـيبـ الاـ ذـكـرـ معـهـ سـيفـ الدـولـةـ فـلـوـ لـاـ وـصـفـ المـتنـبيـ لـعـارـكـ سـيفـ
 الدـولـةـ لـمـ كـانـ هـذـهـ الـعـارـكـ صـورـ نـاطـقـةـ وـلـوـ لـاـ عـارـكـ سـيفـ الدـولـةـ لـمـ كـانـ عـقـرـيةـ
 المـتنـبيـ تـخلـدـ الاـ مـنـ نـاحـيـةـ وـاحـدـةـ وـهـيـ نـاحـيـةـ الـحـكـمـةـ وـلـكـنـ خـوـضـهـ مـعـارـكـ سـيفـ الدـولـةـ
 جـعـلـهـ حـظـاـ أوـ فيـ مـنـ الـخـلـودـ فـاـذاـ كـانـ الـأـدـبـ مـرـأـةـ الـجـمـعـ فـشـعـرـ المـتنـبيـ مـرـأـةـ غـزوـاتـ

سيف الدولة في بلاد الروم .

وإذا كان في وصف المعارك شيء يسير يؤخذ به المتنبي فما هذا الشيء إلا تكرار بعض الصور في هذا الوصف ، فمن هذا التكرار قوله في بعض قصائده وقد أراد أن يصف سرعة الخيل في سيرها :

قاد المقابر أقصى شربها نهل على الشكيم وأدنى سيرها سرع
وهذا قريب من قوله :

وخيـلـ بـرـاـهـاـ الرـكـضـ فـيـ كـلـ بـلـدـةـ اـذـاـ عـرـسـتـ فـيـهـاـ فـلـيـسـ تـقـيلـ
ومن هذا النحو قوله وقد وصف همة سيف الدولة :

لو كـلـتـ خـيـلـ حـتـىـ لـاـ تـحـمـلـهـ تـحـمـلـهـ إـلـىـ أـعـدـائـهـ الـهـمـ

وهذا شبهه قوله :

أـكـلـاـ رـمـتـ جـيـشـاـ فـانـشـنـيـ هـرـبـاـ تـصـرـفـتـ بـكـ فـيـ آـثـارـهـاـ الـهـمـ
ومنه قوله وقد أشار إلى تحريق منازل الروم :
عـبـرـتـ تـقـدـمـهـمـ فـيـ وـفـيـ بـلـدـ سـكـنـاهـ رـمـ مـسـكـونـهـاـ حـمـ
وهذا مثل قوله :

تسـاـيـرـهـاـ النـيـرانـ فـيـ كـلـ مـنـزـلـ بـهـ الـقـوـمـ صـرـعـيـ وـالـدـيـارـ طـلـولـ
لـكـنـ وـحـدـةـ هـذـهـ الـمـعـانـيـ لـاـ تـحـطـ مـنـ قـدـرـ هـذـاـ الـوـصـفـ الجـلـيلـ .

ولئن مثل أبو الطيب المتنبي ناحية من نواحي « فتى الفتىان في حلب » فإنه لم يمثل لنا النواحي كلها من عصر ملك حلب ، فلم نجد في شعر المتنبي ما نجده في شعر البحترى من وصف قصور بنى العباس ، ونعم الخليفة . وترفها ، أفkan سيف الدولة بعيداً عن مثل هذه النعيم والترف ، أم كان المتنبي غارقاً في الكلام على الجاجم والغلاصم وعلى القساطل والمجاھف ، فشغله دماء الروم عن الكلام على شيء من المدامنة والأوتار والنغم :

أـلـهـيـ الـمـالـكـ عـنـ فـخـرـقـفـاتـ بـهـ ثـرـبـ المـدـامـةـ وـالـأـوـتـارـ وـالـنـغـمـ

فلم يصل اليانا شيء من نعيم سيف الدولة الا هذه الصورة التي صورها لنا المتبنّى فأررنا سيف الدولة جالساً في فازة من الديباج:

— عليها رياض لم تحكمها سحابة
واغصان دوح لم تعن حماه
وفوق حواشى كل ثوب موجّه
من البر سبط لم يشقه ناظمه
ترى حيوان البر مصطلحاً به
يحارب ضد ضده ويسلامه
اذا ضربته الريح ماج كاته
نجول مذا كيه وتدأى ضراغمه

ومن هذه الآيات القليلة يتبيّن لنا أنّ المتبنّى لا يقصر اذا شاء عن التصاویر المشتملة على ألوان برّاقة ولكنه انصرف عن هذا النوع من الشعر الى مذهب أصدق بنفسه وأعاق ببروجه فلم يتم بمشاهد الطبيعة على ان ما خلتفه لنا من وصف شعب بوّان يدل على ان عبقريته قد تستهويها الطبيعة في بعض الاوقات فاذا استهواها الطبيعة أو حمت اليها خصائص الالوان فيطبع خياله مشاهدها بطوابع خاصة تليق بها وقد لا تليق بغيرها:

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان
طبت فرساننا والخيل حتى خشيت وان كر من منحران

وكيف كان الامر فان ابا الطيب لم يتسع في هذا المذهب توسيع غيره من شعراء الطبيعة وفي مقدمتهم البحتري الا ان الوصف الذي يستعمل عليه بعض شعره انما هو وصف دقيق لا يخلو من روح وحياة فلما وصف الحمّى:

وزائرتي كائن بها حياء وليس تزور الا في الظلام
بذلث لها المطارف والخشايا فعاقتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها فتوسعته بانواع السقام
كائن الصبح يطردها فتجري مدامعها باربعه سجام
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر اذا القاك في الكرب العظام

تفتح فيها حياة فجعل الموصوف بمنزلة شخص ناطق، ولكن الذي وفق فيه

كل التوفيق إنما هو وصف الأسد فقد خاص في دقائق الوصف كلها فلم يغفل
عن الاشارة الى مهابة الموصوف :

وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْدَنْ^١ مِنْهُ بَلِيةٌ
وَرَدَ إِذَا وَرَدَ الْبَحِيرَةَ شَارِبًا
وَلَا غَفْلَةَ عَنِ الْإِشَارَةِ إِلَى هَيَّاْتِهِ :
مَتَخَضَبْ بَدْمَ الْفَوَارِسِ لَابِسٌ
مَا قَوِيلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظَنَّتِهَا
وَلَا أَهْمَلْ ذِكْرَ عِيشَتِهِ وَمَشِيتِهِ :

لَا يَعْرِفُ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَا
يَطَا^٢ الثَّرَى مُتَرْفِقًا مِنْ تَيْهِهِ فَكَانَتْهُ آسٍ يَجْسُسُ عَلِيَّا
وَلَا قَصْرٌ فِي تَصْوِيرِ اسْتَعْدَادِهِ لِلْمَجْوُمِ عَلَى فَرِيسَتِهِ :

مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زُورَهِ حَتَّى حَسِبَتِ الْعَرْضُ مِنْهُ الطُّولَا
وَيَدِقُ بِالصَّدْرِ الْحَجَارَ كَانَهُ يَبْغِي إِلَى مَا فِي الْحَضِيرَ سِيلَا
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْرَارِ الْوَصْفِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى أَنَّ إِبَابَ الطَّيْبِ يَسْتَطِيعُ إِذَا
شَاءَ أَنْ يَتَعَلَّفَ فِي الْبَوَاطِنِ وَالظَّوَاهِرِ فَيَسْتَخْرُجَ مِنْهَا اشْكَالًا فِيهَا حَيَاةٌ وَشَعُورٌ .

* * * *

هذا شيء من الكلام اليسير على مذهب المتنبي في الوصف، فإذا برب ابره
الطيب فان تبريزه في وصف المعارك وإذا خلد فانما يخلد من هذه الناحية ومن
ناحية الحكمة فإذا كان المتنبي شاعر الهيجاء فإنه شاعر الحكمة والمثل ، فقد بلا
اخلاق الناس وامتحن الدنيا وعرض الحياة فاستبط من هذا كله روانع الحكم
وسوائر الامثال فلا خوف على خلود عبقريته ما دمنا نحتاج في كل عصر من
العصور إلى شکوى الدهر والدنيا والناس وإلى المروعة والاعتبار وإلى ما يجري
بحري هذه الامور وأشباهها ، لا خوف على خلود هذه العبرية ما دامت العربية
لغة كثير من الخلق ، وما دام أهل هذه اللغة يتمثلون بالآيات التي تشتمل على
صور الحياة بمجامعها ، كرمها واؤها ، وحلوها ومرها ، وعزها وذلها ، وراحتها

و تعبرها ، وخيرها وأماماً وياً سهل ، فلم يخطيء أبو الطيب في قوله :
وما الدهر الا من رواة قصائدی اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

* * *

لز منامن بعد هذا كله ان نعرف مصادر عبقرية المتنبي ، من هم الشعراء الذين أثروا
في هذه العبقرية ومن هم الشعراء والكتاب الذين اثرت فيهم عبقرية أبي الطيب
وهذا باب لا يحتاج فيه الى التطويل ، فان المتقدمين من الادباء امثال الشاعري
والجرجاني قد عقدوا الفصول الطوال في الكلام على الشعراء الذين أخذ عنهم
وعلى الشعراء الذين اخذوا عنه ، فاما الذين حلو نظمهم واستعانا بالفاظه ومعانيه
هم الصاحب بن عباد وابو سحق الصابي والاستاذ احمد بن ابراهيم الضبي وابو
بكر الخوارزمي وابو فرج البيغاء والمهمبي الوزير والسرى بن احمد وابو الفتح
علي بن محمد البستي الكاتب وابو الحسن السلامي وابو القاسم الزعفراني وغيرهم
واما الذين استعانا بهم المتنبي هم ابر تمام وابن الرومي والاعشى وابو نواس
وعبد الله بن محمد المهمبي وموسى بن جابر الحنفي وعبد الله بن طاهر والعباس
بن الاخف وابي الحترى واسحاق الموصلي وابوهفان وعلي بن الجهم ويعقوب
بن الريبع وبكر بن النطاح وابن المعتز وابوسعيد المخزومي وامرؤ القيس وكثير
من امثالهم فهن كان لهم ان يعرف شيئاً من هذا الاخذ فليرجم الى الجرجاني والى
الشعاعي فقد شفى كل منهما وكفى وبالغ فاؤ في ، اما انا فاني على مذهب الذي
يقول : العق العسل ولا تسل عن نحله ، فسواه علي امرؤ المتنبي من الشعراء
ام سرقوا منه ، ان الذي يعنيني انما هو هذا القالب الذي صب فيه المسروق ،
فاحسن ما قاله الجاحظ في هذا المعنى ^(١) :

والمعنى مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي
وانما الشأن في اقامة الوزن وتمييز اللفظ ومسؤولته ومسؤولية المخرج وفي صحة الطبع
وجودة السبك فانما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير ؟

لغة المتنبي

١٥

اذا كان الشعر ضرباً من الصحيح وجنساً من التصوير على نحو ما عرفه الماحظ
فما هو الصياغ الذي كان يصيغ به ابو الطيب المتنبي ، ما هي اللغة التي كان يلجم
بها في التصوير ، ما هي مصادر هذه اللغة ، ما هي محسنها ومقابحها ، ولست
اعني بلغة المتنبي مجرد الفاظه وإنما أريد بها أيضاً جملة فنه وما يشتمل عليه هذا
الفن من المعائب والقلائد .
اطن ان لغة الشاعر انما هي السحر الذي سحر به والفتنه التي يفتن بها ،
فلا يكون الشاعر شاعرآ الا اذا احب الالفاظ وعرف كيف ينتخبها ، فلا ريب في
ان لغة الشاعر تأثيراً بلغاً في هز العواطف وتحريك القلوب ، فقد قرأت مررة في
مجلة فرنسية ان الدكتور « ماردروس Mardrus » ترجم القرآن بعد ان استعد
لهذا الامر عشرين سنة ، وقد تكلم على هذه الترجمة احد كتاب الفرنسيين فقال : لقد
بلغ من تأثير القرآن في قلوب ثلاثة مليون مسلم مبلغ اجمع فيه المبشرون على
الاعتراف بأنهم لم يستطيعوا ان يردوا مسلماً عن دينه حتى اليوم فاستنتاج الدكتور
« ماردروس » من ذلك ان الكلمة اذا وضعت مواضعها ونزلت منها كانت سحراً
حللاً .

فهل تيسر للمتنبي ان يكون افظه نوعاً من السحر وهو يسمى شعره شعر اللفظ
شاعر المجد خذنه شاعر اللفظ كلانا رب المعاني المأفاق

قبل أن تتبين هذا كله لا بأس بان نعرف قليلاً من مصادر لغته ، من هم الشعراء
الذين كان يأخذ عنهم ألفاظه .

استعمل ابو الطيب بكثير من الشعراء في اختيار ألفاظه ، وقد يطول الكلام
على استعمالاته فأجتزيء بذكر طائفة منهم كأبي تمام والبحري وابن
الرومي وأبي نواس وكثير .

أما أبو تمام فقد كان الضياء الذي يستضيء به فهو كثير الاغتراف من بحره ، لأن حبيباً كالقاضي العدل يضع اللفظة مواضعها ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة او بالفقيمه الورع يتحرى في كلامه ويخرج خوفاً على دينه ^(١)

فرة كان يستعين بابي تمام على انتقاء الالفاظ التي يستطيع أن يصور بها ألوان الصبح والليل فالمعلوم أن الصبح أبيض وأن الليل أسود ولكن ابا تمام قلب هذا المعنى فوصف أذريجان فقال :

و كانت وليس الصبح فيها بأبيض فامست وليس الليل فيها بأسود
فاستحسن ابو الطيب هذا الكلام فقال في وصف منبع :

فالليل حين قدمت فيها أبيض والصبح منذر حللت عنها أسود
ومرة كان يستعين به على انتخاب الكلمات التي تفصح عن دمع عيونه ، فقد رثى ابو تمام اسحق بن ابي ربيع فقال :

شقّ جيوياً من رجال لواسطاعوا لشقو ما وراء الجيوب
فأعجبت ابا الطيب لفظة شق ما وراء الجيوب فعزى بها سيف الدولة في عبده يماك :

علينا لك الا سعاد ان كان نافعاً بشق قلوب لا بشق جيوب
وحيناً كان يستظره بابي تمام على شكرى مشيد الفؤاد ، فابو تمام يقول :

شاب رأسى وما رأيت مشيد الرأس الا من فضل شيب الفؤاد
فااحب المتنبي ان تفلته كلمة شيب الفؤاد فقال :

الا يشب فلقد شابت له كبر شيئاً اذا خضبته سلعة نصلا
وحيناً كان يستظره به على شكرى الدهر ، فقد قال ابو تمام لابي سعيد محمد بن يوسف الشعري :

لقد خان من يهدى سو يداء قلبه لحد سنان في يد الله عامله
فهزته كالماء في يد الله فاستقبل بها سيف الدولة وقال :
على عاتق الملك الاغر نجاده وفي يد جبار السماوات قائمه
ولم يشا أبو الطيب ان يمر بتخريم أبي تمام لمدحه دون الاغارة عليه فلما
قال أبو تمام في خالد بن يزيد الشيباني :
لبس الشجاعة انها كانت له قدماً نشوعاً في الصبا ولدو دا
قال المتنبي لكافور :
لبست لها كدر العجاج كانما
ولما قال في اسحق بن ابراهيم :
ألا ان الندى أضحي أميراً
قال أبو الطيب في بدر بن عمار :
ترى غير صاف ان ترى الجو صافيا
على مال الا مير أبي الحسين

أمير امير عليه الندى كائن له منه قلباً حسوداً

أما البحترى فقد كان يأخذ عنه المتنبى الفاظ الغزل ووصف الطبيعة

لرقة أبي عبادة فلما أراد أبو الطيب أن يجد صفة للعين عرض على خاطره
بيت البحترى :

لو كان في جسمى الذي في ناظريك من السقم
فما عجبه هذا السقم فقال :

أعازنى سقم جفنيه وحشائى من الهوى ثقل ما تحوى مآزره
ولما أراد ان يجعل للاماكن لوناً من الالوان تذكر قول البحترى :

في كل مشرقة حصاماً لؤلؤ وترابها مسلك يشاب بعنبر
فارتاح للعنبر واللؤلؤ فقال في وصف الثوية :

وليلاً توسدنا الثوية تحته كائن ثراها عنبر في المرافق
بلاد اذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبته للمخانق
ولما أراد ان يشبه الماء بشيء لم يجد غير الفضة البيضاء فالبحترى يقول في
وصف البركة :

كانتما الفضة البيضاء سائلة من السبانك تجري في مجاريها
والمتنبى يقول في وصف دار كافور :

ولو ان الذي يخر من الامواه فيها من فضة بيضاء
وربما لجا أبو الطيب الى البحترى في التنقيب عن الفاظ تسير بها الامثال
فلما قال المتنبى :

فإن الجرح ينفر بعد حين اذا كان البناء على فساد
نظر الى بيت البحترى :

اذا ما الجرح رم على فساد تبيّن فيه افراط الطبيب
واما ابن الرومي فقد كان يأخذ عنه الالفاظ التي تمثل حالة من حالات

النفس او صفة من صفات الفكر ، فابن الرومي يقول :
ـ ومن فرحت النفس ما يقتل
فارتاح ابو الطيب لفرح النفس فقال :

ـ فلا تنكرن لها صرعة فلن فرح النفس ما يقتل
و لما أراد ابو الطيب ان يجد صفة للتفكير لم يجد غير الاتقاد فقال :
ـ اشفعي عند اتقاد فكريته عليه منها أخاف يشتعل
و هذا الاتقاد اقتبسه عن ابن الرومي :

أخشى عليك اتقاد الفكر لا حذرا

و اذا نظرنا الى اخذ المتنبي عن ابي نواس تبين لنا انه كان يأخذ عنه الالفاظ
التي تدل على هيبة المدح و اتساع مناقبه فلما قال المتنبي لكافور :

ـ يدل بمعنى واحد كل فاخر وقد جمع الرحمن فيك المعانينا
خطر يالله قول ابي نواس

ـ كاتما انت شيء حوى جميع المعانى

و لما قال في المغيث بن علي بن بشر العجمي :

ـ اذا بدا حجبت عينيك هيبيه وليس يحجبه ستر اذا احتججا

ـ تذكر قول ابي نواس :

ـ ان العيون حجبن عنك بهيبة فإذا بدوت لهن نكس ناظر
اما كثير فقد كان يأخذ عنه كلمات النسيب ، فمن شعر كثير :

ـ رمتني بسهم ريشه المدب لم يصب ظواهر جلدي فهو في القلب جارح
ـ وهذا البيت اوحى الى ابي الطيب قوله :

ـ راميات باسهم ريشها المدب تشق القلوب قبل الجلد



هذه طائفة من المصادر التي كانت تصدر عنها (لغة) المتنبي ولا يتسع المقام
لاستيعابها وانما ذكرت الييسير منها على سبيل الاستشهاد ، فابو الطيب كاف

كثير الاخذ عن أبي تمام، يمشي على آثاره في ألفاظه، ويصعب على قوله، وابو تمام مشهور باسترساله في البديع، وميله فيه الى الرخصة وآخر اوجه الى التعدي^(١) أفكان ابو الطيب يميل الى شيء من البديع تحدياً لابي تمام، وال الصحيح ان ابا الطيب استرسل في البديع في شعره كثير من الاستعارة والتسليل والتشبيه والتجنيد والتزوير والمقابلة والتقسيم والتفسير والاستطراد والتفرع والغلو والاطراد والاتساع والتغير وما شابه ذلك الا انه ربما اخطأ به بديعه الى اسفل مرتب الاساءة .

لا ريب في أن اللجوء الى البديع انما هو من المحسن وإذا كنا نعني بالبديع الجديد من الالفاظ والتراث^(٢) فلامندوبة للغتنا عن هذا الجديد والسبب في ذلك ان اللغة انما هي بقية صور قديمة كانت في خواص عصورها تمثل أشكال الحياة على تباينها ثم بللت هذه الصور وعتقت فاصبحت لا ألوان لها فهي ميتة لا تهز المخيلة فإذا احبينا ان نهز هذه المخيلة وجب علينا ان ندع أي أن نخلق صوراً لأن مثل الصور العتيقة كمثل الرماد الذي يبقى من النار الخامدة فالمجددون في كل عصر انما هم الذين ينفخون في هذا الرماد حتى يتلهمب فلتنظر في قسم من بديع المتنبي .

— من صور المتنبي : التردد

فقلقت بالهم الذي فقلق الحشا فقلقل عيش كلمن

— ومن منه قوله :

أسد فرائسها الاسود يقودها أسد تكون له الاسود ثعالبا

— ومن صوره التقسيم :

أقل أهل أقطع أحمل علـ سـ أعد زـ دـ هـ شـ بشـ تـ فـ ضـ لـ أـ دـ نـ سـ رـ صـ لـ

— ومن هذه الصور الاطراد :

فـ أـ نـ تـ اـ بـ اـ بـ اوـ هـ يـ جـ اـ بـ حـ دـ اـ بـ يـ اـ بـ نـ تـ شـ اـ بـ هـ مـ وـ وـ الدـ

— (١) الوساطة - الصفحة ٣٢٠

(٢) العمدة - الجزء الاول - الصفحة ١٧٧

وحمدان حمدون وحمدون حارث وحارث لقمان ولقمان راشد
ومنها الغلو والشو اهد على غلوه كثيرة :
لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أدى الظلمات صرن شموسا
إلى آخر الأبيات .

— من هذه الأمثلة القليلة يتبعنا مقدار الانخفاض الذي انخفضه أبو الطيب
في تقليده إبا تمام في النهج الجديد .

والى جنب هذه المطاعن مطاعن . كثيرة نبه عليها الآئمة في القديم وفي
طلباتهم الشعالي فلم يتركوا في هذا التنبية مجالا لقائل ولو أعملنا الروية في بعض
لغة المتنبي لتحقق عندنا أن جملة مقابجه اللغوية ناشئة عن فساد ذوقه الغنائي سواء
أكانت هذه المقابح في بشاعة الابتدا آت :

آحاد أم سداس في آحاد ليستنا الموطة بالتسادي

أم في تعقد اللفظ وسوء الترتيب :

وفؤوك كالربع أشجار طاسمه بان تسعدا والمدمع أشفاه ساجمه

أم في الذي ينشأ عن هذا التعقد من اتعاب الفكر :

فتبيت تستد مسندأ في نبها اسدادها في المهمه الانضاء

أم في استعمال الغريب الوحشي من الالفاظ كالابتشاش والساحي والوطس
والسكنهور .

أم في التفاصح بنواخر الالفاظ وشواذ الكلام كالخش والتوراب

أم في الاستكثار من قول : ذا في الشعر ، أم في تكرير اللفظ في البيت الواحد
من غير تحسين :

و لا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل أمثله الف
أم في اللجوء الى المصطلحات الفلسفية المجردة من الصور كالجوهر والملكت
واللاهوت وأشباه ذلك .

أظن ان هذه المقابح كلها اصلها فساد مسامع المتنبي فكان إبا الطيب لا ذوق

له في الموسيقى على أنه يعلم أن الشعر قائم بالفاظه الموسيقية فقد ذكر عنه ابن متشر فأشرف عليه وهو يصنع قصيده التي أورتها :

جللا كابي فليك التبرير

ويتغنى فإذا توقف بعض التوقف رجع بالانشاد من أول القصيدة إلى حيث انتهى منها ^١ . وفي هذه الرواية دليل على تعبه في الشعر وأكثر الذين يتبعون في الشعر يعظم نصيبيهم من سلامه الذوق الموسيقي فعلم كان أبو الطيب يلجاً إلى ما يؤيد فساد ذوقه في هذا الوجه .

شهروا أنا الطيب بالملك الجبار ياخذ ماحوله قهراً وعنوة وشهوه بالشجاع
الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي مالقي ولا حيث وقع ^٢ فن كانت هذه
صفاته فاخلق بشعره أن يكون مطبوعاً بكثرة التفاوت وقلة التنساب وتنافر الاطراف
وتحالف الايات ، فلى جنب هذه المساوى اللفظية التي اشرت إليها والتي لم اشر
بعد كعسف اللغة والاعراب ووضع الكلام غير مواضعه وقطع الكلام قبل استيفائه
إلى غير ذلك مما تعصب له فيه القاضي الجرجاني في وساطته واحتاج بحجه تقاد
 تكون قاطعة ، إلى جنب هذه المساوى كلها قلائد وفرائد بز فيها من تقدمه واياها
 منها من تأخر عنه فما اصح ما قاله الشعالي في تفاوت شعره :

ـ « يجمع بين البديع النادر والضعف الساقط فبيناه يصوغ انحر حلي وينظم
أحسن عقد وينسج النفس وهي ويختال في حديقة ورد اذا به وقد رمى بالبيت
والبيتين في ابعاد الاستعارة او تعويض اللفظ او تعقيد المعنى الى المبالغة في التكلف
والزيادة في التعمق والخروج الى الافراط والاحالة والسفسة والركاكة والتبرد
والتتوحش باستعمال الكلمات الشاذة فمثلاً ذلك الحاسن وكدر صفارها وأعقب
حلواتها مرارة لامساغ لها واستهدف لسهام العائدين وتحكك بالسنة الاطاعين
فمن ممثل بقول الشاعر :

(١) العدة - الجزء الاول - الصفحة ١٤١

(٢) العمدة - الجزء الاول - الصفحة ٨٧

انت العروس لها جمال رائق لسكنها في كل يوم نصرع
ومن مشبه اياته بمن يقدم مائدة تشتمل على غرائب الماء كولات وبدائع
الطيبات ثم يتبعها بطعم وضر وشراب عكر فَسِنَانٌ مُّنْزَهٌ الْوَلَطِيبٌ ص ١٠٨
هذا ما قاله الشاعري في المتني ومقاله صحيح من كل وجهه والظاهر ان التفاوت
في الشعر صفة اكبر للشعراء فقليلًا ماتتناسب قصائدهم وقليلًا ما تطرد حسناً لهم
وبينا الطيب يقول في بعض قصائده :

تعل الحصون الشم طول زانا فلتقي اليها اهلها وتزول
اذا يقول

أغركم طول الجيوش وعرضها علي شروب للجيوش اكول
فلست ادري ما الفرق بين قوله : علي شروب . . . وبين قول العامة في
الفوي الذي لا يالي بالضعف : ياكله اكلا ، فقد اثرا ابو تمام في المتني تأثيرا
جمه له فيه كثيراً من سيناته فان هذه الكلمات : شروب ، اكول اخذها المتني عن ابي
تمام نفسه من قصيدة يمدح فيها الثغرى :

في مكر للروع كنت اكلا المنايا في ظله وشربها
وبينا نجده يقول :

اين فضلي اذا قنعت من الدهر بعيش معجل التنكيد
اذا يقول :

لامة فاضة دلاص أحكمت نسجها يدا داود
فهذا دليل على حرمه على كلامه ومحافظته عليه فهو لا يسمح بمحذف شيء
من هذا الكلام .

لسـه ولكن قلائد ابي الطيب غطت على هذه المفواد فلم تذكر له سينه الا ذكرت
له حسنات فلنـقبح مطلع في قصائده فلقد حسنت مطالع :

أعلى المالك ما يبني على الاسل
ولئن عوص بعض شعره فقد سهل كثير من هذا الشعر :

ترفق إليها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عتاب

ولئن استعمل الوحشى من الالفاظ فقد استكثر من استعمال ما نو سها :

وإذا كانت النقوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

فلو عرضنا امثاله التي سارت وقوافيه التي شردت لوجدننا لفظه فيها وليد

الحضر ، غذى المدر ما يتمثل به الخاص والعام والكبير والصغير والعالم والجاهل

و هذه خصائص لغة الامثال والحكم

ولئن عمد في بعض شعره لمصطلحات الفلاسفة والمنطق التي لا تخلو من شيء

من الجفاف فقد عمد لالفاظ كثيرة خالية من هذا الجفاف فيها نغمات موسيقية حلوة

على السمع اذكر منها قوله : مشى عليها الدهر - شبيبة الزمان وهرمه - يموج ظلاماً -

مكرمات مشت على قدم البر - دمع الحزن - دمع الدلال - دموع تذيب الحسن -

نبتوا تحت ربابه - نسج النعى عليها براقب - الفت دماء الروم طاعتها - الى غير

ذلك من آثار اللغة الشعرية .

ولئن وفق ابو الطيب في بعض الفاظه فقد وفق في بعض صفاته فجاءت

مطابقة للوصوفات كل المطابقة لا تشبه الصفات العامة التي قد تطلق على كل

وصوف دون شيء من المميز فمن هذه الصفات قوله : الحدث المراء - الحسب

الاغر - الرشاً الريء - المروج الفريح - لحب الوفود - الارض الواجهة .

لكن هذه الالفاظ الموسيقية وهذه الصفات الخاصة قد لا تستفيض في شعره

فلا تشبه لغة المتنبي لغة الشعراء اصحاب الفن الذين ارادوا ان يشعروا

فنعوا ، فلا يدخل ابو الطيب في جملة الشعراء الذين يحبون الالفاظ فإذا أردنا ان

نو ازن بينه وبين البختري مثلاً من ناحية الالفاظ وجدنا بينهما فرقاً / المتنبي لا

يسحرنا بالفاظه ولا يفتتنا بلغته الشعرية ، ومع هذا فاننا لا نتجزء من سحره

وقنته فهو كالملك الجبار تهولنا جبريله فيسلينا مشيتنا فندعن لسلطانه سوان

اعدل ام عسف او كالصورة الحسنة في جملتها القبيحة في بعض تفاريقها ننظر الى

جملة أولتها فتحسن في نظرنا وتأمل في بعض تفاريقها فتغطي متاعة الجملة على

شناعة التفارق فلا نبالي بالقبح اليسير الذي يصبحه حسن كثير
قد نستطيع ان نعيّب لغة المتنبي بامور كثيرة كالامور التي ذكرتها في صدر
هذا الفصل او كالامور التي لم أشر إليها ومنها وحدة الأسلوب في بعض شعره
مثل قوله :

أمعفـر الليث المزبر بسوطـه لـن ادخلـت الصارـم المصـقولـا

وقولـه :

ابـنـ المـعـفـرـ فـيـ نـجـدـ فـوـارـسـهـ بـسـيفـهـ وـلـهـ كـوـفـانـ وـالـحـرـمـ
وـمـنـ هـذـاـ نـوـعـ قـوـلـهـ :

قـائـدـوـ كـلـ شـعـبـةـ وـحـصـانـ قـدـ بـرـاهـاـ اـسـرـاجـ وـالـجـامـ
وقـوـلـهـ :

وـخـيلـ بـرـاهـاـ الرـكـضـ فـيـ كـلـ بلـدـةـ اـذـ عـرـسـتـ فـيـهاـ فـلـيـسـ تـقـبـلـ
وـمـنـ هـذـاـ جـنـسـ قـوـلـهـ :

لـاـ يـجـدـنـ رـكـابـيـ نـحـوـهـ أـحـدـ مـاـ دـمـتـ حـيـاـ وـمـاـ قـلـقـلـ كـيـرـانـاـ
وقـوـلـهـ :

وـمـاـ تـقـرـ سـيـوـفـ فـيـ مـالـكـهـ حـتـىـ تـقـلـلـ دـهـرـاـ قـبـلـ فـيـ القـلـلـ
فـالـتـعـفـيـرـ وـالـبـرـيـ وـالـقـلـقـلـةـ أـلـفـاظـ يـكـرـكـرـهـ المـتـنـبـيـ فـيـ بـعـضـ قـصـائـدـهـ وـقـدـ يـكـرـكـرـهـ
غـيرـهـ مـنـ أـلـفـاظـ وـفـيـ هـذـاـ التـكـرـيرـ مـاـ فـيـهـ مـنـ وـحدـةـ أـلـفـاظـ اوـ وـحدـةـ أـسـلـوبـ.
قد نستطيع ان نعيّب ابا الطيب بمجامع هذه العيوب ولكننا لا نستطيع
أن نتفقّد من تأثيره ، فقد فلت ان المتنبي انما هو شاعر المجاز وشاعر الحكمة
والمثل و اذا خلد فانما يخلد من هاتين الناحيتين فالالفاظ التي تحتاج اليها الحكمة
قد اهتدى اليها ابو الطيب وهي الفاظ سهلة وأي كلام أسهل من هذا الكلام :

وـمـنـ نـكـدـ الدـنـيـاـ عـلـىـ الـحـرـ أـنـ يـرـىـ عـدـوـاـ لـهـ مـاـ مـنـ صـدـاقـتـهـ بـدـ

فـلـغـةـ المـثـلـ وـالـحـكـمـةـ قـلـيـلاـ مـاـ تـحـتـاجـ إـلـيـ شـيـءـ مـنـ التـزوـيقـ وـإـنـماـ تـزوـيقـهـ
فـيـ حـقـيـقـةـ تـعـبـيرـهـ وـسـهـولـهـ وـالـأـلـفـاظـ الـتـيـ تـقـتـرـ إـلـيـهـ الـحـرـوبـ قدـ أـلـقـتـ إـلـيـ المـتـنـبـيـ

طاعتها وهي الفاظ شديدة و اي لفظ اشد من هذا اللفظ :

وما تقر سيف في عالكها حتى تقلقل دهرأ قبل في القلل

فلفة الحرب تحتاج الى صور متقدمة تمثل شيئاً من اتقان الميجهاء ولهيب

تلوها والمتنبي لم تخف عليه مذاهب هذه اللغة .

هذه خصائص لغة لونت بمحن مختلف الالوان : مرّة تسهل قتعجل معانيها الى
الذهن قبل الالفاظ ومرة توغر فلا يدركها الذهن الا بعد التعب والكد ،
وحياناً تملّى عليها الحضارة ما ملوف الكلام ومعتاده فيأنس الطبع بهذا الكلام
الانس كله وحياناً تلهمها البداوة من وحشى الالفاظ وشاذها الفاظاً نظن ان
صاحبها من أ杰ف الاعراب طبعاً ، هذه خصائص لغة تارة تبرز لنا مجردة من كل
صورة معرّاة من كل نقش وتارة تختال في حل جمعت ضروب النقوش والتلوين لكن
هذه الصور تؤذيك رئاستها في بعض الاحيان ويرضيك رونق جدتها في بعض
الاوقيات مرّة يصورها صاحبها دون شيء من حشد الخاطر وتتكلف الصناعة
بحسب خلو الجلو من التعقب والتهيب ومرة لانتظر هذه الصور الا بعد الحمل على
القريحة والافراط في التعسف ، هذه خصائص لغة اذا حلّقت في سماء فلا
تطاولها سماء ، لكنها اذا هبطت من عليها هبطت الى الدرك الاسفل ، جمع
صاحبها مختلف المحسن والمساوي . فكان هذا الاختلاف عنوان عقريته
وعلامه خلوده .

قد تهننا في المتن محسن شيء اذكر منها حسن المطالع وحسن الخروج
والتخلص وحسن التقسيم وساقفة الاعداد والاداع في التشبيهات والتشبيلات
وافتراض ابكار المعاني وقد تؤذينا في هذا الشعر مقابع متباعدة اشارت الى ما
تيسّر لي منها لكن هذه المقابع لا تعني على محسنه ، وهذه المحسن لا تزلف جملة
عقريته فان في لغة المتنبي وفي شعره شيئاً لا ادرى ما هو وامل هذا الشيء انما
هو صورة روحه فاذا كانت هذه الروح انما هي روح ملك جبار فالصورة التي
تمسّهونا في شعر المتنبي وفي لغته انما هي صورة الشاعر الجبار ما